الجمهورية الجزائريّة الديمقراطية الشّعبيّة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة قسنطينة.

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم اللغة العربيّة.

رقم التسجيل:..............

الرقم التسلسلي:..........

أسرار البيان القرآني في الآيات الكونيّة

أطروحة مُقدّمة لنيل درجة دكتوراه علوم في اللغة العربية والدراسات القرآنيّة

تخصص: إعجاز القرآن والدراسات البيانيّة.

إعداد الطالب:

يزيد حمودي.

إشراف الأستاذ الدكتور:

رابح دوب.

الاسم واللقب	الرتبة العلميّة	الجامعة الأصليّة	الصّفة
زين الدين بن موسى	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة.	رئيسًا
رابح دوب	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة.	مُشرفًا
أحمد كامش	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة.	عضوًا
صالح غريبي	أستاذ التعليم العالي	جامعة العربي التبسي– تبسة	عضوًا
رزيقة طاوطاو	أستاذ التعليم العالي	جامعة العربي بن مهيدي– أم البواقي	عضوًا
فيصل حصيد	أستاذ التعليم العالي	جامعة الحاج لخضر – باتنة	عضوًا

السنة الجامعيّة:1440هـ-1441هـ-/2019م-2020م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

People's dempcratic Republic of Algeria

Ministry of Higher Education and Scientific Reasearch

University of El-Amir Abderlkader in Islamic Sciences- Constantine

Faculty of Literature and Islamic Civilizaion

Department of Arabic Language

Inscrition № :……

Serial № :……

The secrets of Quranic Rhetoric in the Universal verses

PhD Thesis in Arabic and Quranic Studies

Specialty: Quranic miracles and Rhetoric studies

Prepared by :

Yazid Hammoudi

Supervised by :

Dr. Rabah Dob

First and Family Name	Degree	Original University	Status
Zinedine ben moussa	professeur	Al-Amir Abdelkader University - Constantine	President
Rabah Dob	professeur	Al-Amir Abdelkader University - Constantine	Supervisor
Ahmed kameche	professeur	Al-Amir Abdelkader University - Constantine	Member
Salh ghribi	profess eur	Alarbi tebessi University -tebessa	Member
Razika taoutaou	professeur	Alarbi ben mhidi University– oum albouagui	Member
Fayçal hassid	professeur	Ihaj lakhdar University-batna	Member

Academic Year :1440-1441-2019-2020

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى من سهر الليالي وتحمّل الصعاب من أجلي ... والديّ الكريمين

إلى خير السواعد إخوتي وأخواتي الأعزاء

إلى من وقفت بجانبي قرة عيني ... زوجتي الكريمة

إلى كل الأسرة والأهل

إلى كل السادة الأصدقاء والزملاء الذين حملهم قلبي ولم يذكرهم قلمي

إلى كلّ من شقّ طريق العلم وتحمّل مشاقّه

إلى كل هؤلاء أهدي هذا الجهد المتواضع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وعرفان

للأمّ ذوي الفضل للإنسى فضلهم، وللأمّ لهم عليّ واجب الشكر والتقدير؛ فإنّني أتقدّم بجزيل الشكر لكلّ من كان سندًا لي في هذا العمل...وأخصّ بالذكر فضيلة الأستاذ الدكتور: رابح دوب الذي تحمّل مسؤوليّة الإشراف على هذا العمل ولم يبخل عليّ بتوجيهاته وإرشاداته فله جزيل الشكر والثناء.

كما أتوجّه بالشكر إلى أعضاء اللجنة الموقّرة المناقشة لتفضّلهم بقبول مناقشة هذه الأطروحة ، راجيًا من المولى – عز وجلّ- أن ينفعني بتوجيهاتهم وملاحظاتهم المسجلة حول البحث، وأن ينفع بهم كل من سلك طريقًا إلى العلم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله الذي أنزل القرآن فأخرج به النّاس من الظلمات إلى النّور، فتح به قلوبا غلفًا وأعينًا عُميًا وآذانًا صُمّا، وصلّى الله وسلّم على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه والأئمة الأعلام، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله الذي اصطفاه وجعله سيد ولد آدم أجمعين، أمّا بعد:

إنّ البحث عمل جليل ولكن البحث في القرآن أجل، وكلما كان النظر في القرآن يكبر كان الانبهار بغيره يصغر، كل الخير في الإقبال عليه وكل الشّر في الإعراض عنه، فيه للمطيع أعظم وعد وللعاصي أشد وعيد، وهو الكلام الذي قال فيه عز وجل:

﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]

لقد خلق الله الكون، وجعل فيه آيات بيّنات تشهد بعظمته وفضله، وسخّر ما فيه لخدمة الإنسان وأودع كتابه الجليل من قوانين الكون وأسرار الوجود ما يبعث على النّظر والتأمّل والبحث عن وجوه التطابق والتكامل بين الكتابين، إذ الكون قرآنٌ منظور والقرآن كون مسطور، ولا شكّ أنّ معرفة سنن الله في الخلق ليست أمرًا مُتاحًا لكل من قرأ القرآن ولم يعِ معنى قوله تعالى في مواضع من كتابه:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[النساء: ٨٢]

وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]

ومن هذا المنطلق كانت الآيات الكونية في القرآن من أهم الموضوعات التي تلفت النظر وتدعو إلى الاهتمام، ولا يمكن الحديث عن الآيات الكونية خارج نسقها اللغوي والبياني الذي صيغت في إطاره، فاللغة القرآنية لغة خاصة لا تشبهها لغة أخرى، ومن ثم كان من الضروري أن نقدر للمنهج اللغوي

مقامه في كل بحث قرآني مهما كانت صبغته، وكل دراسة للقرآن تنأى بنفسها عن آليات اللغة والبيان توشك أن تشرف على الزيغ والزلل.

ومن هنا تحدّدت فكرة دراسة أهم الأسرار البيانية في الآيات الكونية، ومع أنّ موضوع بحثنا قد كتب فيه من كتب إلا أنّه لا يزال من البحوث البكر التي تفرض نفسها على العقل البشري في ظل ضغط الحاضر واستعلاء الغرب وغياب رؤية كونية واضحة، ومنهجية علمية سليمة في دراسات المنشغلين بحقل الدراسات القرآنية، إلاّ فيما نَدرْ.

ومن الصّعب أن يقوم باحث بهذا الجهد ويصل إلى نتائج ذات قيمة في هذا الميدان، ما لم يكن على قدر عالٍ من الإلمام بعلوم متعددة تتضافر كلها لصرف معنى الآية إلى وجه من وجوه الحقيقة العلمية الثابتة التي لا مرية فيها.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تتجلى أهمية البحث في الآيات الكونية من خلال ما يأتي:

1- ذكرها في القرآن أولا، إذ بلغت ما يزيد عن ألف آية صريحة وكل ما يذكره القرآن يُعدّ من الأمور التي تفرض على الإنسان الالتفات إليها والبحث في غاياتها ومقاصدها.

2- كون هذا الموضوع من البحوث المتجددة باعتبار خصوصية الخطاب القرآني الذي لا تنفد أسراره ولا تنقضي عجائبه من جهة، وما تفرزه الأبحاث العلمية حول الموضوع بشكل مستمر من جهة ثانية.

3- الوقوف عند خصائص اللغة القرآنية وأعرافها في عرض موضوعات الكون والوجود، ومدى قدرتها على استيعاب قوانين الكون وأسرار الوجود.

4- ظهور تسميات جديدة تعنى بموضوع الآيات الكونية وعلاقاتها بعلوم العصر كـ" التفسير العلمي، والإعجاز العلمي " وما أثارته من تساؤلات ونقاشات على مستوى المنهج والمصطلح.

أهداف البحث:

مما لا شك فيه أنّ كل عملٍ لا يُبنى من أجل غاية مقصودة لن تكون نتائجه ذات قيمة في ساحة البحث العلمي، ويمكن أن نجمل أهدافنا من وراء هذا البحث فيما يأتي:

- إبراز أهميّة النسق القرآني في الكشف عن معاني الآيات الكونية، بناءً على كون القرآن قطعة متكاملة منسجمة يُفسّر بعضها بعضًا.
- بيان عادات القرآن وأعرافه الأسلوبية في الحديث عن آيات الكون، وما لذلك من أثر في توجيه معناها.
- إظهار دور اللغة وإسهامها في فهم موضوعات القرآن وإن كانت من صميم الحقائق العلمية البحتة.
- الوقوف على أهمية الوعي بما يقدمه السياق الحضاري من مفاهيم ونتائج علمية وعلاقة بالدلالة والمعاني في نصوص الوحي.

الدراسات السابقة:

توافر لدى المكتبة العربية مجموعة من المؤلفات، منها الكتب ومنها الرسائل الجامعية، تناولت موضوع الآيات الكونية في القرآن الكريم، خاصة ما تعلق منها بكتب الإعجاز العلمي، واختلف منهج البحث فيها من دراسة لأخرى، فنجد منها من حاول التوفيق بين الآيات الكونية القرآنية وحقائق العلم الحديث دون مراعاة الجانب اللغوي والبياني فيها، ومنها ما اهتم بالجانب العقدي في الآيات الكونية، ومنها ما اهتم بالجانب التربوي ومنها غير ذلك ...ويمكن أن نجمل ما وقعت عليه أيدينا فيما يأتي:

ـ على طريق التفسير البياني: صالح فاضل السامرائي، وهو تفسير في جزئين، تناول فيه المؤلف مجموعة من السور القرآنية من حيث الجانب البياني، وجاءت دراسة الآيات الكونية في هذا المؤَلَّف ضمن مباحث مثل التقديم والتأخير والحذف والذكر والإيجاز والإطناب وغيرها من المباحث الأسلوبية إلى جانب الوقوف عند نسقها ضمن السورة وعلاقتها بالآيات المجاورة.

_ تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين النيسابوري، وهو تفسير يولي اعتبارًا خاصًّا لمباحث اللغة والبيان، وجاءت فيه إشارات مهمة لبعض الأسرار البيانية لموضوعات الكون، إلى جانب سياق ورودها وارتباطها بغيرها من الآيات، مع حديثه عن قضايا مهمة تتعلق بعادات القرآن الأسلوبية وأعرافه في التعبير.

- التفسير الكبير: لفخر الدين الرازي: وهو من التفاسير التي أولت اهتماما كبيرًا للآيات الكونية في القرآن خاصة من حيث الجانب البياني. ويُقدم رؤيته لبعض الظاهر الكونية فيما يسمى بعلم الهيئة.

- من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: حسن أبو العينين جاء في خمسة فصول عرض فيها جوانب من الإعجاز العلمي في آيات من القرآن.

_ الكون في القرآن: دراسة مقارنة: إسماعيل مُحَمَّد قرني، عرض من خلاله نظرة الحضارات القديمة للكون، ثم نظرة القرآن، وبعدها نظرة الحضارة الحديثة.

_ خواطر حول القرآن: مُحَمَّد متولي الشعراوي، جاء فيه تفسير لبعض الآيات القرآنية منها بعض الآيات الكونية.

_ صيرورة الكون مدارج العلم ومعارج الإيمان: مُحَمَّد باسل الطائي فيه حديث عن القرآن والعلم مع الاستعانة بما قدمه علماء المسلمين في الأبحاث الكونية مثل: أبي حامد الغزالي، وابن رشد وغيرهما.

_ الآيات الكونية دراسة عقدية رسالة ماجستير إعداد الطالب عبد المجيد بن مُحَمَّد الوعلان. جاءت هذه الدراسة لتبيّن علاقة الظواهر الكونية بجانب العقيدة، ويكاد يغيب المنحى البياني في أجزاء هذه الدراسة.

_ الليل والنّهار في القرآن الكريم: رسالة ماجستير ديالا عبد الجبار سعيد عبد الله، تخصص أصول الدين بكلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس_ فلسطين. وفيها تطرقت الباحثة إلى جوانب من بلاغة القرآن في الآيات الكونية المتعلقة بالليل والنهار وجاء فيها فصل عن الجانب البلاغي في حديث القرآن عن هاتين الآيتين الكونيتن.

– وصف الطبيعة في القرآن الكريم: كاصد ياسر الزيدي، درس فيه المؤلف بعض ظواهر الطبيعة القرآنية وما فيها من دلالات على عظمة خالقها.

صعوبات البحث:

تمثلت أهم صعوبات البحث فيما يأتي:

1 – عدم اتضاح محددات البحث ابتداءً، وصعوبة السيطرة على أجزائه.

2 – ارتباط الموضوع بشكل دقيق بعدد من العلوم خارج إطار التخصص.

3 – كثرة الآيات الكونية في القرآن حيث قاربت أكثر من ألف آية صريحة، ما صعّب من عملية استقصاء كل مواطن تداولها.

4 – ورود آيات كونية أكثر عددًا من آيات كونية أخرى ما صعّب من تنظيم البحث وتبويبه.

5– كثرة المصطلحات العلمية وتداخلها واختلاف وجهات النظر الأمر الذي زاد من مشقة الباحث.

6– صعوبة تقسيم أجزاء الموضوع وفق ما تقتضيه المنهجية المطلوبة – في الفصول التطبيقية– بحكم الارتباط الوثيق بين الآيات الكونية، وتعارض تقسيمها مع أهداف البحث.

المنهج المتبع:

أمّا من حيث المنهج فطبيعة الموضوع تملي على الباحث اعتماد الاستقراء والتحليل وفق ما يأتي:

1– في الفصلين النظريين لم يُركز البحث على كثرة التعريفات والتقسيمات في تناول أجزاء البحث، مع مراعاة جانب الاختصار ما أمكن.

2– في الباب التطبيقي جُمع ما أمكن من الآيات الكونية ودراستها وفق ترتيب الآيات والسور.

3– تقسيم الباب التطبيقي إلى ثلاثة فصول يُراعَى فيها الاقتران في الذكر بين موضوعات الكون، فجاء الفصل التطبيقي الأول للحديث عن السموات والأرض، وتبعه فصل تطبيقي ثانٍ للحديث عن الشمس والقمر والليل والنهار، وفي فصل تطبيقي ثالث جاء الحديث عن آيات كونيّة أخرى متعددة.

4– الإشارة إلى أهم القضايا البيانية في كل آية كونية مع مراعاة السياق الذي وردت فيه، مع اليقين التام بأنّ الإحاطة بكل الأسرار البيانية للآيات الكونية تتجاوز كل محاولة لحصرها وتحديدها، ما يعكس محدودية الطاقة البشرية وعجزها عن استجلاء كوامن النص.

5- الاختصار في الشرح والتحليل وعدم الخروج بالموضوع عن إطاره القرآني.

6- عدم الاعتماد على قدمته جهود المنشغلين بمسألة الإعجاز العلمي في بعض الظواهر الكونية بسبب الالتزام بعنوان الموضوع وعدم الخروج به عن فلك الدراسة البيانية.

إشكالية البحث:

حفاظا على وحدة البحث وتناسق أقسامه، وسلامة نتائجه وقفنا على بعض أسرار البيان القرآني في الآيات الكونية من خلال وجوه

أولها النظر إلى القرآن على أنّه منظومة متكاملة تتضافر فيها عوامل عِدّة لتحديد ملامح المنهج البياني، وباختصار فالباب الأول تضمّن الإجابة عن المسائل الآتية:

إذا كانت موضوعات القرآن قد صيغت صياغة إلهية محكمة، فكيف يُسهم ذلك في معرفة أصول البيان القرآني وتحديد معالمه ؟ وإلى أي مدى يمكن التعويل على النظرية البيانية في فهم معاني الآيات الكونية واستجلاء أسرارها ؟ وإلى أي حد وُفقت في الإقناع بوجاهتها ؟ وهل هناك أدوات معرفية أخرى يمكن أن تؤدي دورها خارج إطار اللغة والبيان ؟

وبناءً على ما تُقدمه علوم العصر من نتائج حول الآيات الكون، هل من اللازم أن يكون لذلك دور في بناء عملية التفسير وتطويع الألفاظ القرآنية لتناسب معطيات العلوم الحديثة ؟

خطة البحث:

لا يخفى ما في تصنيف المادة العلمية من تعب ومشقة خصوصًا إذا كانت مجموعة من كتب متناثرة، لذلك قسمتها بشكل منطقي يستوعب جميع أجزائها:

وبناءً على ما سبق جاءت الدراسة على النحو الآتي:

قسمتُ البحث إلى جزئين جزء نظري ضمنته فصلين.

جاء **الفصل الأول** بعنوان: أصول البيان القرآني: وفيها جاء الحديث عن أصول البيان القرآني من خلال ثلاثة مباحث، جاء في المبحث الأول: حديث عن خصوصيات اللفظ القرآني، وتضمن المبحث الثاني: العُرف القرآني وأثره في صياغة النظرية البيانية. والمبحث الثالث: جاء تحت عنوان: عن

النسق القرآني: المفهوم والمصطلح ليُبين اختلاف الصياغة في القرآن عن سائر أنواع الصياغة في النصوص الأخرى.

وجاء **الفصل الثاني** بعنوان: الآيات الكونية ومسألة التفسير العلمي، تضمّن مبحثين، جاء في المبحث الأول تعريفٌ للآيات الكونية وبعض المسائل المتعلقة بالتفسير العلمي، وفي المبحث الثاني: وجب الحديث عن الجمع بين القراءتين: الكون والقرآن.

أمّا **الفصل الثالث**: فهو فصل تطبيقي يعرض لبعض الأسرار البيانية لآيات السموات والأرض.

والفصل الرابع: هو فصل تطبيقي كسابقه، جاء فيه الحديث عن الشمس والقمر والليل والنهار.

الفصل الخامس: تطرق إلى جملة من الآيات الكونية الأخرى وما فيها من خصائص في النظم والتأليف.

وذيّلت البحث بخاتمة لخّصت فيها أهم ما قدمتُه من آراء وتحليلات حول الموضوع.

وختامًا هذا ما مكنّي فيه ربي، وأعانني عليه أساتذتي الكرام، وبلغ جهدي وطاقتي، فما كان فيه من صواب فمن الله عز وجل، ثم من توجيه الأستاذ المشرف، وما كان من خطأ أو تقصير فمن نفسي، ومن الشيطان، ولا يُكلّف الله نفسًا إلا وسعها.

ـــــ وصلّ اللهم على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلّم ـــــ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يظهر التحول الذي أحدثه القرآن في ذهنية أهل عصر التنزيل من خلال سُننه في التخاطب، ومنهجه في التواصل مع العقل البشري، وتطويع قوانين اللغة بمنحها روحًا جديدة تتناسب مع رؤيته للوجود ودور الإنسان فيه، وقد ظهرت تلك الروح جلية في إعادة تشكيل الأسماء و المصطلحات بما يتناسب والرؤية الكونية الجديدة، فاللفظ في اللسان العربي مألوفٌ متعارفٌ عليه، ولكن إعادة صياغته وتشكيله في قوالب غير معهودة هو الذي هز نفوس العرب وشد انتباههم للنظر في طبيعة الرسالة الجديدة، حتى غدا مجرد سماع القرآن- عند منكريه — حجة تعجز عن دفعها العقول، وليسوا-بعد ذلك- بحاجة إلى التدبر والنظر لمعرفة مدى صدقه وصحة دعواه، وصار من لوازم الغَلبة والإبطال أن نهى بعضهم بعضا عن سماع القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾ [فصلت]

كان التميز الذي أدركه العرب — منذ لحظة التلقي الأولى- هو ((العامل الوحيد الذي يستطيع أن يقهر شخصية التفرد العربي بمطلقها الذاتي؛ لأن تجربة العرب الوجودية قد اختارت اللغة كمجال لتجسيد ذاتها والتعبير عن تفوقها فلم يكن من الممكن أن يقهر العربي إلا من لسانه وبإبداع يفوق ما أبدع عبر الإنشاء القرآني القاهر للمطلق الذاتي في الإنسان العربي المستعلي عليه حضاريا أُذلت أعناق العرب وهي ما تذل لغير هذا، فلم يجد الخصوم سوى القول بأنه: (سحر يؤثر))).[1]

وليس الوحي مُعطى أنتجته ثقافة اللغة العربية وواقعها الاجتماعي في لحظة تنزل الوحي ((وإنّما فعل شرعي في التاريخ اتّخذ مسلك اللغة العربية للتغيير الشمولي والدائم للواقع الإنساني في أي زمن تاريخي، ولذلك لا يمكن إطلاقا نزع التعالي والقداسة عنه بناءً على كونه لغة بشرية تحمل حروفا وكلمات ومدلولات بشرية، فنقطة التقاطع بين النص الشرعي والتاريخ الإنساني هي اللغة، فالبشر لا وجود له حضاري فكري ومادي دون اللغة، وإذا كانت اللغة كذلك، فلأنّها قوانين وسنن لا يتحقق كل من النّص الشرعي والفعل التاريخي بدونها، ولا استمرار لهما إلاّ بها)) [2]

(1) الإسلامية العالمية الثانية: أبو القاسم حاج حمد، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط:02 (1416هـ-1996م)، ج:02، ص:162.

(2) النص الشرعي وبناء مفهوم التأويل: عبد الرحمان العضراوي، أعمال الندوة العلميّة الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 17-18 شعبان 1434هـ- الموافق: 26-27 يونيو 2013م، تحت عنوان: التأويل سؤال المرجعية ومقتضيات السياق، دار ابن حزم – بيروت، ط2: 1436هـ- 2015م، ص:87.

.

إنّ اللغة هنا تخضع لرؤية القرآن، وذلك عبر إعادة صياغة مصطلحاتها وربطها بمفاهيم لم تكن لها، ومن ثم فنحن هنا أمام ما يمكن تسميته بعربية القرآن وليس عربية قريش)) [1] وتلك خاصية جعلت من النص القرآني كتاب الزمن كله والمكان كله والبشرية كلها ((فهو ليس بنص عصر أو جيل أو مصر ثم ينتهي بانتهائه، وهو غير قابل للتّأقيت لأنّه يتضمن كلمات الله الباقية وهدايته المستمرة)) [2]

ولا بد لكل دارس للناحية البيانية في النص القرآني أن ينطلق من قاعدة هامّة وهي أنّ لغته –مع كونها من جنس لغة العرب في مادتها– إلا أنّ إعادة صياغة عناصر اللغة وأدواتها ضمن منظومة غير مألوفة، هو ما لم يعهده العرب في سائر النصوص التي عرفوها– حتى المقدّسة منها " ((فقد حُمّلت الكلمات طاقات دلالية جديدة، من أجل تأهيل اللغة للتعبير عن البناء الحضاري الجديد)) [3]

واللغة العربية — بدورها– قد اكتسبت من ((لسان القرآن المجيد ونزوله بها أبعادا جعلتها لغة غير قابلة للموت والاندثار وأعطتها قدرة على التجدد الذاتي)) [4]

واستمدّت اللغة القرآنية كمالها من كونها صادرة من مصدر رباني كامل مطلق منزّه عن العيب والنقص، وامتيازها بذلك عن سائر الكلام البشري ونظومه، فالقرآن الكريم كلام الله قولا وصياغة فلم يعهد به الله تعالى لأحد بل تكفل هو بذلك، فهو– إذن– يختلف عن كلام البشر، والتعامل معه يقتضي أن يكون بالمستوى الذي يراعي خصوصيته كنص إلهي مقدس، فليس كل منهج يصلح للغة قد يكون صالح التطبيق على القرآن بحيث تقحم نصوصه المطلقة في قوالب المتناهي المحدود مما يؤدي إلى تحجيم دلالاتها، وحصرها داخل تلك القوالب التي قد لا تسع حتى للغة العربية عند تطبيقها عليها. وإن حرك هذا الأمر بدافع تحري الموضوعية العلمية في دراسة النصوص والتعامل معها – دون وضع أي فوارق بينها – حفيظة كثير من رواد الحداثة، ممن أرادوا خلع أثواب القداسة على النص القرآني، وأنسنته

(1) التأويل في القرآن المجيد — رؤية معرفية– ناجي بن الحاج الطاهر، أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط:17–18 شعبان 1434هـ– الموافق: 26–27 يونيو 2013م، تحت عنوان: التأويل: سؤال المرجعية ومقتضيات السياق، دار ابن حزم — بيروت، ط2: 1436هـ–2015م، ص: 48.

(2) الخطاب القرآني ومناهج التأويل: عبد الرحمان بودرع، الرابطة المحمدية للعلماء: الرباط، ط1: 1435هـ–2014م، ص: 24

(3) المرجع نفسه، ص: 100

(4) لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب: طه جابر العلواني، سلسلة دراسات قرآنية 4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ط1، 2006 ص: 26.

بجعله كغيره من النصوص البشرية الأخرى. ينبغي في نظرهم أن يدرس –فحسب– في إطار تاريخانيته بمختلف ظروفها وأحوالها التي نزل فيها فمن خلالها تفهم دلالاته ومعانيه.[1]

ولعل كلمة "بيان" أكثر الكلمات العربية تعبيرا عن خصائص الرؤية التي تقدمها المنظومة اللغوية العربية، أو الحقل المعرفي العربي " الأصل" عن العالم ليس فقط لأنها من الكلمات الخاصة باللغة العربية إذ لا نجد لها ما يقابلها في اللغات الأخرى، ولا لأنها من أكثر الكلمات استعمالا في القرآن بل لأنها أصبحت عندما تمّت عملية تقنين اللغة العربية وضبط أساليبها التعبيرية علما من العلوم العربية الخالصة " علم البيان" وأكثر من ذلك وأهم لأنها أصبحت تدل على نظام معرفي معين أخذ الوعي به كرؤية ومفاهيم وطريقة في التفكير يتبلور ويتعمق مع الأيام داخل الثقافة العربية الإسلامية فعلى ضوء هذا التطور الذي عرفته كلمة بيان والذي لم يكن في الحقيقة سوى انتقال مضمونها من الكمون إلى الظهور من حالة اللاوعي إلى حالة الوعي »[2].

ولقد سار مفهوم البيان في كتب اللغة في اتجاهين: **الأول**: يشير إلى الانفصال والبعد والافتراق، **الثاني**: يشير إلى الوضوح والظهور « والباء والياء والنون أصل واحد، وهو بعد الشيء وانكشافه، والبين الفراق...وبان الشيء وأبان إذا اتضح وانكشف، وفلان أبين من فلان أي أفصح كلاما منه »[3]

وجاء في لسان العرب: " ضربه فأبان رأسه عن جسده وفصله فهو بينٌ، والبين البعد والفراق، يُقال بانت المرأة عن الرجل، وهي بائن، انفصلت عنه بطلاق »[4]

ويلتقي المعنيان في « كون الشيء المادي والمعنوي إذا ما انفصل عن غيره مما ارتبط به بعلاقة ما أيًّا كان نوعها، فإنّ هذا الذي انفصل بان واتضح عن غيره، فأصبح معروفا بذاته بمعزل عما ارتبط به، أو عمّا دخل في نوعه »[5] فانفصال الشيء وافتراقه عن غيره يعني انكشافه وظهوره، ويمكن أن نفهم من المعنى اللغوي أنّ « الغاية هي تحقيق وجود هذا الشيء بتوضيح معالمه المميزة له »[6]

---

(1) ينظر ما كتبه حول هذه المسألة محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني.

(2) بنية العقل العربي: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط9: 2009م، ص: 16

(3) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر العربي، 1399هـ- 1979م، ج1 ص: 327-328.

(4) لسان العرب: ابن منظور الأنصاري، طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مادة "بين".

(5) تأويل الجملة القرآنية الواحدة: نوار محمد إسماعيل، ط1، 1431هـ- 2010م، ص: 42

(6) المرجع نفسه، ص: 42

فالبيان – من هذا المنطلق- لا يقتصر على جوانب اللغة وأساليبها في التعبير فحسب، بل يتعدى ذلك إلى كل ما أدى إلى الفهم والإفهام، وأزال الغموض والإبهام، وهو في نظر الجاحظ: ((اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان ذلك الدليل لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغتَ الإفهام وأوضحتَ عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع)) (1)

والبيان بمعناه اللغوي – كما عهدته العرب-لم نجد له أثرًا على الصعيد الاصطلاحي فيما بعد، إذ ركزت معظم الدراسات المنشغلة بهذا المجال على جانب واحد هو " الوضوح والظهور " وتراكم بعدها الاهتمام بهذا الجزء دون غيره حتى طال عليه الأمدُ، ولم يعد لـ "البُعد والافتراق" موقعٌ ضمن الدراسات المنشغلة بالبيان فيما بعد.

وظهرت آثار هذا التوجه جلية على مستوى منهج الدرس التطبيقي للقرآن الكريم، إذ غلب على الجهود والممارسات التفسيرية اهتمامها بجوانب **الكشف والإظهار والإيضاح**، فلا نكاد نجد التفاتًا إلى أنّ القرآن الكريم حين كان بصدد إظهار معانٍ وتصحيح لأخرى فهو إبعادٌ في الوقت نفسه لمعانٍ أخرى، وحثٌّ على مفارقة لنمط سائد في التفكير والاعتقاد، فحينما يخبرنا القرآن بأنّ التوحيد هو أساس العبادة ورسالة الأنبياء، ويورد في ذلك الآيات والقصص والأخبار فهو إيضاح وإظهار، وهو في الوقت نفسه دعوة إلى الانفصال والبعد والافتراق؛ إظهار لنمط حياتيّ وتغييبٌ لنمط آخر.

والقرآن الكريم يشير إلى المعنيين بشكل صريح حينما يورد مصطلحي " الظلمات والنور" للدلالة على أنّ الظلمة ليست كلمة مفرغة من المحتوى، بل هي تصوير لحياة بأكملها، يميزها الخطأ في الاعتقاد وفي فهم الإنسان لوظيفته في الحياة ورسالته في هذا الوجود، وما لذلك من أثر في مصيره، وهذه المعاني وغيرها جاءت مُفصّلة في ثنايا النص القرآني – بشتى موضوعاته-تشرح كلها معنى كلمة " الظلمات"

والغاية من ذلك هي إظهار لنمط جديد في الحياة وتوضيح لمنهج يُصحح معتقدات الإنسان وتصوراته للوجود من حوله، وجاء ذلك كله مُفصلا في آيات بينات، تُشكّل في جملتها المجال الدلالي لكلمة " النور".

(1) البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1423هـ-2003م، ص: 56

وهذا التوجّه وإن كان حاصلاً على مستوى حياة البشر فهو حاصل على مستوى اللغة وقوانينها أيضًا، واتصاف القرآن بصفة البيان لا يعني كونه تبيانًا أو تفصيلا لكل شيء فحسب، بل لأنّه **انفصل** عن سائر صنوف الكلام، **وابتعد** عنها على مستوى نظمه وتأليفه، **وظهر** في شكل كيانٍ متميّز يحمل نظرة جديدة لحقائق الكون والوجود ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء]

ولكن مفهوم البيان قد دخل مرحلة جديدة من خلال الظلال التي انعكست عليه في الإطار البلاغي وصار يهتم بالجانب التوصيلي، توصيل المعنى إلى ذهن السامع بأي طريقة كانت، وارتبط مفهومه بكيفيات توظيف آليات اللغة قصد ((إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيّز التجلي))(1)

ويُشير الفقيه المالكي الجرمي إلى الهيمنة الميدانية لعلوم اللغة في مجال العلوم الدينية حينما يؤكد قائلا: ((أنا منذ ثلاثين عاما أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه))(2)

وهو قولٌ يُثبت أهميّة العنصر اللغوي في فهم القرآن وبيان معانيه، لاسيما إذا كان اشتغال اللغة وأدواتها في القرآن مما لم تعهده الأسماع على الرغم من كون مادته اللغوية من جنس مادتهم، وجاء على درجة في التأليف والنظم تتناسب مع مقاصده وكونه رسالة إلى النّاس كافّة، إذ إنّه ((نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلاّ اللّقِن، وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لِما خفي، ولو كان القرآن كلّه ظاهرًا مكشوفًا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لَبطَل التّفاضل بين النّاس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر))(3)

وتُساعد معرفة مزايا أي نص من النصوص بما في ذلك القرآن على تشخيص منطق ولغة ذلك النّص، وبدراسة القرآن نجد أنّه يثبت لنفسه مزايا خاصّة؛ فهو يصف نفسه بأنّه كتابٌ مُبين، بيّنةٌ وآيةٌ واضحة، برهان بصائر حق، قول فصل كتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكلّ واحد من هذه المزايا تُبيّنُ حقيقة من الحقائق؛ فعندما يكون القرآن آية وعلامة على الحقيقة وبيّنة وبرهانًا فهذا يعني

(1) من أصول التفسير اللغوية إلى البناء النصي: عبد الرحمان بودرع، المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، ص: 428

(2) الموافقات في أصول الشريعة: أبو اسحاق الشاطبي، ضبط: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفّان- المملكة العربية السعودية، ط1: 1417هـ- 1997م، ج4 ص: 116

(3) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، ت: أحمد صقر، د ط، ص: 86

أنّ لغة القرآن هي على علاقة تواصل مع عقل الإنسان وفكره، وعندما يعدّ القرآن نفسه واضحًا ومُوضّحًا ومُبيّنًا لصراط الحق والهداية فلا يمكن أن نعدّه نحن صامتًا وغير مفهوم، وعندما يعدّ نفسه قولاً إلهيًّا ثقيلاً فلا بدّ من أن نرى مضامينه أرقى وأرفع من أفكار البشر السّاذجة المتداولة بينهم، كما لا بُدّ من أن تكون في قالب يتناسب وقدراتهم))[1]

ويمكن تحديد أصول البيان القرآني من منطلق وجوه اختلافه عن البيان البشري، من خلال دقة اختيار اللفظ والرقي على مستوى النظم والتأليف، ومن خلال معهوده في الكشف عن المعاني والمقاصد، وليس ذلك على مستوى الآيات فحسب، بل يتسع ذلك ليشمل النظر الكلي للقرآن من خلال نسق الكلمات ضمن الآية، ثم نسق الآيات ضمن السورة، ثم نسق السورة في صرح البناء القرآني.

(1) ينظر: منطق الخطاب القرآني: دراسات في لغة القرآن: مُحَمَّد باقر سعيدي روشن، ترجمة: رضا شمس الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي- بيروت، ط1: 2016م ص: 255.

الفصل الأوّل: من أصول البيان القرآني

المبحث الأول: اللفظ القرآني.

المبحث الثاني: نظرية العرف القرآني وأثرها في صياغة النظرية البيانية

المبحث الثالث: النسق القرآني: المصطلح والمفهوم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: اللفظ القرآني.

لِئن اتسّع الخلاف بين الدَّارسين حول مدى استيعاب التفسير النّبوي لِآي القرآن الكريم بين أن يكون بيانا شاملا بحيث لا يبقى معه مجال للبحث والتَّنقيب، أم هو بيان لا يقف إلاَّ على آيات معدودات حسب الدواعي والحاجات؛ فإنّه لم يقع خلاف فيما يتعلّق بندرة الشروح اللغوية التي رُويت عن الرسول ﷺ ذلك أنّه لم يكن يُفسِّر للصحابة من ألفاظ القرآن إلاّ ما احتاجوا إليه؛ ومِن ذلك:

- تفسيره لقوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة: ١٤٣] قال: الوسط: العدل» [1]

- تفسيره الخيط الأبيض والأسود في قوله تعالى:﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾[البقرة: ١٨٧] بأنّه بياض النّهار وسواد الليل، عندما أُشكِل معناهما على عدي بن حاتم » [2]

- حديث ابن مسعود ﵁ قال: « لما نزلت هذه الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلمٍ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنّه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه:﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣] » [3]

ولا يكاد المتتبعون لِمسار التفسير اللغوي يذكرون غير هذه القِلّة من الشواهد، مما يعني أنّ التفسير المروي عن الرسولﷺ لم يكن لغويا إلا فيما نَدر ذلك أن تفسير القرآن الكريم « هو بالأساس تفسير للمقاصد يتوجّه توًّا إلى معاني الكلام دون البحث عن المبرِّر اللغوي المقنع بتلك المعاني، ولذلك يكاد الرسول ﷺ يضرب الصّفح عن معجم القرآن، ونحوه، وتركيبه، وبلاغته ليكون تفسيره تفسيرا فقهيا عمليا فيصبح السلوك اليومي في عالم الواقع من خلال الوقائع هو الشّارح للقرآن... » [4]

---

(1) صحيح البخاري، محمَّد بن إسماعيل البخاري، مكتبة الصفا – القاهرة، ط1: 2003م، كتاب تفسير القرآن. "البقرة " الباب:13.

(2) المصدر نفسه، " البقرة " الباب: 28

(3) المصدر نفسه، "لقمان": الباب: 1

(4) قضايا اللغة في كتب التفسير: الهادي الجطلاوي، دار محمَّد علي الحاوي، صفاقس، ط1، 1998م، ص: 41-42.

ولَنا في محدودية الشّواهد المذكورة خير دليل على أنّ اللغُّة لم تَنل حضّها من الاهتمام في هذه المرحلة، إذ لا يكاد الدارِسُ يقفُ إلاّ على« شرح معجمي[1] يقوم على الترادف التّقريبي من سِماته الاختصار... والأُحدية، فهذا الشَّرح قِراءة واحدة لا تحتمل الشّك، ولا يدخلها التّعدُّد »[2]

ومن البديهي أنّ الرّسول ﷺ كان يعلم عِلم اليقين أنّ القوم – آنئذٍ-كانوا عربًا خُلّصاً يُدركون معاني القرآن ويعلمون ظواهِره وأحكامه بمقتضى سليقتهم «ولكن يبقى التفسير النّبوي اللغوي في حَجمِه الضّئيل، وفي استِغنائِه عن الرَّصيد اللُّغوي والشِّعري العربي يمثِّل مادةً مكتفيَّةً بذاتها تستمِدُّ حُجَّتها مِن ذاتها، وكأنَّ الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم- بِحُضوره هو عُنصر الإقناع والتّأثير فلا حاجة إلى الدّليل من غير ذات الرّسول؛ فكان فيه داعي القناعة والاقتناع؛ فكأنّ شرح الرّسول هو الشّرح المتعالي عن اللغة وأهلها المستمد لِشرعِيّتهِ من السَّماء؛ فهُو شرحٌ في منزلةٍ بين المنزِلتين، بين سماءِ الله ولغة البَشر...»[3]

ولا يكاد المتتبعون لِمسار التفسير اللغوي يذكرون غير هذه القِلّة من الشواهد، مما يعني أنّ التفسير المروي عن الرسول ﷺ لم يكن لغويا إلا فيما نَدر ذلك أن تفسير القرآن الكريم « هو بالأساس تفسير للمقاصد يتوجّه توًّا إلى معاني الكلام دون البحث عن المبرِّر اللغوي المقنع بتلك المعاني، ولذلك يكاد الرسول ﷺ يضرب الصّفح عن معجم القرآن، ونحوه، وتركيبه، وبلاغته ليكون تفسيره تفسيرا فقهيا عمليا فيصبح السلوك اليومي في عالم الواقع من خلال الوقائع هو الشّارح للقرآن... »[4]

---

(1) أشار مساعد الطيار إلى هذا المعنى تحت مصطلح "التفسير اللفظي" ينظر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم: مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، ص: 68

(2) قضايا اللغة في كتب التفسير: ص: 46

(3) المرجع نفسه، ص: 43- 44

(4) المرجع نفسه، ص: 41-42

ولَنا في محدودية الشّواهد المذكورة خير دليل على أنّ اللغُّة لم تَنل حضّها من الاهتمام في هذه المرحلة، إذ لا يكاد الدارِسُ يقفُ إلاّ على« شرح معجمي[1] يقوم على الترادف التّقريبي من سِماته الاختصار... والأُحدية، فهذا الشَّرح قِراءة واحدة لا تحتمل الشّك، ولا يدخلها التّعدُّد »[2]

ومن البديهي أنّ الرّسول ﷺ كان يعلم عِلم اليقين أنّ القوم – آنئذٍ–كانوا عربًا خُلّصاً يُدركون معاني القرآن ويعلمون ظواهِره وأحكامه بمقتضى سليقتهم «ولكن يبقى التفسير النّبوي اللغوي في حَجمِه الضّئيل، وفي استِغنائِه عن الرَّصيد الُّلغوي والشِّعري العربي يمثِّل مادةً مكتفيَّةً بذاتها تستمِدُّ حُجَّتها مِن ذاتها، وكأنَّ الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– بِحُضوره هو عُنصر الإقناع والتّأثير فلا حاجة إلى الدّليل من غير ذات الرّسول؛ فكان فيه داعي القناعة والاقتناع؛ فكأنّ شرح الرّسول هو الشّرح المتعالي عن اللغة وأهلها المستمد لِشرعِيّتهِ من السَّماء؛ فهُو شرحٌ في منزلةٍ بين المنزِلتين، بين سماءِ الله ولغة البَشر...»[3]

ومن الواضح أن الفكر اللغوي في هذه المرحلة لم يكد يتجاوز المعنى المعجمي إلى قضايا الإعراب والتركيب والبلاغة « وهي مداخل إلى شرح النّص لم يحِن الوقت بعد –في عصر ابن عباس– لتوظيفها في التفسير، وكأنّ الغموض في النّص هو بالدرجة الأولى غُموض مُعجمي بِزوالِه يتّضِح المعنى »[4]

وهذا النوع من التفسير وإن لم يستوعب اللغة بمعناها الواسع؛ فقد كان كافيًّا للفهم؛ « لِأنَّ المنهج منهج التلقِّي للتنفيذ، ومن ثمَّ لم يكن أحدهم لِيستكثر منه في الجلسة الواحدة... فكان يكتفي بعشر آيات يحفظها ويعمل بها؛ فكان هذا المنهج يفتح لهم من الآفاق القرآنية ما لا يفتحه لهم منهج التلقي للدراسة والبحث والثقافة »[5]

وعلى العموم فجهود ابن عبّاس اللغوية في التفسير لِمن يقف عِندها ويدرسها دراسة متأنِّيَّة يدرك مالَها من منزِلةٍ عِلمية؛ فهي من ناحية تُشكِّل مصدرًا أساسيًّا لِكُتب معاني القرآن التي أُلِّفت بعده وما كُتُب معاني القرآن

---

(1) أشار مساعد الطيار إلى هذا المعنى تحت مصطلح "التفسير اللفظي" ينظر: التفسير اللغوي ص: 68

(2) قضايا اللغة في كتب التفسير: ص: 46

(3) المرجع نفسه، ص: 43- 44

(4) قضايا اللغة في كتب التفسير: ص: 46

(5) المدرسة العقلية في التفسير: فهد الرومي، الرياض، ط2، 1983م، ص: 15

التي أُلِّفت في القرن الثاني للهجرة إلاّ تطوير لِمجالس ابن عبّاس وحَلقاتِه وتُشكِّل من نَّاحِيةٍ أُخرى نواةً لِلمعاجِم العربية)) (1)

في القرن الثاني الهجري ظهرت طائفة من أئمة اللغة والنحو كان لها الأثر البالغ في استقامة الحركة اللغوية واتِّضاح معالمها ((ودون أدنى شك أن الحركة اللغوية إنّما قامت أوّل أمرها على حماية القرآن الكريم من اللحن، وأنّ أئمة اللغة ألِفوا في ألسن المسلمين الجدد زيغًا عن صواب قراءته، وانحرافًا عن عربيته؛ فتناولوا القرآن بالدرس، واتخذت تلك الحركة طُرقًا مختلفة من الدِّراسات، وأثَّر ذلك في الدراسات القرآنية خاصة التفسير)) (2)
ومن هذه المصنفات:

– **غريب القرآن**: لِأبّان بن تغلب الجريري، **معاني القرآن**: لِمحمد بن الحسن الرّؤاسي، **معاني القرآن**: لِيونس بن حبيب،**معاني القرآن**: لِعلي بن حمزة الكسائي.

غريب القرآن: لِمؤرج بن عمرو السدوسي، **غريب القرآن**: لِأبي مُحَّد يحي بن المبارك اليزيدي، **غريب القرآن**: للنضر بن شميل، **مشكل القرآن**: لمحمد بن المستنير، **معاني القرآن**: لِأبي زكرياء يحي بن زياد الفرّاء، **مجاز القرآن**: لِأبي عبيدة معمر بن المثنّى، **معاني القرآن**: لِأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، **غريب القرآن**: لِأبي عبد الله مُحَّد بن سلام الجمحي، **وتأويل مشكل القرآن**: لِأبي مُحَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **معاني القرآن**: لِأبي العباس مُحَّد بن يزيد المبرّد، **معاني القرآن**: لِأبي العباس أحمد بن يحي ثعلب)) (3)

والنشاط اللغوي في هذه المرحلة كما شهد اهتمامًا باللفظ في النص القرآني فقد شهد أيضًا توجيهات هي من صميم البحث البلاغي مثل الحديث عن مباحث كالمجاز والاستعارة والكناية وغيرها من المباحث...وهو ما يشهد بثراء التخريجات البلاغية في هذه المرحلة، إذ لم يبقَ للجيل اللاحق سوى استثمار غِلّة هذا الجهد، وضبط مفاهيمه ومصطلحاته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) بذور الدراسة الدلالية لألفاظ القرآن: سعد الكردي، مجلة التراث العربي، العدد: 66، 1977م، ص: 29

(2) التفسير اللغوي: سامي الكناني، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد السادس، جوان: 1999م، ص: 24

(3) ينظر التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ص: 124-125-126

وما يعكس قيمة هذه المصنفات ودورها في بيان معاني الألفاظ القرآنية ووجوه تصريفها واشتقاقها، اهتمامها بمباحث مختلفة تتعلّق ببنية التركيب القرآني، والكشف عن خصائصه الأسلوبية والفنية، الأمر الذي يدفع إلى القول بأنّ قدْرًا كبيرًا من مباحث نظرية النّظم والفكر البلاغي عمومًا قد تحدّدت معالمها، وإن لم تتبلور على الصعيد الاصطلاحي، خصوصًا ما جاء به أبو زكريا الفرّاء، فكلّ تلك الصور التي أبداها «هي بعينها التي نراها في مصنفات البلاغة مِن بعده، ولم يزيدوا عليها شيئًا سوى التسمية وبعض الضوابط والتعريفات، أمّا جوهر الفكرة فواحدٌ عند الجميع »(1)

وسيكون **للفظ** القرآني أهمية كبرى في عملية تفسير القرآن وفهم مضامينه ومقاصده – فيما بعد- ذلك أنّ إدراك تلك القيمة لم يكن من اختصاص علماء اللغة وحدهم بل ظهرت الحاجة إليه في علوم أخرى مجاورة على نحو الفقه والأصول وعلوم القرآن... وغيرها.

ويمكن الحديث عن خصائص اللفظ من خلال صفته التداولية في القرآن الكريم من خلال أمور نذكر منها:

– أن يكون للفظ حضور في لغة العرب ولكن القرآن أعطاه معنى اصطلاحيًّا جديدًا من خلال وروده في سياق خاص.

– أن يكون اللفظ غير موجود ولكن القرآن يشتقه من جذر موجود ومتداول ومألوف المعنى فيعطيه من خلال صياغته الجديدة معنًى مختلفًا ليس هو معنى اللفظ أو الجذر المتداول، وإن كان يمتّ إليه بصلة يقررها السياق الذي يأتي فيه.

– أن لا يكون اللفظ ولا جذره موجودين أو متداولين أصلاً، فأوجده القرآن، ثم جاء في سياق لغوي يوجّه السّامع أو القارئ نحو المعنى الجديد، تحديدًا أو تلميحًا » (2)

وقد كشف الجاحظ عن أهمية العلم بمعاني الألفاظ ودورها في تشكيل ملامح البيان القرآني حينما قال: «ألا ترى أنّ الله سبحانه وتعالى لم يذكُر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع

(1) البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري: رابح دوب، دار الفجر للنشر والتوزيع – القاهرة- ط2: 1999م، ص: 99

(2) ينظر: المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم: أحمد بسام ساعي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- فرجينيا: الولايات المتحدة الأمريكيه، ط1: 1436هـ 2015م.ج1، ص: 189.

والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنّك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث» (1) واعتبر الخطابي اختيار اللفظ المناسب للموقع المناسب عمود البلاغة القرآنية » (2)

ولقد عني أبو حيان الأندلسي بألفاظ القرآن عناية فائقة، وذهب إلى أنّ «من أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقى إلى حسن تركيبها وقبحه، فلن يحتاج في فهم ما تركّب من تلك الألفاظ إلى مُفهم ولا مُعلّم » (3)

والألفاظ القرآنية أصل هام من أصول اللغة التي عني بها أهل التفسير والتأويل، يقول الراغب الأصفهاني: «أوّل ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يُدرك معانيه، كتحصيل اللّبِن في كونه من أوّل المعاون في بناء ما يريد أن يَبنيه، وليس نافعًا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكمهم ...وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنّوى » (4)

والمعاني في القرآن قد تظهر تارة وتغمض أخرى، وعلى هذا الأساس «إذا كان القرآن بهذه المنزلة من الإعجاز في نظمه ومعانيه، احتاجت ألفاظه في استخراج معانيها إلى زيادة التأمل لها، وفضل الروية فيها،

(1) البيان والتبيين، ص: 20

(2) ثلاث رسائل في في إعجاز القرآن: الرماني والخطابي والجرجاني، ت: محمّد خلف الله أحمد و محمّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، رسالة الخطابي، ص: 29

(3) البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1413هـ- 1993م، ج1 ص: 104

(4) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الراغب الأصفهاني، إعداد ونشر مركز الدراسات والبحوث، مكتبة نزار مصطفى الباز، ج1 ص: 4

ولا يقتصر فيها على أوائل البديهة، ولا يقنع فيها بمبادئ الفكرة، ليصل بمبالغة الاجتهاد وإمعان النّظر إلى جميع ما تضمنته ألفاظه من المعاني واحتملته من التأويل)) (1)

ولا بد من الإشارة إلى أنّ معاني الألفاظ لا يمكن فهمها إلا ضمن نسقها ومقامها في القرآن، وإن كان للمعجم دوره في حفظ معنى اللفظ إلا أنّ ذلك لا يُسوّغ قصر معاني اللفظ القرآني على ما وُجد في معاجم اللغة "فاستخدام الكلمة القرآنية وتأويلها وتلبيسها للمسائل عبر الزمان من قبل البشر وتوثيق ذلك في بعض قواميس اللغة العربية وفي بعض الروايات لا يعني أبدا أنّ هذا الاستخدام حجة على ما يحمله القرآن من دلالات لهذه الكلمة، والعكس هو الصحيح، فالقرآن الكريم هو الحجة على قواميس اللغة وعلى الروايات والقاموس الوحيد الذي يُحتج به على ما تحمله المفردات القرآنية من دلالات ومعان هو القرآن الكريم ذاته الذي نزله الله عز وجل تبيانا لكل شيء، فمن المؤكد أنّ جملة الأشياء التي نزل القرآن الكريم تبيانا لها تحتوي على كونه قاموسا لغويا لإدراك دلالاته ومعانيه)) (2)

ويتميز الوحي – كمفهوم مركزي في الأديان السماوية- بفئة من الكلمات التي لا يمكن أن تُستعمل على وجه الخصوص في أيّ وجه من وجوه السلوك الكلامي الإنساني المعتاد، مثل كلمة "تنزيل" التي لا يمكن أن تستعمل أبدا للإشارة إلى فعل كلام عابر بين إنسان وإنسان، لأن المعنى "الأساسي" للكلمة – من حيث أصلها الاشتقاقي- يمنحها وضوحا خاصا يحظر عليها أن تستخدم إلاّ للتواصل فوق الطبيعي، ذلك أن الجذر الذي اشتقت منه الكلمة " ن ز ل " يعني الانتقال من أعلى إلى أسفل... وهذا هو ما يجعل "الوحي" نوعًا خصوصيًّا وغير طبيعي من الظاهرة اللغوية، فالمتكلم فيه هو الله، والمستمع هو الإنسان، وهذا يعني أنّ " الكلام" هنا يتم بين نظام وجود خارق للطبيعة، ونظام وجود طبيعي)) (3)

---

(1) النكت والعيون: الماوردي، راجعه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ج1ص:31-32

(2) قصة الوجود: عدنان الرفاعي: مركز الذكر للدراسات الإسلامية، ص: 11

(3) ينظر: الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إزوتسو، ترجمة: هلال مُحَمَّد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ط1: 2007م، ص: 243

ومفارقة القرآن لسائر صنوف الكلام الأخرى لم تكن بسبب أنّه أوجد لنفسه معجمًا خاصًّا فحسب، بل أضاف إلى ذلك تميّزه نحوًا ورسمًا وتصريفًا ودلالة، وكل فهمٍ للقرآن لا يمكن أن يَتمّ إلا في ضوء هيمنة القرآن وحاكميته، واعتباره النموذج الأمثل لكل قاعدة لغوية أو بلاغية «والمشكلة أنّ الكثيرين يتعاملون مع كتاب الله تعالى على أنّ دلالاته تابعة لقواميس اللغة التي وضعها البشر، وأنّ قواعد صياغته تابعة لقواعد النحو التي وضعها البشر، وأنّ رسم كلماته تابعة لمصطلح الرسم الذي وضعه البشر، مع أنّ الحق هو نقيض ذلك، فالقرآن الكريم معيار لغتنا رسمًا ونحوًا ومعنًى» (1)

إنّ كلّ لغة تحمل في كيانها – قليلا أو كثيرًا- من خصائص نظرة أهلها للعالم ومفصَلتهم له، واللفظ كونه جزءًا من اللغة لا ينفك عن هذه الخاصية، لأنّ تسمية الأشياء تحكمها أمور منها ما يتعلّق بالدال ومنها ما يتعلق بالمدلول، وهي في جملتها تعكس خصائص الصياغة البشرية التي يمكن وصفها بالمواصفات الآتية:

1- **ما يرتبط بالمدلول**: تتعلق هذه التسمية بدرجة إدراكنا لماهية المسمى، فالتسمية بقدر ما تصور حقيقة الأمر أو الشيء، بمقدار ما تكون قريبة من وصفه الوصف الحق، وبالتالي فالتسمية الحقيقية تقتضي إدراكا كاملا لماهية المسمى، وبمقدار نقص إدراكنا لحقيقته يكون النقص على مستوى الدال.

والواقع أنّه ليس بمقدور البشر – مهما بلغ من العبقرية- أن يدرك الأشياء كلها على حقيقتها إدراكا جازما يفضي به إلى إيجاد تسمية تناسب حقيقة المسمى وتحيط بجميع أوصافه، وهذه الميزة تأتي على رأس المميزات التي يتصف بها اللسان البشري في كل مكان وفي كل زمان.

2- **ما يرتبط بالدّال**: تتعلق هذه المسألة بقدرتنا على وصف ما أدركنا من ماهية المسمى، وبالتالي بمقدار ما تكون قدرتنا على وصف ما أدركناه (عبر قالب لغوي) أكبر، بمقدار ما تكون تسميتنا للمسمى أقرب إلى التسمية الحق.

(1) المعجزة الكبرى: عدنان الرفاعي، دار الخير، دمشق، ط1، 2006م، ص: 46

3- **ما يرتبط بماهية المدلول وتغيّره عبر الزمن:** تتعلق هذه التسمية بدرجة إدراكنا لحيثيات تغير ماهية المسمى مع الزمن، وتتعلق- أيضا- بدرجة إدراكنا لحيثيات إدراك الأجيال المتلاحقة لهذا التغير، وبالتالي تكون هذه التسمية أقرب إلى وصف حقيقة الشيء وصفا يتماشى مع تغير ماهيته عبر الزمن»" [(1)] .

والقرآن يحيط بحقائق الأشياء والأوصاف ويتمايز عن النصوص البشرية التي يجهل أصحابها كنه الأشياء وبواطن أوصافها ...وعليه فإن ظهور رؤية جديدة حيال الصورة الحقيقية للأشياء وأوصافها الباطنة يترك تأثيرًا على تمثل المقاصد الإلهيّة من الآيات الكريمة.

ومما أوقفنا عليه الخطابي في رسالته ما يتعلق بتعليل عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن، والعلة في ذلك هي القرآن نفسه لا إلى الذين أنزل إليهم « وإنما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأمور: **منها:** أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تُدركُ أفهامهم جميعُ معتني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلامٍ مثله » [(2)]

ولا شك أنّ معرفة أصل الكلمة ووجوه تصريفها علم جليل يكشف عن خصوبة العربية، وسعة معانيها ومذاهبها في التعبير، ثم إنّ تجلّي هذه الظاهرة في القرآن الكريم ينبئ عن مظهر من مظاهر الاتساع الدلالي والقدرة الفائقة على استيعاب المعاني المتعددة باللفظ الواحد، ما لا يمكن أن يتحقق لسائر صنوف الكلام.

ومن نماذج تعدد المعنى للفظ الواحد في النسق الواحد قوله تعالى:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣]

ورد للفظ "سورة" في الآية معاني متعددة يحتملها السياق، فقيل: «اشتقاقها من سورة البناء والمدينة، لأنّ السّور يوضع بعضه فوق بعض حتى ينتهي إلى الارتفاع الذي يُراد، فالقرآن أيضًا وضع آية إلى جنب آية حتى بلغت

(1) ينظر: الحق المطلق: عدنان الرفاعي، مركز الذكر للدراسات الإسلامية، ص: 67

(2) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، رسالة الخطابي، ص: 27.

السورة في عدد الآي المبلغ الذي أراده الله تعالى، وقيل: سميت سورة لأنّها وُصفت بالعلو والرّفعة، كما أنّ سور المدينة سُمي سورًا لارتفاعه، قال النابغة:

ألم ترَ أنّ الله أعطاك سورةً   ترى كل مَلكٍ دونها يتذبذب

أي: شرفًا ورفعة، وقيل: سميت سورة لإحاطتها بما فيها من الآيات، كما أنّ سور المدينة محيط بمساكنها وأبنيتها... » (1)

والسورة القرآنية تكتسب من كل هذه المعاني صفاتها وخصائصها، ولا تتعارض مع واحدة منها، ومع أنّ الناظر في كلام العرب يجد هذه المعاني مجموعة في معاجم اللغة إلاّ أنّ الجمع بين هذه الدلالات في نسق واحد مظهر من مظاهر تميّز القرآن عن سائر صنوف الكلام...ومن نماذج ذلك أيضًا، لفظ " التوفّي" في قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران: ٥٥]

حيث يمكن حمل اللفظ على معاني متعددة دون أن يكون بينها أيّ تعارض، فقيل: متوفيك أي: « مُتمّم عُمرك، وعاصمك من أن يقتلك الكفار الآن، بل أرفعك إلى سمائي وأصونك من أن يتمكنوا من قتلك...وقيل: التوفي: أخذ الشيء وافيًا، أي: آخذك بروحك وجسدك جميعًا، فرافعك إليّ، دفعًا لتوهّم من يتوهّم أنّه أُخذ بروحه دون جسده، وقيل: مُتوفيك: قابضك من الأرض، مِن توفّيتُ مالي على فلان أي: استوفيته، وقيل: أجعلك كالمتوفّى لأنّه إذا رُفع إلى السّماء انقطع خبره وأثره على الأرض، فيكون من باب إطلاق الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصّه وصفاته... » (2)

وفهم معاني ودلالات الألفاظ لا يتم بالوقوف عليها في معاجم اللغة وحدها، فالسياق القرآني –أحيانا– يستدعي واحدا من تلك المعاني دون غيرها، للدلالة على معنى خاص، كما يمكن أن يستدعي كل معاني اللفظ ضمن نسق أسلوبي واحد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين النيسابوري، ت: زكرياء عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1996م، ج1 ص: 30.

(2) المصدر نفسه: ج2 ص: 171.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾[غافر: ٣٢] يتضح أنّ يوم التناد هو يوم القيامة دون شك، ولكن سبب تسميته بهذا الاسم يمكن فهمه من وجوه منها « أنّ أهل الجنة يُنادون أهل النّار والعكس، ومنها أنّه من قوله: ﴿ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ ﴾ [الإسراء: ٧١]

ومنها: أنّ بعض الظالمين يُنادي بعضًا بالويل والثبور، قائلين: يا ويلنا، ومنها: أنّهم يُنادون إلى المحشر، ومنها: أنّه ينادي المؤمن ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾والكافر ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴾

وقيل: التنادّ مُشدَّدًا، وأصله: من ندّ إذا هرب نظيره: ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ ﴾ [عبس: ٣٤ – ٣٧] »(1)

وتظهر هذه القاعدة في موضع آخر من قوله تعالى:﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ ﴾[البقرة: ٢٥٩] لم يتسنّه: لم يتغيّر، وأصله من السّنة، أي: لم يأتِ عليه السنون، لأنّ مرّ السنين إذا لم يُغيّره فكأنّها لم تأتِ عليه... وقيل: أصله لم يتسنّن إمّا من السّن وهو التغيّر، قال تعالى: ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾[الحجر: ٢٦] أي متغيّر منتن، وإمّا من السّنة أيضًا... من أنّ أصل سنة يجوز أن يكون " سننة" بدليل سنينة في تحقيرها...وعن أبي على الفارسي: أنّ السّن هو الصّب، فقوله: ﴿ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ ﴾: أي: الشّراب بقي على حاله لم ينصب، فعلى هذا يكون قوله:﴿ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ ﴾ عائدًا إلى الشراب وحده، ويوافقه قراء ابن مسعود: ﴿ فَانْظُر إلى طَعَامِكَ وَهَذا شَرابُكَ لَمْ يَتَسَنّنْ ﴾ »(2)

(1) المصدر السابق: ج 6 ص: 35

(2) المصدر نفسه: ج 2، ص: 26

ولا تقتصر دلالة اللفظ على مدلولها القاموسي فحسب، وإنّما تحتوي على كل المعاني التي قد نتخذها ضمن السياق اللغوي، وذلك لأنّ الكلمات في الواقع لا تتضمن دلالة مطلقة بل تتحقق دلالتها في السياق الذي ترد فيه، وترتبط دلالة الجملة بدلالة مفرداتها.

وتظهر في ذلك دقة التعبير القرآني في اختيار المفردات ذات الدلالات الواسعة التي لا تستطيع مفردة أخرى أن تؤدي المعنى نفسه الذي أعطته المفردة القرآنية في سياقها، وتمثل هذه الخاصية الأسلوبية وجهًا من وجوه توسّع الدلالة واشتغالها، وتُشكّل أصلا هامّا من أصول البيان القرآني المعجز، ولا يتأتى لكل محاولة أن تدخل إلى عوالم النص من غير اعتبار لأدوات اللغة وآلياتها، لأنّ الجهل بهذه القاعدة الهامة يؤدي إلى أسر النص وتضييق طاقاته الدلالية والإيحائية، ومن ثمة قصور في الفهم والعمل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: العرف القرآني وأثره في صياغة النظرية البيانية.

يُطلق لفظ العرف أو العادة أو معهود القرآن للدلالة على ما تكرّر على طريقة واحدة أو غالبة، و**العادة** لغة: من عاد يعود عَودًا، والعَود: تكرار الأمر وتثنيته ›› (1)

وقال ابن فارس: ‹‹ العين والواو والدال أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تثنية في الأمر، وهو العَود.. ›› (2) **والمعاد**: كل شيء إليه المصير، والآخرة معاد النّاس، والله تعالى المبدِئ المعيد، وذلك أنّه بدأ الخلق ثم يعيدهم، وتقول: رأيت فلانا ما يبدئ وما يعيد، أي: ما يتكلّم ببادئة ولا عائدة، ومنه المعاودة، واعتياد الرجل، والتعود، والقياس صحيح في كل هذه المعاني (3) والقرآن أحدث تحولا في التفكير والتعبير، إذ كان للعرب عرفهم في التفكير وعاداتهم في التعبير، فجاء القرآن وفق نمط خاص مختلف عن سائر أنماط التفكير والتعبير المتداولة بين بني البشر.

والعادة: الدربة، والتمادي في شيء حتى يصير له سجية (4) ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩] لأنّ للقمر منازل تبدأ وتعود في كل مرة، حتى صارت له سجية، ولهذا جاء التعبير باستخدام الفعل" عاد" لأنّه أنسب الأفعال تعبيرا عن المقام.

ومن القضايا المهمّة عند الرماني في مسألة إعجاز القرآن، قضية نقض العادة، يقول: ‹‹ وَأَمَّا نَقْضُ الْعَادَةِ فإِنَّ الْعَادَةَ كَانَتْ جَارِيَةً بِضُرُوبٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ مَعْرُوفَةٍ: مِنْهَا الشِّعْرُ وَمِنْهَا السَّجْعُ وَمِنْهَا الْخُطَبُ وَمِنْهَا

---

(1) المفردات في غريب القرآن: مادة عود.

(2) معجم مقاييس اللغة: مادة عود.

(3) المصدر نفسه: مادة عود

(4) المصدر نفسه: عود

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرَّسَائِلُ وَمِنْهَا الْمَنْثُورُ الَّذِي يَدُورُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَدِيثِ فَأَتَى الْقُرْآنُ بِطَرِيقَةٍ مُفْرَدَةٍ خَارِجَةٍ عَنِ الْعَادَةِ لَهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْحُسْنِ تَفُوقُ بِهِ كل طريقةٍ، ولولاَ أنّ الوزنَ يحسِّنُ الشّعر لنقصت منزلته في الحُسْنِ نقصاناً عظيماً » [1]

واهتمَّ الباقلاني بهذا الجانب في مقام حديثه عن وجوه الإعجاز القرآني فقال: « وذلك أنّ نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه – خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصُّ به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيّد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر، على اختلاف أنواعه، ثمّ إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدّل المسجّع، ثم إلى معدل موزون غير مسجّع، ثم إلى ما يُرسل إرسالاً، فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلاً في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمَّل فيه ، ولا يتصنّع له، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق » [2].

وقد تعددت مواضع ذكر العادة في القرآن أحيانا بلفظها وأحيانا بمعناها من ذلك قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧]

قال ابن جزي: « ومعناه: العادة، أي: هذه عادة الله مع رسله » [3] وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣]

(1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص:111

(2) إعجاز القرآن: أبو بكر بن محمد الطيب الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف – مصر، ص: 35.

(3) التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبي، ت: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1: 1415هـ- 1995م، ج2، ص: 116

قال الماوردي: ((يعني طريقة الله وعادته السالفة نصر رسله وأوليائه على أعدائه)) (1)

وقال ابن تيمية: ((ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية، فالمتكلّم يريد دلالة اللفظ على المعنى، فإذا اعتاد أن يعبّر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها عرف عادته في خطابه، وتبيّن له من مراده ما لا يتبيّن لغيره، ولهذا ينبغي أن يُقصد إذا ذُكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ، ماذا عنى بها الله ورسوله ؟ فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث، وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة من كلامه)) (2)

وثمة مِن اصطلاحات العصر الجاهلي ما بقي على حاله بعد مجيء القرآن مثل: الجنة، الفردوس، الجن، الملائكة، الحج، العمرة، وغيرها، في حين تغيّرت بعض الاصطلاحات الرائجة في عصر الجاهلية، فاختصّت أحيانًا مفاهيم عامّة مثل الشريعة، الرسول، الصلاة، والصيام بمعانٍ خاصة بالقرآن، في حين توسّعت حدود بعض الاصطلاحات السابقة مثل الكفر، الفسق، النفاق وأمثالها، وأعطى القرآن في ظل سياقه لبعض الكلمات دلالات لم تكن موجودة سابقًا، وفرّق بين الفلاح والفوز والأجر والثواب، والعذاب والعقاب، والريح والرياح، والغيث والمطر، والنعمة والنعيم...إلخ، واستعمل كلاًّ منها في مكان معيّن كاستعماله المطر في العقوبات الدنيوية وموضع العذاب، والغيث في الخير والبركة، وبلحاظ هذه الخصوصيات ينتفي الترادف عن كلمات القرآن، لأنّ لكل كلمة في مكانها الخاص معناها)) (3)

وكل هذه المصطلحات وأمثالها لها معنى في لغة العرب ولها وجود في العرف الجاهلي لكن الثقافة القرآنية منحتها معاني متفاوتة مع النسق الثقافي الجاهلي بحكم تمايز ثقافتها ورؤيتها الكونية، الأمر الذي نتج عنه استعماله للمفردات في بنيته الخاصة. وكما أنّ الوجود – بكل ما فيه– خاضع لسنن الله عز وجل لا يحيد عنها،

---

(1) النكت والعيون: الماوردي، راجعه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ج5، ص: 318

(2) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ت: أنور الباز وعامر عامر الجزار، دار الوفاء، ط3: 2005م، ج7، ص: 115

(3) التطور الدلالي في لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: خليل عودة، مكتبة المنار: الأردن، ط4: 1405هـ، ص: 22_ 30

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالقرآن أيضا خاضع للسنن نفسها، وإذا وجدنا إحكاما في الخلق، ونظامًا في الوجود؛ فإننا نجد الإحكام ذاته في آيات القرآن وسوره. وعادات القرآن الأسلوبية هي عادة الله تعالى في كلامه المنزل، أو ما كرّره على طريقة واحدة أو أغلبية لدلالة خاصة » (1)

وقد جعل الشنقيطي ذلك نوعا من أنواع البيان القرآني، حينما قال: « ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن» (2) .

ويُطلق مصطلح العرف القرآني ويراد به عادات القرآن، وكليات القرآن وهي: « ما يطلقه بعض المفسرين على لفظ أو أسلوب بأنّه يأتي في القرآن على معنى مُطرد... ولا تكون هذه الإطلاقات إلاّ بعد استقراء للقرآن، وهذه الأحكام بعد الاستقراء إمّا أن تكون كلية لا تنخرم، وعليه فهي قاعدة مرجحة عند الاختلاف، لأنّ الاستقراء التّام حجة، أو تكون منخرمة بأمثلة فيبيّن المفسر هذه الأمثلة، وعلى هذا تكون الأحكام أغلبية، ويمكن الاستفادة منها في الترجيح » (3)

وقد عبّر أهل العلم عن عرف القرآن بألفاظ أخرى مثل: كليات القرآن، ومعهود القرآن، وعادات القرآن، قال ابن القيم: « للقرآن عرف خاص ومعانٍ معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه المعهود من معانيه فإنّ نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ، بل أعظم، فكما أنّ ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلّها وأفصحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم، فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي والإعرابي» (4)

---

(1) ينظر عادات القرآن الأسلوبية: راشد بن حمود الثنيان، رسالة دكتوراه، ط1: 1432هـ- 2011 م، ص: 29
(2) مقدمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمّد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية القاهرة 1415هـ ، ص: 23
(3) فصول في أصول التفسير، مساعد الطيار، دار النشر الدولي الرياض، ط1 1413هـ -1993م، ص: 122
(4) بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزيّة، تحقيق: علي بن محمّد العمران، دار علم الفوائد ج 3ص: 538.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقال ابن القيم: « إنّ هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن الكريم، وهي أنّ أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله عز وجل فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف وبنى الفعل معها للمفعول أدبًا » (1)

وأشار النيسابوري إلى ذلك فقال: « وقد تختص اللفظة في القرآن بشيء فتكون أمارة له » (2)

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤] قال البيضاوي: « والكتاب في عرف ما يتضمن الشرائع والأحكام، ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة القرآن » (3) وقد اعتنى السلف بعادات القرآن فظهر ذلك في تفسيرهم من ذلك:

قول ابن عباس: رضي الله عنه: في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] كادوا لا يفعلون، ولم يكن الذي أرادوا، لأنّهم أرادوا أن لا يذبحوها، وكل شيءٍ في القرآن: كاد، أو كادوا، أو: لو، فإنّه لا يكون، وهو مثل قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥]

وقال الجاحظ: « وفي القرآن معانٍ لا تكاد تفترق: مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنّار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس» (4)

وردّ ابن القيم في سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [التكوير] على من فسّر الخنّس بالظباء وبقر الوحش قائلا: « أنّه ليس بالبيّن إقسام الرّب –تعالى– بالبقر والغزلان وليس هذا

---

(1) التبيان في أقسام القرآن ابن قيم الجوزية ، ت: طه يوسف شاهين، ت ط، 1402هـ-1982م، ص: 29

(2) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ج1ص: 459

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي عبد الله بن عمر بن محمّد القاضي، المكتبة الإسلامية، تركيا، دار صادر، ج1 ص 125

(4) البيان والتبيين، ص: 21

عرف القرآن ولا عادته، وإنّما يقسم سبحانه من كل جنسٍ بأعلاه، كما أنّه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها وهي النفس الإنسانية، ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجلّه وهو القرآن، ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء وشمسها وقمرها ونجومها.... » (1)

ومن عادات القرآن الأسلوبيّة ما أورده ابن عطيه في قوله: « سبيل الواجبات الإتيان بالمصدر مرفوعا، كقوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ١٧٨] وسبيل المندوبات الإتيان به منصوبا، كقوله تعالى: ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ [محمّد: ٤] » (2)

وتدخل تحت هذه القاعدة آيات كثيرة من القرآن الكريم منها:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٩٢] وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٤]

وفي هذه المواضع جاء المصدر الدال على الأمر مرفوعا لأنها في سياق الإتيان بالواجب، وجاء منصوبا في مواضع أخرى إذا كان في سياق المندوبات، ومن ذلك:

---

(1) التبيان في أقسام القرآن: ص:74

(2) ينظر الإتقان في علوم القران: جلال الدين السيوطي، ت: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي: بيروت، ت ط: 1425هـ-2004م، ص: 472

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾ [البقرة]

وفي قوله تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] ما يشير إلى تلك القاعدة، ذلك أنّ إلقاء السلام مندوبٌ فجاء المصدر منصوبًا "سلامًا" أمّا رد السلام فهو واجبٌ فجاء المصدر مرفوعًا "سلامٌ" والنكتة في ذلك أنّ الجملة الاسمية أثبت وأكد من الفعلية [1]

والأصل في الأولى هي: سلّمنا سلاما وهي جملة فعلية، والأصل في الثانية: عليكم سلامٌ وهي جملة اسمية، والاسمية أقوى وأكد من الفعلية، وهذا يناسب معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]

قال الشنقيطي: ((أنّ من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولا، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، وذكرنا في ترجمته أيضًا أنّ من أنواع البيان التي تضمنّها الاستدلال على المعنى بكونه هو الغالب في القرآن، لأنّ غلبته فيه تدلّ على عدم خروجه من معنى الآية)) [2]

وباتّباع قاعدة العرف القرآني ردّ الشنقيطي على مَن فهم مِن الآية أنّ الجبال في دار الدنيا يحسبها الرائي جامدة، وهي في الحقيقة تمر مرّ السحاب، فقال: ((وإيضاح ذلك أنّ بعض النّاس قد زعم أنّ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ يدلّ على أنّ الجبال الآن في دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة،

---

(1) ينظر الإتقان في علوم القرآن ص: 472

(2) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ج6ص: 489

أي: واقفة ساكنة غير متحركة، وهي تمر مرّ السّحاب...والنوعان المذكوران من أنواع البيان، يبيّنان عدم صحة هذا القول.

أمّا الأوّل منهما: وهو وجود القرينة الدّالة على عدم صحته، فهو أن قوله تعالى:﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ ﴾ معطوف على قوله: ففزع، وذلك المعطوف عليه مرتّب الفاء على قوله:﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآية. أي: ويوم ينفخ في الصور فيفزع من في السماوات، وترى الجبال. فدلّت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أنّ مر الجبال مر السحاب كائنٌ يوم ينفخ في الصور لا الآن.

وأمّا الثاني: وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن فواضح، لأنّ جميع الآيات التي فيها حركة الجبال كلها في يوم القيامة،كقوله تعالى:﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ١٠ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ ﴾[الكهف:47] وقوله تعالى:﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠ ﴾ [النبأ] وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣ ﴾ [التكوير])) (1)

والقرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم؛ فمفرداته مفرداتهم، وجمله جملهم، وقواعد صوغه قواعدهم من حروف العرب تألفت كلماته، من كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم جاء تأليفه، ومع هذا فقد أعجزهم بأسلوبه الفذّ، ومذهبه الكلامي المعجز، ولو دخل عليهم من غير الباب الذي يعرفونه لأمكن أن يُتَلمَّس لهم عذر، وأن يُسَلَّمَ لهم طعن أشبه طعن)) (2) .

---

(1) المصدر السابق: ج6، ص: 490-489

(2) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: مُحَمَّد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط1: 1995م، ج 2 ص: 200

وعادات القرآن وعرفه في الصياغة والتعبير هو وجه من وجوه اختلافه عن كلام البشر، وهو من الأصول الهامة التي ينبني عليها فهم معاني النص ودلالاته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث: النسق القرآني: المفهوم والمصطلح.

إنّ تلقي النّص الجديد وما صاحبه مِن رؤية جديدة للكون والوجود واللغة – أيضًا– يؤكّد أنّ كل محاولة لفهم النص لا بد أن تمر عبر أدوات اللغة وقوانينها في التعبير، وكلّ مَن يطّلع على المحاولات الأولى لتلقي الخطاب يجد إدراك الأوائل لأهمية العنصر اللغوي في فهم القرآن، وإن لم تتبلور تلك الاهتمامات في شكل نظرية لغوية محددة المعالم.

ولم تكن فكرة النسق غائبةٌ عن ذهنية من عاصر نزول القرآن، بحكم قربهم من روح اللغة ومنطقها في التعبير، ومعرفتهم الواسعة بأساليب العربية وقوانينها في النظم والتركيب، وأدركوا تميّز القرآن من هذه النّاحية منذ اللحظة الأولى لتلقي الخطاب القرآني، وأنه ليس شعرًا ولا كهانة ولا شيئا آخر من قبيل ما تعارف عليه البشر، وفي ذلك اعتراف صريح باختلاف البنية القرآنية وقدرتها على حمل مدلولات ومفاهيم لا يتيسّر لكل قدرة بشرية – مهما كتب لها من العبقرية والتفوق– أن تمسك بها أو تُعبّر عنها.

وإن لم تظهر التسمية المعبّرة عن فكرة النّسق، فمفهومها حاضر في أذهانهم، فالتسمية أو المصطلح إنما يعبران عادةً عن مفهوم أو مقولة متقدمة لم تستطع المصطلحات المتداولة الاستجابة لها والتعبير عنها بخصائصها الجديدة.

وتبلور هذا الاهتمام– فيما بعد– في ظل البحث عن الوجه الذي كان به القرآن مُعجزًا من ناحية، وفي ظل الرّد على الطاعنين في لغة القرآن ونظمه وأساليبه في التعبير من جهة ثانية، فظهرت مع الجاحظ ومع القاضي عبد الجبار المعتزلي وغيرهما مصطلحات هامّة تعبّر عن هذا المفهوم مثل (النّظم، والضّم...)

ويعد القاضي عبد الجبار من أوائل من أدرك تفرد الخطاب القرآني من هذه النّاحية فقال: « اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضمّ على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضمِّ من أن يكون لكل كلمة صفةٌ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابعٌ، لأنه إمَّا أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها » [1].

ونقل السيوطي آراءً هامّة بيّن من خلالها إدراك أهل اللغة وعلوم القرآن أنّ التجديد الذي أحدثه القرآن على مستوى اللغة هو أحد أهم جوانبه المعجزة ـ إن لم يكن أهمها على الإطلاق ـ ومن ذلك ما نقله عن ابن سراقة في قوله: « اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهًا كثيرة كلّها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءًا واحدًا من عشر معشاره، فقال قومٌ: هو الإيجاز مع البلاغة، وقال آخرون: هو البيان والفصاحة، وقال آخرون: هو الرصف والنّظم، وقال آخرون: هو كونه خارجًا عن جنس كلام العرب من النّظم والنّثر، والخطب، والشعر، مع كون حروفه في كلامهم، ومعانيه في خطابهم، وألفاظه من جنس كلماتهم، وهو بذاته قبيلٌ غير قبيل كلامهم، وجنسٌ آخر متميّز عن أجناس خطابهم، حتى إنّ من اقتصر على معانيه وغيّر حروفه أذهب رونقهُ، ومن اقتصر على حروفه وغيّر معانيه أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه » [2]

ولقد عني أبو حيان الأندلسي بمفردات اللغة عناية فائقة، وذهب إلى أنّ « من أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقى إلى حسن تركيبها وقبحه، فلن يحتاج في فهم ما تركّب من تلك الألفاظ إلى مُفهم ولا مُعلّم » [3]

والتفسير القائم على اللغة لا يُبنى على المعنى المعجمي للكلمة المفردة « فليس معنى الكلمة المعجمي المعنى الرئيس، وهذا ما درج على تقريره اللغويون وعلى تصوره علماء المعجم، عندما بنوا معاجمهم على وحدة محددة هي الكلمة، ولكنّ واقع اللغة يشهد أنّ لكل كلمة معاني شتى، عالقة بها، والسياق هو الذي يستدعي المعنى

---

(1) المغني في أبواب التوحيد والعدل: للقاضي عبد الجبار المعتزلي، ت: أمين الخولي، الشركة العربية – مصر، 1380هـ، ج 16 ص: 199.
(2) الإتقان في علوم القران: ص: 718.
(3) البحر المحيط: ج1 ص: 104.

المناسب من بين تلك المعاني الكثيرة، فالكلمة معين من الدلالات التي لا تنضب، ولا ينبغي استئصالها من مساقاتها والادّعاء أنّ لها معنى رئيساً ومعاني فرعية » (1)

ومع أنّ القرآن نزل بلسان العرب وانطلق من قواعده و خصائصه التعبيرية إلا أنّ تفرده « يأتي من تجاوز هذه اللغة والقفز فوق محدودية ألفاظها وتراكيبها وسبائكها وصورها وعلاقاتها اللغوية، كما يأتي من تطوير أعرافها، ثم قواعدها، من غير إلغاء هذه القواعد، وفتح الباب أمامها للمزيد من التطور والغنى، ومنتجًا أبعادًا وآفاقًا واسعة لم يكن أصحاب هذه اللغة يحلمون بها أبدًا » (2)

وقد تبيّن بما لايدَعُ مجالا للشك أنّ جوهر التغير الذي أحدثه القرآن نابع مِن مصدرين أولهما: إعادة بناء العقل وربطه بفكرة الخلق والوجود وتصحيح لأفكار مرّت مع البشرية عبر تاريخها الطويل، وثانيهما: إعادة صياغة عناصر اللغة ومكوناتها صياغة تتناسب مع الغايات والمقاصد التي مِن أجلها نزل القرآن.

والصياغة الجديدة للفكر والتصور وُجدت في القرآن على نحو يبدو لناظره في منتهى الانفصال، فالمنهج الذي درج عليه البشر في تعلمهم يقوم أساسًا على فكرة التقسيم والتبويب، إذ يعد الجمع بين موضوعين متباعدين من قبيل الخلط والاضطراب، ولو عرض أحدهم فكره على غيره كان أحرص النّاس على مراعاة قوانين الربط والانتظام والامتثال للمنهجية العلمية الصارمة التي تأبى الجمع بين موضوعات مختلفة المضامين متباعدة الحدود، وكل دراسة تخرج عن هذا الإطار تدفع بنفسها خارج الأطر المنهجية السليمة.

ولا بد من الإشارة إلى أنّ كل مضامين القرآن وموضوعاته مرتبطة أساسًا بمفهوم الألوهية، بحيث لا ترد مجرد وحدات جامدة أو مفاهيم معزولة « بل الأهم فوق ذلك أن يتضمن حياتها ومعناها السياقي كما تم استعمالها في القرآن، من هنا وعلى الرغم من أن المصطلح " الله " كان مستعملا عند العرب قبل الإسلام ليس فقط كإله بين الآلهة بل حتى كإله أعلى في تراتبيّة الآلهة، فإنّ القرآن أحدث تغييرا جوهريا بالغًا في رؤية العرب للعالم

(1) من أصول التفسير اللغوية إلى البناء النصي، ص: 426.

(2) المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ص: 90.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تحديدا عن طريق تغيير الاستعمال السياقي لهذا المصطلح بتحميله معنى جديدا وذلك باستبعاد كل الآلهة وجلب مفهوم الله إلى مركز الوجود » [1]

ومجيء القرآن الكريم على هذا النّحو في ترتيب آياته وسوره وقراءاته ورسمه، يدفع إلى القول بأنّ ترتيب موضوعات القرآن على هذا النحو يُعدّ من أوجه الإعجاز الهامة إن لم يكن أهمها على الإطلاق.

ومن الخطأ الاعتقاد بأنّ منطق القرآن يقبل صياغة موضوعات منفصلة المعاني متباعدة المقاصد، دون أي رابط يجمعها، كيف يكون ذلك وقد وصف القرآن نفسه بأنه نور وبيان، وأنه كتاب أحكمت آياته ؟

والقرآن حين يعرض نفسه على العقل البشري يصف نفسه بالبيان والهدى في إشارة إلى أنّ سائر النصوص البشرية وإن بلغت من البيان والهداية ما بلغت، فالفرق واضح بين البيانين والهدايتين، كالفرق بين القرآن وغيره تماما.

ومراعاة الخصائص البنائية للقرآن المجيد يوقفنا على أصل هام من أصول البيان القرآني وطريقة تداول آليات اللغة في نسقه " وأصول البيان مبادئ مرعية وقواعد وضوابط توصل بالأدلة النصية والقرائن المصاحبة وصحة النّظر إلى العلم بالنّص القرآني، ولما كان القرآن الكريم ذلك النص الذي نزل على هيئة مخصوصة وجمع محاسن البلاغة كلها على غير مثال سبق، فإنّ العلم بأصول بلاغته وبيانه لا يوقف عليه إلا بالاستدلال والدرس والاستخراج لتلك الأصول والوجوه لتفسير النّص القرآني وتأويله في ضوء بيانه وبلاغته وقواعده ونسقه الخاص[2].

والالتفات إلى مثل هذا البعد في مقاربة الخطاب القرآني يحتاج إلى استشارة الجهود العلمية القديمة والمعاصرة من أجل بناء منهج شامل ومتكامل ييسر سبيل الاهتمام بالبعد النصّي للقرآن، وما يندرج في إطاره من مفاهيم على نحو: الربط والبناء والتضام والتماسك والاقتران، والتناسق والتناسب ...وغيرها من المفاهيم التي تصب في هذا الإطار.

---

(1) الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ص: 20.

(2) من أصول التفسير اللغوية إلى البناء النصي 428-429.

ولا شك أنّ هذه الكلمات أو المفاهيم لا توجد هكذا ببساطة في القرآن بحيث تكون كل منها معزولة عن الأخرى بل يتوافق بعضها على بعض بإحكام وتستمد معانيها العيانيّة من نظام العلاقات المحكم بينها على وجه الدقة ..وبذلك فإنها تؤلف في النهاية مجموعا كليا منظما وشبكة غاية في التعقيد والتركيب من التداعيات المفهومية » (1)

والسبيل إلى البيان القرآني الشامل المتكامل « لا يتم إلاّ بالاقتران المتعدد، ولا يتحقق بالاقتران المفرد، ويعدّ الاقتران المتعدّد مظهرا من مظاهر هيمنة القرآن على اللغة العربية وقواعدها وأنّه حاكم عليها غير محكوم بها، ولسان القرآن الكريم نسق لغوي مكتمل مُصمَّم على أفضل هيئة ومُعَدّ لكي يتلقاه المتلقي ويقرأه القارئ وفق القدرة اللغوية البشرية » (2)

ولن يتم ذلك إلا بالانتقال من القراءة الجزئية القاصرة إلى القراءة الكلية المترابطة، التي تقود إلى إدراك أوجه التناسب والروابط، بين كلمات الآية وآيات السورة وسور القرآن كله، بحثا عن وحدة النّص وتركيبته الجامعة، إذ أنّ ذروة الاتصال بين المعاني في النص القرآني كامنة في ما يبدو منها منفصلا، وهذه المبادئ المنهجية تكشف في مجملها عن خصائص الأسلوب وقوانين النظم والتركيب.

فالتغيير لم يطرأ على الألفاظ القرآنية وحدها بل تجاوزها إلى علاقات هذه الألفاظ فيما بينها ومواقعها في سياقها واستخداماتها والعناصر والأعراف اللغوية والنحوية والخيالية الجديدة التي تنتظمها، وكذلك الوحدات اللغوية الكاملة التي تشكلت في النهاية من تلك الألفاظ والعلاقات والأعراف، وهذا كله يفسّر تجاور عدد المواقع الإعجازية الجديدة في كل سورة لعدد ألفاظ هذه السورة » (3)

ولقد اشترط علماء اللغة والتفسير الاطلاع على مباحث اللغة والبلاغة ليكتمل النظر في الجانب اللغوي من النّص القرآني بدءا بالحرف ومرورا باللفظة وما يميزها من ظواهر التصريف والاشتقاق وغيرها، ثم علاقة الكلمات فيما بينها وما تشكله من نظم داخل سياقها العام.

---

(1) الله والإنسان في القرآن: ص: 34.

(2) من أصول التفسير اللغوية إلى البناء النصي، ص: 429.

(3) االمعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ص:55

واللافت للانتباه أنّ هذه العلوم اللغوية والبلاغية ((متجاذبة شديدة التجاذب، مترابطة قوية الترابط، لا يحصل للراغب في تأصيل أصولٍ لغوية للتفسير كبير فائدة في بلوغ مرامه، بدون الاطّلاع عليها جملة وتفصيلا)) (1).

والنظم هو الحافظ الداخلي للقرآن، وهو ما يبرز إعجازه من ناحية، ويحميه من الاختراق من ناحية ثانية لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢] وفي حالة تجاوز «نظرية النظم» أو تجاهلها فذلك يستدعي القول بالصرفة، لأنّه – آنذاك- تكون التفسير الوحيد لِنظرية الإعجاز)) (2).

ولقد أدرك أهل اللغة والتفسير أنّ الجملة عنصر أساس في إعراب الكلام، وتحليله « وقد عني علماء النحو بالجملة وبنوا دراسة الكلام على أساس الوحدة الجملية... والحقيقة أنّ بنية القرآن اللغوية ليست قائمة على الوحدة الجملية، ولكنها قائمة على وحدة الآية، والآية ذاتها ليست وحدة نحوية أو دلالية، ولكنها لبنة في صرح البناء القرآني المعجز)) (3).

سواء أكانت الآية الواحدة جملة تامة نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ النبأ: [٦ – ١٢ ، أم كانت مؤلفة من أكثر من جملة نحو قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس]

(1) من أصول التفسير اللغوية إلى البناء النصي، ص: 429.

(2) أدبية النص القرآني: بحث في نظرية التفسير: عمر حسن القيام، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي،2011 م.ص: 15

(3) ينظر: من أصول التفسير اللغوي إلى البناء النصي، ص: 427

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبالتأمّل في القرآن يمكننا أن نجد فيه مفهوم البنية كأفضل مثل لها، فهو نسق واحد مترابط ترابطاً عقلانياً تعبر عنه روابط كثيرة بين آياته وسوره، وكمنطلق في الإسلام فإن للقرآن هيمنة مطلقة على ما دونه من نصوص، وأدق ما يمكن أن يكشف هذه الهيمنة هو بنية القرآن كنظام محكم، من هذا المنطلق يأتي اختيارنا لتعبير البنية كمدخل للقراءة.

والبنية هي التنظيم الداخلي للنص الذي يكشف عن طبيعة العلاقات والتفاعلات القائمة بين وحداته، وتنقسم إلى بنية كبرى وبنية صغرى، والمقصود من البنية في الحديث عن طبيعة الخطاب هو البنية الكبرى دون الصغرى، وهي تمثيل تجريدي للدلالة الشاملة للخطاب، ويُطلق عليها " منطق الخطاب" أيضًا، البنية الكبرى ذات طبيعة دلالية وترتبط بموضوع الخطاب الكلي)) (1)

وعندما نزل القرآن الكريم بلغة العرب فجّر ما بداخلها من طاقات وبثّ فيها كل القدرات والإمكانات التي تمكّنها من استيعاب الخطاب القرآني، ولو لم ينزل بها لما تفجّرت ينابيعها ولما كُتب لها البقاء والاستمرار الذي تعرفه الآن ... والقرآن الكريم نفسه له لسانه العربي الخاص به، المستقل عن اللسان العربي العام)) (2)

والقرآن الكريم يتصل باللسان العربي كما يشاء، وينفصل عنه عندما يريد، ويُهيمن عليه في سائر الأحوال، وما التحدي والإعجاز بالنظم والأسلوب والبلاغة والفصاحة إلا بعض مظاهر الانفصال عن لسان العرب)) (3)

واللسان القرآني ينفرد بمنهجه الخاص في استثمار موارد اللغة والبلاغة ويؤلف لنفسه معجمًا خاصًّا يجعله حجة على غيره وليس لغيره أن يكون حجة عليه " ولو جاء القرآن مثل كلام العرب في الطريقة والمذهب، وفي الصفة والمنزلة، لما صلح أن يكون سببًا لِما أحدثه، ولذهب مع كلام العرب، ثم لتدافعته العصور والدّول إن لم يذهب، ثمّ لبقي أمره كبعض ما ترى من الأمور الإنسانية، لا ينفرد ولا يستعلي)) (4)

(1) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النّص: صلاح فضل، عالم المعرفة: الكويت، 1992م، ص: 256 – 257.

(2) الخطاب القرآني ومناهج التأويل: ص: 102

(3) لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب: ص: 19-20

(4) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت، ط8، 1420هـ-1999م ص: 240

والقرآن كما نص في مواضع متعددة على أنّه مُصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، فهو- أيضًا- مهيمن على لغة العرب وقوانينها وأساليبها، وعلى هذا الأساس يمكن القول إنّ أصول التفسير البياني لن تكون إلا في ضوء مبدأ الهيمنة والعلو والحاكمية " فهيمنة اللسان القرآن وتحكمه وظهوره على لسان العرب صورة من هيمنته العامة على الكتب والشرائع قبله، ومن هذه الصفة يمكن أن تُستمدّ أصول التفسير اللغوي للقرآن الكريم وأصول الفهم والبيان والتّبيُّن، ومن مظاهر الهيمنة المذكورة أنّه لما نزل القرآن الكريم أضاف إلى العربية ما لم يكن فيها من غنى في المعجم، وقوة في التعبير، وتوسّع في الدلالات المجازية والاستعارية، واشتقاق وتوليد في الصيغ الصرفية، وتعريب للمولد والدخيل...أو بمعنى آخر: عندما نزل القرآن الكريم بلغة العرب فجّر ما بداخلها من طاقات وبثّ فيها كل القدرات والإمكانات التي تمكّنها من استيعاب الخطاب القرآني، ولو لم ينزل بها لما تفجّرت ينابيعها ولما كُتب لها البقاء والاستمرار الذي تعرفه الآن، لأنّها لسان قوم لهم لسان عام، ويندرج تحت اللسان لغات، والقرآن الكريم نفسه له لسانه العربي الخاص به، المستقل عن اللسان العربي العام، ليتصل باللسان العربي كما يشاء، وينفصل عنه عندما يريد، ويهيمن عليه في سائر الأحوال، وما التّحدي والإعجاز بالنّظم والأسلوب والبلاغة والفصاحة إلا بعض مظاهر الانفصال عن لسان العرب» (1)

إنّ إعجاز القرآن لا يكمن في إيجاد لغة من لا شيء، وإلا انفصل بنفسه وبتعاليمه عن البشر، أيّا كانت لغتهم وإنّما في بناء لغة جديدة على أسس اللغة القديمة نفسها، والتحليق بعد ذلك في فضاءات واسعة لم تعرفها أو تصل إليها اللغة التقليدية » (2) ويمكن أن نبدأ بملاحظة أن ليس ثمة واحد من المصطلحات المفتاحية التي تؤدي دورا حاسما في تشكيل رؤية القرآن للعالم بما فيها اسم الإله بالذات " الله" كان نتاج صياغة لغوية جديدة بأي حال فكل هذه المصطلحات تقريبا كانت مستعملة بصيغة أو بأخرى في العصر الجاهلي، وعندما بدأ الوحي الإسلامي باستعمال هذه الكلمات فإن النظام ككل والسياق العام الذي استعملت فيه هو

(1) لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، ص: 19-20

(2) االمعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ص 90.

ما صدم المكيّين المشركين لكونه شيئا غاية في الغرابة وغير مألوف ومن ثم غير مقبول وليست الكلمات أو المفاهيم المفردة أنفسها » [1]

إنّ الكلمات أنفسها كانت مستعملة في اللغة الدارجة ....إلاّ أنها كانت تنتمي إلى نظام مفهومي مختلف وجاء الإسلام فجمعها معًا وضمّها كلها في شبكة مفهومية جديدة كُليا وغير معروفة من قبل وهي كذلك حتى اليوم وقد أدى هذا التحول في المفاهيم والتبدل الجوهري للقيم الأخلاقية والدينية التي نشأت عنه إلى إحداث تغيّر أساسي كامل في تصور العرب للعالم وللوجود الإنساني» [2]

ومن نماذج التفرد القرآني على مستوى البنية التركيبية ما نجده مثلا في عرض القرآن الكريم لموضوع واحد في مواضع متعددة بأشكال أسلوبية مختلفة تراعي في ذلك نسقية القرآن وسياقه العام، وهو مبحث كان للقدامى فيه بحث مفصل خاصة أهل التفسير اللغوي منهم، وأطلقوا عليه مبحث" المتشابه اللفظي"

لقد عرّف العلماء المتشابه اللفظي، على غير ما جرى من تعريف الحدود المتعارف عليها، ولهذا فإننا سنعرض أقوالهم في تحديدهم لمفهومه، حتى يتبين لنا التعريف المختار: ومن أهم ما قاله أصحاب التأليف في هذا الفن ما قاله الخطيب الإسكافي في معرض حديثه عن سبب تصنيف كتابه، أنه منذ أن كان يقرأ القرآن كانت تدعوه دواعٍ قوية، يبعثها نظرٌ وروية؛ فقال: « منذ خصّني الله بإكرامه، وشرّفني بدراسة كلامه تدعوني دواعٍ قوية يبعثها نظرٌ وروية في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المتعلقة والمنحرفة تطلبا لعلامات ترفع لبس إشكالها وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها » [3]

والذي يظهر من خلال كلام الخطيب أنه قصد من وراء تأليفه هذا بيان ما تكرّر في القرآن مع اختلاف الآيات، وقوله: «بالكلمات المتفقة والمختلفة» هو أنّ آي القرآن قد يكون فيها من الكلمات متفق في مواضع ومختلف في مواضع أخرى، وفي ذلك سِرّ يدعو إلى البحث والتأمل.

(1) الله والإنسان في القرآن، ص: 34

(2) المرجع نفسه: ص: 35.

(3) درة التنزيل وغرة التأويل: الخطيب الإسكافي، ت: محمّد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى: مكة المكرمة: 2001م، ج1 ص: 216.

وقال الكرماني في مقدمة كتابه: « فإنّ هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن، وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافًا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان، وأُبيّن ما السبب في تكرارها، والفائدة في إعادتها، وما الموجب لزيادة والنقصان والتقديم والتأخير والإبدال، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى، وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة التي تشاكلها أم لا ؟ ليجري ذلك مجرى علامات تُزيل إشكالها وتمتاز بها عن أشكالها » [1]

وبيّن الكرماني بعض وجوه المتشابه اللفظي، وعدّها وجهًا من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله: « فقد يرد في القرآن كثيرًا أمثال قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ إلى أمثال ذلك، ولقد بلغت هذه المكررات قمة الإعجاز، بحيث يمكن اعتبارها من علامات التنبيه على الإعجاز الذي لا يدرك إلاّ بعمق الفهم والفقه والتذكر في كل سورة من سور القرآن، حتى يدرك الإنسان المستوى الواجب من يقظة العقل والتدبر، حتى يقرأ القرآن إمّا لاكتشاف آفاق أخرى من آفاق إعجازه التي لا تنتهي، وأما ما أدركه الأولون واستيعابه حتى تؤتى القراءة ثمارها من ذلك الكتاب المبارك المبين وتلك هي الأهمية الأخرى للكتاب » [2]

ولقد سلك ابن الزبير الغرناطي سبيل الخطيب الإسكافي، وبَيّن في مقدمة كتابه مفهومًا لهذا الفن فقال: « وإن من مغفلات مُصنفي أئمتنا في خدمة علومه، وتدبر منظومه الجليل ومفهومه، توجيه ما تكرر من آياته لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير، وبعض زيادة في التعبير، فعسر إلا على الماهر حفظاً، وظنَّ الغافل عن التدبر، والمخلد إلى الراحة عن التفكر، أن تخصيص كل آية من تلك الآيات بالوارد فيها مما خالفت فيه نظيرتها ليس لسبب تقتضيه، وداعٍ من المعنى يطلبه ويستدعيه، وأن ليس على جميع الوارد من ذلك محرزات من المعاني عند ذوي الأفهام، ومقتضيات من لوازم جليل التركيب من ذلك المعجز العلي من النظام، فلا يليق بكل

[1] البرهان في توجيه متشابه القرآن لِما فيه من الحجة والبيان: محمود بن حمزة الكرماني، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة ص: 21

[2] المصدر نفسه: ص:21- 22

من تلك المواضع إلا الوارد فيه، و تقرير وقوع آية منها في موضع نظيرتها ينافي مقصود ذلك الموضع، وينافيه. فتعساً لمن تنكّبَ عن واضح آياته، وكأن لم يقرع سمعه قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]))[1]

ولا شك أنّ باب المتشابه اللفظي من أهم الأبواب التي تدل على دقة الفهم وحضور البديهة، وقد كان لعلمائنا الأجلاّء في ذلك باعٌ واسعٌ في غاية الروعة والبيان ((ولكنّهم في بعض الأحايين قد رحلوا عن الأداء الحقيقي لهذا العلم، ووقفوا على مسائل لفظية وإجابات شكلية لا تتناسب مع بيان القرآن وبلاغته وفصاحته، وأعادوا الكثير من العبارات المزوّقة والكلمات المبهرجة، وهم أحياناً لا يقفون على سر الآيات ولا يبينون المراد، وإنّما غاية ما في الأمر أن يسردوا الآيات ويتكلّفوا لها الإجابات... ومع ذلك؛ فإنّهم أصحاب السّبق في هذا المضمار، وهم فرسان الحلبة؛ فلهم الفضل كل الفضل)) [2]

ومن أمثلة المتشابه اللفظي في النص القرآني في التعبير بـ «طغى» و«يطغى» في قوله تعالى: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات: ١٧] فإن قيل: لِمَ قال في حق فرعون﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾وفي حق أبي جهل ﴿ لَيَطۡغَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦] ؟ قلنا: إنما أخبر بذلك عن فرعون قبل أن يلقاه موسى، وقبل أن يعرض عليه الأدلة، وأما هذه الآية فنزلت تسلية للنبي ﷺ حين رد أبو جهل عليه أقبح الرد. وأيضاً: إنّ فرعون مع كامل سلطته ما كان يؤذي موسى إلا بالقول، وأبو جهل مع قلة جاهه كان يقصد قتل النبي ﷺ وفرعون كان قد أحسن إلى موسى أولاً وقال آخراً: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠] وأمّا أبو جهل فكان يحسد النبي ﷺ في صباه وقال في آخر عمره: بلغوا عني مُحَمّداً أني أموت ولا أجد أبغض إليّ منه)) [3]

---

(1) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: ابن الزبير الغرناطي، ت: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي-بيروت- ط2: 2007م، ج1 ص:145.

(2) نظرية السياق القرآني: المثنّى عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر – عمان –الأردن: ط1: 2008م، ص: 165.

(3) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج6، ص: 530.

ولهذا المبحث علاقة هامة بمباحث أخرى في القرآن مثل **علم المناسبات**، فالنهج الذي سلكه القرآن الكريم في عرضه للقضايا مخالفٌ لكل ما عرفته المناهج البشرية، التي اعتادت في مناهجها على بناء موضوعاتها وفق منهج يحكمه التّبويب والتّقسيم والترتيب، ولما كانت أحسن الموضوعات البشرية عرضًا، هي التي تكون مُرتّبة ترتيبًا منطقيًّا خاليًّا من التّناقض والتداخل والاضطراب، فإنّ آي القرآن من هذه الناحية، ذات موضوعات متعددة، ومقاصد شتى، فنراه يخاطب بالموعظة تارةً، والقصة تارةً، والتشريع تارةً أخرى، يذكر طرفًا من الموضوع ثم يتركه، إلى موضِعٍ آخر، وليس الأمر غريبًا فالنّص القرآني أكثر من أن يكون كتابًا مُتخصّصًا في علم من العلوم، أو في عرضِ فنٍّ من الفنون، فهو كتاب تشريعٍ وهداية وتوجيه، ثم إنّ « الْقُرْآنَ لَيْسَ كِتَابًا فَنِّيًّا فَيَكُونُ لِكُلِّ مَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِهِ بَابٌ خَاصٌّ بِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ كِتَابُ هِدَايَةٍ وَوَعْظٍ يَنْتَقِلُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ شَأْنٍ مِنْ شُئُونِهِ إِلَى آخَرَ، وَيَعُودُ إِلَى مَبَاحِثِ الْمَقْصِدِ الْوَاحِدِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ، مَعَ التَّفَنُّنِ فِي الْعِبَارَةِ، وَالتَّنْوِيعِ فِي الْبَيَانِ » [1]

ولا شكّ أنّ هذا العرض الفريد للموضوعات قد استرعى اهتمام الدارسين–قديمًا وحديثًا– فانكبُّوا على دِراستهِ، وأفردوا له بابًا مستقِلاًّ، يُحدِّدُ معالمهُ، ويسبر أغوارهُ، أطلقوا عليه: «علم المناسبات»

والمناسبة في اللغة: المشاكَلة، والمقاربة، قال ابن فارس: « النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها: اتصال شيءٍ بشيءٍ، منه النّسب، سمى لاتّصاله وللاتّصال به، تقول: نسبتُ، أنسِبُ، وهو نسيبُ فُلان، ومنه: النّسيب في الشِّعر إلى المرأة؛ كأنّه ذِكرٌ يتّصلُ بها، والنّسيبُ: الطريق المستقيم، لاتّصال بعضه من بعض » [2]

ويمكن استخلاص المعنى **الاصطلاحي** من خلال أقوال العلماء بأنّه: علمٌ يُعرف به ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، مُتّسِقة المعاني، مُنتظمة المباني، يربطها رابِطٌ عامٌّ أو خاص، عقلي أو حِسّي أو خيالي، أو غيره من أنواع العلاقات أو التلازم [3] وذكر فخر الدين الرازي « أنّ أكثر لطائف

---

(1) تفسير المنار: محمّد رشيد رضا، دار المنار: القاهرة، ط2: 1366هـ– 1947م،ج2 ص: 357.

(2) معجم مقاييس اللغة: نسب

(3) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ج1 ص: 36-35.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القرآن مودعة في الترتيبات والروابط ›› [1] ولهذا قيل: ‹‹ المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول ›› [2]

وتُشير المصادر إلى أنّ أوّل من اهتم بهذا العلم كان الإمام " أبو بكر النيسابوري" وكان يقول إذا قُرئت عليه الآية: لِمَ جُعِلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السّورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزري على علماء بغداد لِعدم علمهم بالمناسبة ›› [3] .

ومما تجدر الإشارة إليه – في هذا المقام- هو أنّ البحث عن أوجه المناسبة بين آي القرآن الكريم وسُوّره، مبني على أساس متين يتمثل في أنّ ترتيب سور القرآن توقيفي، كما هو الحال في ترتيب آياته ›› [4]

وعلى هذا ‹‹ فقد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لِأنّها على حسب الوقائع متفرقة، وفصل الخطاب أنّها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا ›› [5]

ومعرفة المناسبات التي تحكم موضوعات النص القرآني يتم بالنظر في سياق الآية أو المقطع أو السورة عمومًا، وهو خير عون على معرفة وجوه التناسب، بل هو العون الأكبر، إذ لا يمكن أن يتم الفهم إلاّ في ضوئه ‹‹ والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له ›› [6]

ونجد الإمام السيوطي يُقرّر قاعدةً هامة في بيان وجه المناسبة، وأنّه متوقّفٌ على معرف سياقها فقال: ‹‹ قال بعض المتأخرين: الأمر الكلّي المفيد لِعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن، هو أنّك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب

---

(1) التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار الفكر العربي: بيروت، ط1: 1981م، ج10 ص: 110.

(2) البرهان في علوم القرآن: ج1 ص: 35

(3) ينظر المصدر نفسه: ج1 ص: 36

(4) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود الآلوسي، ت: على عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية. بيروت:1415 هـ، ج1 ص: 27.

(5) البرهان في علوم القرآن: ج1 ص: 36.

(6) المصدر نفسه: ج1 ص: 37.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات، إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبيّن لك وجه النّظم مُفصّلاً بين كُلّ آيةٍ وآية، وفي كُلّ سورةٍ)) (1)

فالنظرة الكليّة الشّاملة إلى النص القرآني من خلال البحث في خصائصه نظمه وترتيبه وصياغة موضوعاته تُشكّل أصلاً هامًّا من أصول البيان القرآني المعجز، فذروة الاتصال بين موضوعاته كامنةٌ في ما يبدو منها منفصلا، وقمّة الانسجام بين معانية كامنة فيما يبدو منها مُبتعِدًا، ولا شكّ أنّ هذا الجانب يُمثّل وجهًا هامًّا من وجوه المعجزة القرآنيّة- إن لم يكن أهمها على الإطلاق.

---

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، ت: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت- 1995 م، ج1 ص: 11

الفصل الثاني: الآيات الكونية ومسألة التفسير العلمي

المبحث الأول: الآيات الكونية في ضوء التفسير العلمي

المبحث الثاني: الجمع بين القراءتين: الوحي والكون

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: الآيات الكونية من منظور التفسير العلمي

مصطلح الآيات الكونية من المصطلحات التي عرفتها الدراسات القرآنية والمهتمة منها بمسألة الإعجاز العلمي خصوصًا، وهو مصطلحٌ مركّبٌ من كلمتين: الآية، والكون، وتطلق الآية في القرآن ويراد بها أحد معنيين:

الأوّل: هو الآية الكونية أو القدرية [1] وما تشير إليه من معانٍ في الآفاق والأنفس، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

الثاني: هو الآية الشرعية الدينية قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢]

والكون لغة: مأخوذ من الفعل الثلاثي معتل الوسط وهو "كان يكون كونا" ويأتي مصدره أيضا على التكوين والكينونة وجمعه أكوان، وهو بمعنى الحدث" [2] وكوّن الله الأشياء أي أخرجها من العدم إلى الوجود، ويقال كوّنه فتكوّن أي أحدثه فحدث " [3]

والتكوين هو المعنى الذي يُعبّر عنه بالفعل والخلق والإيجاد والإحداث والاختراع والإبداع والإنبات وهذه الألفاظ متغايرة في التركيب متحدة في المصداق" [4]

أمّا **الكون في الاصطلاح** فقد تعددت أقول العلماء فيه وتنوعت واختلفت في اقترابها من المفهوم الحقيقي والابتعاد عنه.

---

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج7 ص 339

(2) ينظر القاموس المحيط: مجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الجليل، بيروت، مادة كون.

(3) المعجم الوسيط: ابراهيم مصطفي وأحمد حسن الزيات، ت ط: 1961م، مصر، مادة كون، ج2 ص 812

(4) شرح العقائد النسفيّة: سعد الدين التفتازاني، تحقيق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهريّة– القاهرة،ط1: 1407هـ-1987م، ص 83

ولعل أول حضور لمصطلح " الكون" في الدراسات الإسلامية كان عند البقاعي في القرن التاسع الهجري[1]

قال شريف الجرجاني: الكون عند أهل التحقيق " عبارة عن وجود العالم من حيث أنّه حق، وإن كان مُرادفًا للوجود المطلق عند أهل النّظر " [2]

وهو عند التفتازاني " إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود" [3] ويستعمل مصطلح الكون في الفيزياء، وفي الفلك ليشير إلى كل شيء موجود من أصغر الذرات إلى أكثر الأجرام الفلكية بُعدًا " [4]

ومن المعاصرين عرفه مُحَّد الأنور السنهوتي بأنّه: " الخَلق المشهود ذو الوجود الخارجي الذي يدركه الإنسان ويوجه إليه قلبه وعقله في هذه السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب، وهذه الكائنات المختلفة التي تدب على الأرض، والتي تحلق في أجواء الفضاء، وهذه الظواهر الكونية من الليل والنهار والرعد والبرق والمطر، والأحوال والأطوار ذات الوجود الحقيقي، وذات الآثار الواقعيه " [5]

و المقصود من الكون ما خلقه الله من الأشياء المنظورة، وهو عالم محُس متشيّء له واقعية في الخارج، ولهذه الأشياء صفات وكيفيات وأحاسيس تتأثر بها حواسنا ويصور لنا إدراكنا الحسي في الذهن فكرة عنها، وإن كانت تلك الأشياء تبدو لأذهاننا على غير ما هي عليه في الواقع، لأنّها تتحول سريعة وتتغير وإن تراءت لحسّنا كأعيان ثابتة ساكنة " [6]

والكون مركّبٌ في وجوده من أجزاء متعددة على نحو تنظيمي مُعيّن يستنتج غايات هامة للإنسان، وكل جزء من أجزائه يندفع إلى تحقيق غايات مُعينة بالتآلف مع الأجزاء الأخرى، وكذلك مجموع الأجزاء تندفع

---

(1) ينظر نشأة الكون وفناؤه في القرآن: دراسة في المنهج المعرفي على ضوء العلم الحديث، رسالة دكتوراه: مُحَّد حدبون، إشراف: رمضان يخلف، جامعة الحاج لخضر – باتنة، 1434هـ-2013م، ص: 335

(2) التعريفات: أبو الحسن علي بن مُحَّد بن علي الجرجاني، مطبعة أحمد كمال، اسطنبول، 1327 هـ، ص 126

(3) شرح العقائد النسفية: ص: 116

(4) الموسوعة العربية العالمية، إعداد مجموعة من الباحثين، مؤسسة أعمال المؤسسة للنشر والتوزيع، ط2، ج20 ص: 285

(5) مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد الثالث، السنة الثالثة، 1403- 1404 هـ، مُحَّد الأنور السنهوتي، ص: 45

(6) كتاب الوجود: أبو الفيض المتوفى، مطبعة الحجازي – القاهرة 1947م، ص: 13.

إلى تحقيق غايات نوعيّة ضمن شروط دقيقة لو تخلف بعض منها لَما تحققت تلك الغايات ولدبّ الفساد فيها " (1)

والتعريف الاصطلاحي للكون ما فتئ يتوسع من زمن لآخر، ويأخذ معاني جديدة نظرا لارتباطه بالسياق الثقافي للشعوب وهو محيط لا يعرف التوقف أو النهاية أو الكلمة الأخيرة بل إنّ مبحث الكون والوجود لثقله وحضوره اللافت في مسائل الخلق والعقيدة قد اكتسب اهتماما بالغا، جعل مفهوم الكون يأخذ منحى تصاعديا من التطوير والتعميق، تأثّرا بالخلفية التي تفسره " (2)

وارتبط تعريف الكون في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة بما تمليه ظروف العصر وضغوطه، وما وصل إليه الغرب من نتائج هامة في أبحاثه الفلكية، وشكّل ذلك خلفية معرفية حتى بالنسبة للمهتمين بهذا المجال في إطاره الديني، فهو في نظر زغلول النجار: " ذلك النظام الشامل للأجرام السماوية المدرك منها حسيّا، وغير المدرك، أشكالها وأحجامها، كثافتها المتباينة، مادتها وصفاتها وأبعادها، وقوى الترابط بينها، وفق ذلك يأتي التفكير في كيفية نشأة الكون ومراحل خلقه، وتقدير ما مضى من عمره، والتأكيد على حتمية زواله وفنائه، واستبداله بكون غيره في مستقبل الحياة الآخرة الذي لا يعلمه إلاّ خالق هذه الأكوان، ومبدع هذا الوجود(3)

أراد الله أن يُطلق يد الإنسان وأعطاه القدرة على استثمار الأرض وربطه بالكون وحثَّه على التفاعل معه بالفكر والتأمّل الهاديين إلى الدليل على وجود الله ووحدانيته وسائر كمالاته، وليتخذ من قوى الكون المودعة فيه بواسطة الاكتشاف والاختراع ما به يقوى ويعزّ ويدافع عن الحقّ الذي ندبه الله بما خلق في هذا الكون من طيبات ينعم بها فيؤدي شكر خالقها.

وإنّ ظاهرة ربط الإنسان بالكون تتجلّى بوضوح حتى من قبيل العبادات العمليّة والأحكام الشرعيّة الدائمة بدوام الكون...والاتصال بالكون ومظاهره في كل مجالات الحياة لينضم الإنسان إلى وحدة النظام الإلهي في الوجود، واتخذ القرآن من نظام الكون وإبداعه وإتقان صنعه، وتناسقه التام بين أجزائه برهانًا على وحدانيّة الله سبحانه وتعالى.

---

(1) كبرى اليقينيات الكونية: محمّد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر – بيروت، ط5 ، ص: 92

(2) ينظر نشأة الكون وفناؤه في القرآن الكريم، ص 335

(3) نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون زغلول راغب النجار، جمعية المحافظة على القرآن الكرم، عمّان، 2009م، ص: 25.

ومما يُلاحَظ بوضوح في منهج التربية القرآني "كثرة توجيه الإدراك البشري إلى ما في الكون وما في الأنفس من أمارات وآيات، وتوجيه هذا الإدراك إلى مصاحبة صنعة الله في الأنفس والآفاق؛ ذلك أنّ هذه المصاحبة فوق أنّها تنبّه الإدراك البشري إلى معرفة الصانع من صنعه وإجلاله بإدراك عظمته من عظمة صنعه، وحبّه بإدراك عظمة أنعمه؛ فهي في الوقت ذاته تطبع الإدراك الإنساني بخصائص تلك الصنعة من دقة وتناسق وانتظامٍ لا خلل فيه ولا تصادم ولا تفاوت " (1)

ومن الآيات الدّالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوان والجبال والقفار والأنهار والبحار واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، ومما جبلوا من الإرادات والقوى وما بينهم من التفاوت في العقول والفهم والحركات والسعادة والشقاء وما في تركيبهم من الحِكم في كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه، وكلّ ذلك مع كل ما في هذا الكون ينطق بلسان الحال أنّه من صنع إله خالق" (2)

وعلى هذا فالكون أو الطبيعة وما في ضروب الارتباط بين ما يسمى بالأسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها كلها مخلوقة، وهي متعلقة بوجود أعلى وأسمى وأكمل من وجودها، وهو وجود الله الخالق المبدع لها والمقدر لسننها وأسبابها، ولذلك لا يُطلق على الله الخالق في العقيدة الإسلامية لفظ سبب ولا علّة؛ لأنّه خالق الأسباب والعلل ومُقدّر سننها وقوانينها " (3)

وإنّ الكون بما فيه من آيات فالمعتقدون في شرفه وفضيلته فريقان" منهم من اعتقد كونه كذلك على الإجمال ومنهم من وقف على دقائقها على سبيل التفصيل والكمال، ولا ريب أنّ اعتقاد الفريق الثاني يكون أكمل وأقوى، إذا ثبت هذا فنقول: من اعتقد أنّ جملة هذا العالم محدث وكل محدَث فله مُحدِث حصل له بهذا الطريق إثبات الصانع، أمّا الذي ضم إلى هذه المعرفة البحث عن أحوال هذا العالم العلوي والعالم السفلي على التفصيل الممكن لا يزال ينتقل من برهان إلى برهان ومن دليل إلى دليل فإنّ يقينه يتزايد

(1) خصائص التصور الإسلامي: سيد قطب، ط3: 1388هـ- 1968م، ص: 166-167

(2) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة- المملكة العربية السعودية، ط2: 1420هـ- 1999م، ج4، ص: 235.

(3) نظام الإسلام: العقيدة والعبادة: محمد المبارك، دار الفكر – بيروت، ط1: 1388هـ- 1968م، ص: 52

وبصيرته تتكامل إلى أن يصير علما معقولا مُضاهيًّا لما عليه الموجود، ولمثل هذه الفوائد والأغراض والغايات أنزل هذا الكتاب الكريم لا لتكثير وجوه الإعراب والاشتقاقات المؤدية إلى الإطناب والإسهاب " (1)

إنّ هذا الكون مثلما يدل على صانعه وكاتبه، ومصوره الذي أوجده، والذي يديره، ويرتبه ويتصرف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير ...فهو كذلك يستدعي لا محالة وجود من يعبّر عما في هذا الكتاب الكبير من معان ويعلم ويُعلّم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويُعلّم الحِكم الربانية في تحولاته وتبدلاته، ويُدرّس نتائج حركاته الوظيفية، ويعلن قيمة ماهيته وكمالات ما فيه من الموجودات " (2)

ولا شك أنّ غياب نظرية كونية إسلامية محددة المعالم _شأنها في ذلك شأن صنوف المعارف الأخرى_ وفي ظل التنافس على ترجمة ما يجدّ من علوم ومعارف ينتجها غيرهم، ظلت آيات الله في الآفاق وفي الأنفس حكرًا على من ليس من أهل القرآن، وصار جزءًا كبيرًا من النّص القرآني بعيدًا عن ساحة الواقع المعرفي للمسلمين، والحصيلة أنْ " وُجد عندنا تديّن وضيع الرتبة، حقير الثمرة، لأنه مبتوت الصّلة بالكون، وهذا الصنف من المتدينين مُسخّر في الأرض، وليس شيء من الأرض مُسخّرًا له، وعباد المادة يستطيعون دعم الإلحاد بالأقمار الصناعية، أمّا هو فأعجز أن يدعم إيمانه بشيء طائل " (3)

وتعدّ مسألة بحث الآيات الكونية من أهم المسائل التي التفّ حولها المنشغلون بدراسة نواحي الإعجاز القرآني في العصر الحديث، خاصة وأنّ بعض موضوعاته لم يكن للقدامى فيه تحليلات ودراسات معمقة يمكن اعتبارها مصدرا من مصادر الإمداد والاستقاء، وورودها في بعض المصنفات لا يمنح فكرة ضافية عن المقصود منها، ولا يقدم نظرية يمكن الاتكاء عليها في ظل ضغط الحاضر وحاجات العصر، وهو ما جعل البحث فيها من البحوث البِكر التي لا تزال تطرح نفسها على ساحة الدرس القرآني.

والذي دفع إلى ذلك هو طبيعة السياق الحضاري السائد آنذاك، إذ كانت الجهود متجهة إلى البحث عن الجانب أو الجوانب التي أعجزت العرب وغير العرب عن الاتيان بمثل القرآن أو بسورة منه، ومن رحم تلك التساؤلات ظهرت على مسرح الدراسات القرآنيّة تسميات هامة سيكون لها الأثر البالغ في النظر إلى خصائص النص القرآني – فيما بعد– على نحو: الإعجاز والمعجزة والتحدي والمعارضة ... وهي تسميات "

(1) غرائب القران ورغائب الفرقان، ج3 ص: 254

(2) الآية الكبرى: بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر القاهرة، ط7: 2012م، ، ص 78

(3) علل وأدوية: محمّد الغزالي، دار الشروق، ص: 210.

ظهرت في القرن الثالث الهجري في بيئة علم الكلام [1] وجاءت هذه الألفاظ لتُصوّر موقف مشركي العرب من رسول الله ﷺ حين تلا عليهم القرآن، وجاهرهم بأنّه كلام الله يوحى به إليه، وأنّه هو وحده الدليل على أنّه نبي لله أرسله إليهم... فلمّا انقضت ثلاث وعشرون سنة، ولم يأتِ أحدٌ من مشركي العرب بما طولبوا به، صار تركهم الاتيان بسورة مثله (عجزًا) من مشركي العرب عن معارضة القرآن بسورة من مثله، فكان ظاهرًا جدًّا أن يُقال: إنّ هذا التحدّي قد (أعجزهم إعجازًا) أي كشف عجزهم " [2]

والاعجاز – بهذا المعنى – مقترن بلفظ التحدي ونتيجة له، ولما جرى على ألسنة العرب لفظ (إعجاز القرآن) " كان تعبيرًا موجزًا عن صورة موقف مركب واضح: هو مجيء (التحدي) في القرآن يُطالبهم بالإتيان بسورة من مثل هذا القرآن من ناحيّة، وإبلاس المشركين وانقطاعهم عن فعل ما طولبوا به من ناحيّة أخرى، وإذن فقولهم: (إعجاز القرآن) صفة لهذا الموقف المركّب، ولما يؤدّي إليه من أنّه أظهرَ (عجز) المشركين عن فعل ما طولبوا به ليس غير، وبلا زيادة أو نقصان" [3]

وورود لفظ التحدي يؤكد أنّ موضوع الإعجاز القرآني مقتصرٌ على ما هو في مقدور البشر كما هو الحال في مجال البلاغة والبيان، ويتحقق الإعجاز بانعدام القدرة على الاتيان بما يماثل المرتبة التي بلغتها نصوص الوحي من النظم والبيان الفائق، أو على الأقل تقدير عظم هذه المنزلة الموجودة من الفرق بين نصوص الوحي وسائر النصوص البشرية الأخرى بشتى صنوفها ومراتبها.

وارتبط البحث عن تحديد موضوع الإعجاز، ومجال التحدي بطبيعة السياق الحضاري، والبيئة الثقافية السائدة آنذاك، والتي غلب عليها التباري في ميدان البلاغة والبيان، وتقاطعت رؤى المنشغلين بهذا الحقل – –على اختلاف توجهاتهم– في مسلك يؤدي بهم إلى القول أنّ التحدي منصرفٌ إلى نظم القرآن وتأليفه وخروجه عن قوانين الصياغة المعهودة في سائر النصوص، فكان للنظرية البيانيّة حضور لافت في مسألة الإعجاز القرآني وسيطرت مباحثها على جزءٍ واسع من موضوعاته قرونًا من الزمن.

وظهرت ملامح التحول في موضوع الإعجاز القرآني باتساع نطاق العلوم الكونية وصار من الصعب الاحتفاظ بجوانب اللغة والبلاغة والبيان وحدها دون سواها على أنها هي موضوع الإعجاز، وظهرت ملامح

(1) ينظر مداخل إعجاز القرآن: محمود محمّد شاكر، دار المدني:جدة، ص: 30

(2) المرجع نفسه، ص: 30

(3) المرجع نفسه، ص: 31

التحول في موضوع الإعجاز باستحداث تسميات في ظاهرها شيءٌ من التحفيز على ملاحقة الأبحاث العلمية الجديدة، واستثمارها في فهم الواقع الكوني في نصوص الوحي على نحو: السبق العلمي، التفسير العلمي و الإعجاز العلمي... وغيرها.

ولم تعُد مباحث اللغة والبيان تشغل تلك المساحة التي كانت لها من قبل ، فالمتتبّع لحجم المصنفات وأعداد المنشغلين بهذا المجال يلاحظ أنّها قد فرضت شيئًا من تهميش النظر في موضوعات الإعجاز عمومًا — واللغوية منها على وجه الخصوص- لصالح الإعجاز العلمي.

إنّ النظريات الكونيّة الحديثة وما لها من أثر في تحوّل مفهوم الإعجاز قد سلخت عن دور اللغة والبلاغة حيّزًا هامًّا كانت تشغله، وفرضت شيئًا من تهميش النّظر في أساليب القرآن وتماسكه النصي، فلم يعُد لخصائص لغة التنزيل دور كبيرٌ ضمن هذا المشروع الذي جاء في سياق النهوض من حالة الركود الفكري والحضاري للأمة الإسلامية.

ومن ثمة كان البديل المشروع الذي يمكن أن يحل محل النظرية البلاغية — في نظر أكثر المنشغلين بمسألة الإعجاز العلمي [1] هو التطور الحاصل في شتى صنوف العلم والمعرفة واقتراب جزء كبير منه من الدقة والإيضاح، خاصة وأن مجالات البحث العلمي تتقاطع في جوانب كثيرة منها مع موضوعات القرآن على نحو: خلق الإنسان وقوانين الكون وأجزائه.... وغيرها من الموضوعات، فجاء منهج المنشغلين بقضية الإعجاز العلمي قائمًا على "المقارنة" بغرض إثبات السبق العلمي للقرآن وامتلاكه صفة المواكبة والمزامنة، وأنه نص حي متجدد لم تنقض قوانين تفاعله مع الواقع الإنساني.

ولم يعد فهم القرآن منحصرًا في جملة الأدوات والوسائل التي صاغتها جهود الأصوليين وأهل اللغة والتفسير وعلوم القرآن، بل أصبح ضغط الحاضر واستعلاء علوم العصر يفرض نفسه على واقع التفسير وفهم نصوص الوحي. وتبلور هذا الاهتمام في شكل منهج تفسيري يسعى إلى استثمار معطيات العلم الحديث في فهم مدلولات القرآن تحت مسمّى " التفسير العلمي" وهو -في نظر مُحَّد حسين الذهبي- "

(1) يظهر ذلك في استقراء عدد كبير من المؤلفات التي انشغلت بمسألة الإعجاز العلمي أو التفسير العلمي.

التفسير الذي يُحكّم الاصطلاحات العلميّة في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها " (1)

ولم يلق هذا المنهج التفسيري القبول كله في حقل الدرس القرآني لأنّه — في عين رافضيه- يقحم النص القرآني في فضاء يموج بالإشكالات والاضطرابات، ويعرّضه للتقلّب والدوران مع مسائل العلوم ونتائجها، ثمّ إنّ البنية الداخلية لكل علم إذا أريدَ له أن يكون في سياقه المناسب له تتطلب عدم افتراض قبليات وإسقاطات لم يجرِ تأمينها من قبل، وهو المأزق الذي وقع فيه أكثر المنشغلين بهذا المنهج، إذ أنّ أغلب النماذج المقدّمة في هذا الإطار تعيش قلق التوافق مع النّص القرآني من وجوه كثيرة.

وقد جعل الشاطبي في حديثه عن العلوم المضافة إلى القرآن الكريم، قسما هو كالأداة لفهمه واستخراج ما فيه من الفوائد مثل علوم العربية وعلم القراءات والناسخ والمنسوخ، وقواعد أصول الفقه وما أشبه ذلك.

ولكن قد يُدّعى فيما ليس بوسيلة أنّه وسيلة إلى فهم القرآن، وأنّه مطلوب كطلب ما هو وسيلة بالحقيقة، فإنّ علم العربية، أو علم النّاسخ والمنسوخ، وعلم الأسباب، وعلم المكي والمدني، وعلم القراءات، وعلم أصول الفقه، معلوم عند جميع العلماء أنّها مُعينة على فهم القرآن، وأمّا غير ذلك، فقد يعدّه بعض النّاس وسيلة أيضا ولا يكون كذلك، كما تقدم في حكاية الرازي في جعل علم الهيئة وسيلة إلى فهم قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦] وزعم ابن رشد الحكيم في كتابه الذي سمّاه بـ "فصل المقال في ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال" أنّ علوم الفلسفة مطلوبة إذ لا يفهم المقصود من الشريعة على الحقيقة إلا بها " (2)

والذي يقود إلى هذا القول هو أنّ هذه الفروض والنظريات ليست حقائق علميّة ثابتة حتى بالقياس الإنساني و " كلّ قيمتها أنّها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونيّة أو الحيوية أو النفسيّة أو الاجتماعيّة، إلى أن يظهر فرض آخر يُفسّر قدرًا أكبر من الظواهر، أو يُفسّر تلك الظواهر تفسيرًا أدق،

(1) التفسير والمفسرون، مُحَمَّد حسين الذهبي، مكتبة وهبة- القاهرة، ج2، ص: 474

(2) ينظر الموافقات: ج4 ص: 198.

ومن ثم فهي قابلة دائمًا للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأسًا على عقب، بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة " (1)

ويؤكد الباقلاني – فيما سبق- أنّ الإعجاز في القرآن هو في حقيقته " العجز" البشري عن فهم سرّ الإعجاز، ولو حدث أن اكتشفنا هذا السّر فلن يعود الإعجاز إعجازًا، وأمّا ما لا سبيل إليه بالتعلّم والتعمّل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه... وكل ما يمكن تعلّمه، ويُتهيّأ تلقّنُه، ويمكن تخليصه، ويُستدرك أخذه، فلا يجب أن يُطلب وقوع الإعجاز به " (2)

فالجهود المقدّمة في هذا السياق – إذن- هي في حقيقتها لم تجر في فلكِ البحث عن الإعجاز بل البحث حوله لأنّ " الحقائق القرآنيّة حقائق نهائيّة قاطعة مطلقة، أمّا ما يصل إليه البحث الإنساني – أيًّا كانت الأدوات المتاحة له- فهي حقائق غير نهائيّة ولا قاطعة، وهي مُقيّدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها... فمن الخطأ المنهجي – بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته- أن نُعلّق الحقائق النّهائيّة القرآنيّة بحقائق غير نهائيّة " (3)

ولكن هل يعني هذا كلّه وجوب خلو الذهن من الفروض المسبقة وحتمية تغييب السياق الخارجي في فهم نصوص الوحي ؟ وهل فهم الواقع الكوني وغيره من الموضوعات في القرآن يتم من داخل النص أم من خارجه ؟ أم من حصيلة الجمع بينهما ؟

إذ يبدو من الصّعب الإذعان إلى التوصية المعرفية الداعية إلى وجوب إخلاء الذهن من جميع الفروض والنظريات المسبقة بحجة أثرها السلبي على عملية التفسير، لأنّ إلغاء السياق الحضاري في فهم النص أو تقييده بمرحلة تاريخيّة بعينها ينفي عن النص القرآني كونه نصًّا حيًّا متجدّدا، ويمنع على المفسّر بناء موقف معرفي أو فهم جديد، ثم " إنّ الذات الإلهيّة ألتي أنزلت الكتاب خاطبت العقل الإنساني بنصوصه من خارج التاريخ، إذ أنّها ليست ذاتًا مُقيّدة بإكراهات البيئة أو خاضعة لظروف السياق الحضاري الذي شهد نزول

(1) نظرات في التفسير العلمي للقرآن: يوسف القرضاوي، د ط، ص: 16

(2) إعجاز القرآن، الباقلاني ص: 172-178

(3) نظرات في التفسير العلمي للقرآن، ص: 16

الوحي، فالعقل الإنساني وفي كلّ مرّة هو الذي يقوم بموقعة النصوص في التاريخ، وذلك بواسطة عمليات الفهم والتعقل والتأويل المتكررة عبر الزمن" [1] .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أنّ " هذا الأمر غير عملي واقعيا ومعرفيا، لأن المتلقي الذي يعيش الفراغ الذهني والنظري أمر افتراضي بحت أولاً، وغير مفيد ثانيا...أما أنه أمر افتراضي لأن المفسر المؤهل معرفيًّا هو إنسان صاحب مواقف نظرية محددة... ولا يمكن التخلص من تلك المواقف بسهولة سواء أ كانت ظاهرة أم خفية، لأن الأمر خارج عن إرادة الإنسان وقراراته المسبقة، وأما الفراغ الذهني والنظري أمر غير نافع بل ضار لأنه يسلب إمكانية تكوين فهم جديد من النص ...لأن عدم توفر تلك السوابق يؤدي إلى افتقاد فرص الفهم أو تتضاءل تلك الفرص على أقل تقدير " [2]

وكل ذهن ينطبع بطابع العصر ويستمد شيئا – قليلا أو كثيرًا – من شخصية عصره ومعطياته العلمية والمعرفيّة، إذ لا نكاد نطلع على عمل تفسيري إلا وكان لمعارف العصر وعلومه دور في عمليّة التفسير، وبهذا الخصوص يقول الذهبي: "مِن المعلوم أنّ الشخص الذي يفسر نصّا من النصوص يلوّن هذا النص بتفسيره إياه لأن المتفهم لعبارة من العبارات هو الذي يحدد معناها ومرماها وفق مستواه الفكري وعلى سعة أفقه العقلي وليس في استطاعته أن يفهم من النّص إلاّ ما يرمي إليه فكره ويمتد إليه عقله، وبمقدار هذا يتحكم في النّص ويحدد بيانه، وهذا أصل ملحوظ... فما من كتاب منها إلاّ وقد وجدنا آثار شخصية صاحبه وقد طبعت بتفسيره الخاص لا يصعب علينا إدراكه " [3]

والجهود والممارسات التفسيرية التي مرّت على النص القرآني وعلى اختلاف ألوانها ومناهجها لا تكاد تحيد عن شخصية المفسر وبنائه المعرفي ومواقفه النظرية، وروح العصر عمومًا، فالمفسّر يبدأ عمله من خارج النّص أي من واقع الحياة الاجتماعية أو الإنسانية أو الكونيّة، مُستندًا إلى ما أثارته تجارب الفكر الإنساني من مشاكل وحلول لشتى موضوعات الحياة، عبر تاريخها الطويل، ثم يأخذ النص القرآني ليطرح بين يديه موضوعًا جاهزًا مُفعمًا بأفكار ومواقف بشرية سؤالا وجوابًا، المفسر يسأل والنص يجيب.

---

(1) النص والسياق الحضاري: عبد الحميد بوكعباش، مجلة الإحياء، العدد الثاني، ص: 16

(2) ينظر: أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره: مُحَمَّد مصطفوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – بيروت، ط1: 2009م، ص:50.

(3) التفسير والمفسرون:ج1، ص: 113-114

والواقع الحاصل في موضوعات الحياة الاجتماعيّة أو الإنسانية أو الكونيّة آخذ في التطور باستمرار بفعل ما تطرحه تجارب الفكر الإنساني من مشكلات وحلول " إذ أنّه بقدر ما تتطوّر معارفنا حول الطبيعة والنفس الإنسانية، وكلّما اكتسبنا سببًا جديدًا يحملنا على أن نرى الأشياء من زاوية مختلفة، فإنّ ذلك يدعونا إلى أن نضع المشكلات حين ندرسها بما يتفق وهذا الجديد من واقع العلم، والمسألة القرآنيّة لا ينبغي لها أن تخرج عن هذه القاعدة " (1)

وإذا ما حصلت معرفة جديدة بالنسبة إلى الأشياء وحقائقها وخصائصها أو تغيّرت النّظريات في حقائق الأشياء " فلن يكون ثمّة تأثير في المعاني الحقيقيّة والمجازية للكلمات، لأنّ هذه الجزئيات والنّظريات لم تكن منظورًا إليها حين الوضع والاستعمال الأوّلي... يمكن لهذه الأوصاف والخصوصيات المكتشفة إثر تطور العلم وتغيّر النظريات أن تفسح المجال لظهور معانٍ حقيقيّة ومجازيّة جديدة بحيث تستعمل الألفاظ فيها بعد ذلك إلى جانب المعاني الحقيقيّة والمجازيّة السّابقة... نعم لا شكّ في أنّه يمكن أن تكون مفاهيم القرآن في عين الوضوح الإجمالي غير معلومة الكنه والحقيقة، وأن تتضح وتُفهم بشكل أدق في ظل تطوّر العلوم والتكامل الفكري للبشر، لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ اتضاح حقيقة معاني القرآن وكنهها والفهم الأدق لما كان معلومًا بالإجمال هو أمرٌ مُغايرٌ لتأثير تحوّل النظريات في تغيّر معاني الآيات الكريمة " (2)

إنّ اللفظ القرآني — خاصة ما ارتبط منه بالواقع الكوني- لا يمكن فهمه - فهمًا دقيقًا- بالاستناد إلى قواميس اللغة وحدها، ولا بالنظر في سياق وروده فحسب، بل يتطلّب ذلك تصوّراً صحيحًا لحقيقة الموجودات في عالمها خارج نصوص القرآن، ففي القرآن نجد ألفاظًا يصعب فهمها من داخل النص وحده على نحو وصف السماء بأنها: (بناءً، وأنها ذات الحبك، وذات الرجع، وأنها سقف محفوظ ... وعلى نحو الحديث عن صورة الأرض بـ: (دحاها، طحاها، كفاتًا، ننقصها من أطرافها... والشواهد كثيرة في هذا الصدد، ولذلك نجد القرآن في كثير من المواضع يدعو إلى النّظر والتفكر والتعقل باستمرار ... و " لقد دأب كثير من المفسرين على اعتبار هذه الآيات وأمثالها إمّا تدليلا على قدرة الله ووحدانيته، أو إنّها وردت للترهيب والاعتبار، والواقع أنّ تكرار لفظ (كيف) لآيات السير والنظر يدل على أنّ المطلوب هو أكثر

(1) مقدمة محمود شاكر لكتاب الظاهرة القرآنيّة: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر- دمشق: سورية، ط4: 1987م، ص: 10-11

(2) منطق الخطاب القرآني: ص: 244

وأعمق من النّظر العابر، فمعرفة "كيف" تتطلب نظرا متخصصا وجهدا متواصلا، لأنّ مجرد رؤية الظواهر الكونية أو الاجتماعية شيء يستطيع جميع النّاس جاهلهم وعالمهم كافرهم ومؤمنهم على السواء، أمّا اكتشاف كيف تكونت هذه الظاهرة فإنه لا يستطيعه إلا العلماء " (1)

وهنا يدخل جانب مهم في بناء الفهم يستند إلى جوانب اللغة ومدى قدرتها على شرح كل موضوعات القرآن، خاصة وأنّ اللغة في كل مرحلة من مراحل التاريخ تعكس مستوى الناطقين بها، بمعنى أنّ" التزام لغة عصر التنزيل هي التزام بأفكار هذا العصر وثقافته، بل وتحكيم لهذا المستوى التاريخي من التفكير في معنى النّص الإلهي، ينبغي التفريق بين لغة عصر التنزيل ولغة التنزيل، فاستعمال القرآن لغة قريش لا يعني أنّ مفاهيم الألفاظ والنصوص ودلالات الخطاب القرآني يُبحث عنها داخل معارف هذه القبيلة ومنظومة تصوراتها ومعهوداتها الحسيّة والمجردة " (2)

ثم إنّ الوعي بالسياق الثقافي والحضاري يحتاج إلى وعي مماثل بخصائص لغة التنزيل ونظمها وتأليفها وطريقة تواصلها مع العقل البشرية " إنّ اللغة هنا تخضع لرؤية القرآن، وذلك عبر إعادة صياغة مصطلحاتها وربطها بمفاهيم لم تكن لها، ومن ثم فنحن هنا أمام ما يمكن تسميته بعربية القرآن وليس عربية قريش" (3)

والتفسير العلمي كونه منهجا من مناهج التفسير يسعى إلى استثمار معطيات العلم من أجل فهم مدلولات القرآن، وقد يُوفق المفسر في صرف معنى الآية إلى وجه من وجوه الحقيقة العلمية ويقيم الدليل على التوافق الحاصل بين الآية القرآن والحقيقة الكونيّة، وقد يخفق في إيجاد التوافق ومع ذلك يبقى عمله ضمن الجهود والممارسات التفسيرية التي سعت إلى البحث عن نواحي الإعجاز.

والقول بالإعجاز العلمي لآية قرآنيّة أو مجموعة من الآيات هو الهدف الأسمى لكل جهد تفسيري على اختلاف مذاهبه واتجاهاته في هذا الإطار، ولا يكون الإعجاز علميًّا إلا إذا كان غير قابل للشك أو الاعتراض في ضوء ما هو متاحٌ من حقائق العلم في المرحلة الراهنة من جانب، وأن يوافق خصائص النظم والتأليف وصحة الدلالة واتضاحها في نصوص الوحي من جانبٍ ثان، فالإعجاز القرآني يكمن تلمُّسه في " الصياغة القرآنية العجيبة للآيات، أو أجزاء الآيات التي تتناول هذه الشؤون التي لها صلة بالعلم أو بالآفاق

(1) المرجع السابق، ص: 32

(2) النص و السياق الحضاري، ص: 15-16

(3) التأويل في القرآن المجيد رؤية معرفية: ص: 48

والأنفس، كما أشار إلى ذلك القرآن حين قال:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]... ذلك أنّ العبارة القرآنية أو الجملة القرآنية، قد جعل الله فيها من المرونة والسّعة بحيث يفهمها العقل العربي العادي في عصر نزول القرآن، ويجد فيها المسلم ما يشبع فكره ووجدانه معًا بالفهم الفطري السهل الميسّر لكل قارئ للقرآن، ومع هذا أودع الله الجملة القرآنية من السعة والخصوبة ما يتسع لما يكشف عنه الزمن من حقائق، وما يبلغه العلم من تطور وتقدم" [(1)].

والبحث عن جوانب الإعجاز في الآيات الكونيّة ليس نابعًا من مجرد ذكرها في القرآن فحسب، لأنّ الكتب السماوية السابقة للقرآن ذكرت هي الأخرى ظواهر الكون ودلالته على خالقه، ووجه اشتراكها في الذكر مرتبط بفكرة الاعتقاد أساسًا؛ حيث اتخذ بعض البشر أجزاءً من هذا الكون آلهة فعبدوها، ثم يُبعث الأنبياء من أجل تصحيح فكرة الاعتقاد وإظهار ماهية الآيات الكونية على أنّها مجرد مخلوقات مُسخّرة للبشر؛ كما أنّ وجه الإعجاز في آيات الكون ليس مجرد كونها تشغل مساحة واسعة في حقل النّص القرآني فحسب، ولا لأنّ القرآن أقسم بها أكثر ممّا أقسم بغيرها فحسب، بل في كيفية عرضها على العقل البشري وصياغتها ضمن نسقٍ لم تعهده سائر النصوص البشرية ولا حتى النصوص السماوية السّابقة، والعجز عن الإتيان بالمثل نابعٌ – أساسًا- من التناسق والتماسك الحاصل بين مكونات القرآن وتصويره المطلق للأشياء بشكل مطابق تماما للواقع الذي تُبحث فيه.

وبهذه الخاصية تتميّز المعجزة القرآنية عن غيرها من المعجزات في سائر الرسالات السماويّة السابقة، فقد " جاءت كل معجزات الأنبياء قبل مُحَمَّد "ص" مادية بحيث أن عالم المحسوس سبق عالم المعقول أما بفترة زمنية قصيرة أو فترة زمنية طويلة الأمد وذلك لأنّ الإنسان في مراحل تطوره كان عالم المحسوس المباشر عنده أهم من عالم المعقولات، أي أنّ المحسوسات سبقت المجردات المعقولات...ونبوة مُحَمَّد ﷺ التي هي القرآن والسّبع المثاني سبق فيها الطرح المعقول عن المدرك المحسوس بصياغة متشابهة، فكلّما تقدّم الزمن تدخل طروحات القرآن ضمن المحسوسات المدرَكة، وهذا ما يُسمّى بالتأويل المباشر" أي مطابقة المدرك من

(1) نظرات في التفسير العلمي للقرآن، ص: 35-36.

المحسوس مع النّص" ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] "[1]

اذا كانت اللغة تصويرًا للواقع ومحاكاة له، فلا يمكن للبشر – من هذا المنطلق- أن يتصور كل أسرار الواقع الكوني أو يُعبّر عنها بشكل يطابق صورتها الحقيقيّة، واللغة البشرية نتاجٌ لجملة من التصورات التي يستمدّها الانسان من اتصاله بالموجودات من حوله، إذ يبلغ اللسان من الكمال بقدر ما يُدركه من حقائق في الواقع الاجتماعي أو الإنساني أو الكوني، أو بمعنى آخر يتّسم التعبير البشري بطابع النّسبية في وصف الأشياء و الموجودات، وهذا جوهر الفرق بين لغة التنزيل وسائر اللغات الأخرى، فنصوص الوحي جاء التعبير فيها عن المطلق بصياغة إلهية محكمة، لأنّ خالق الموجودات هو المتحدّث عنها.

والإشارات الكونية في القرآن الكريم جاءت في أكثر من ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتشكّل هذه الآيات الكونية حوالي سدس مجموع آيات القرآن الكريم[2]

فإعادة دراسة القرآن تستمد مشروعيتها من طبيعة القرآن نفسه فهو نص أنزل ليقرأه كل من يدخل في خطابه، ولا يحده زمان أو مكان، كما أن ما كتبه المفسرون هو تجربة في فهم القرآن، إن كشفت عن جوانب من معانيه وأحكامه فإن جوانب أخرى ما تزال مكنونة فيه، وإن لم تتقدم مناهج المفسرين على مر العصور في كشف جوانب جديدة، فإن سؤال المنهج يبدو ملحاً والمدخل إلى دراسة القرآن يبدو مفصلياً في إمكانية إضافة جديدة في فهم النص واكتناه معانيه.

(1) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة: مُحَمَّد شحرور، دار الأهالي، ص: 185-186.

(2) مِن آيات الإعجاز العلمي، السماء في القرآن الكريم: زغلول راغب النجار، ط1، دار المعرفة- بيروت، لبنان1425هـ- 2004م، ص: 16

المبحث الثاني: الجمع بين القراءتين: (القرآن والكون)

يجد المتتبع لخصائص الخطاب القرآني نفسه أمام عدد كبير من الرؤى والاجتهادات التي حاولت البحث عن وجوه تميُّز النص القرآني عن غيره من النصوص، ومدى قدرته على المواكبة أو المسايرة لخصائص لكل مرحلة عبر تاريخه الطويل، ومن هنا يمكن تلمُّس ثلاث مجموعات من المنطلقات الرئيسية التي تؤلف الجمع بين قراءة النص وقراءة الكون وآليات الجمع بينهما، وهي:

أ- المنطلقات الكلامية: فقد صاغت جهود المتكلمين مقولات هامة ومفاهيم متعدّدة تكشف في مجملها أنّ القرآن معجزة دائمة وحجة قائمة أبد الدهر وهو كتاب آخر الأديان ومعجزة خاتم النبيين، ومن ثم وجب أن يكون خالدا على مر الدهور والعصور، ولا بد أن يكون فهمه وتفسيره مُتجدّدًا في كل عصر، ومن شأن النظر المستمر في القرآن وتدبره أن يمنح مفاهيم متجددة ومدلولات حية نظرًا لصفة المعاصرة التي يمتلكها النّص القرآني، وانخراطه في شتى صنوف الحياة البشرية، وعلى هذا الأساس وجب على أهل كل عصر " بِأن ينظروا للقرآن كما لو نزل في عصرهم، وذلك يقتضي أن يكون لهم فهمهم وتفسيرهم، وأن لا يفرضوا على أنفسهم تفسيرات المتقدمين عليهم، فإنّ الالتزام بذلك قد يحرمهم من اكتشاف علاقة القرآن المجيد الوثيقة بهم وبقضاياهم وعصرهم " (1)

ب: المنطلقات النصوصية: بين أيدينا ثروة نصية هائلة تفيد في مدلولها الأخير أن القرآن الكريم حي أبد الدهر له رسالته التي يؤديها في كل عصر، إذ لا نظنّ أنّه يوجد نصٌّ في الحضارة الإسلامية من النصوص ما استقطب من الاهتمام وتعدّد القراءة، وتنوّع الأقوال كالذي استقطبه النّص القرآني، ومردُّ ذلك أنّه نص دين وتشريع، وأنّه نصٌّ مُعجز، وأنّ فيه من الخصائص الأسلوبية ما يُهيئه لاختلاف الفهم وتعدّد التأويل.

ومنها ما جاء في القرآن نفسه على أنه ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وأنّه نصٌّ يملك أسلوبه الخاص في الصياغة والتعبير، وله منهجه الخاص في عرض موضوعاته على العقل البشري، ومن ثمّ امتلاكه خاصية المواكبة الحثيثة للزّمن بكلّ مشكلاته وتساؤلاته المستمرة.

(1) أدبية النص القرآني، ص: 15

ج: **منطلقات الثقافة العصرية**: وما طرحته نتائجها من تحديات على مستوى الدراسات القرآنية من خلال جملة من المسائل منها مدى حضور حقائق الكون وأسرار الوجود في نصوص القرآن، وهل جاء ذلك على سبيل التفصيل أم على سبيل الإجمال ؟ ما يستدعي البحث عن إجابة عنها بتحديد موقف يقوم على معرفة واعية وتحليل عميق قصد صياغة نظرية كفيلة بتلبية حاجات العصر إلى ذلك.

وشكّلت هذه الأسس منطلقًا سعى من خلاله من اهتم بمسألة العلوم العصرية وعلاقتها بالقرآن إلى إبراز نواحي التوافق بين الجانبين.

وجاءت الآيات الكونية في سياق الاستدلال على عظمة الله وبيان فضله وإنعامه، وكشفت عن كونها مجرد مخلوقات سخّرها خالقها لتستقيم حياة البشر، وصاغ القرآن ذلك كله ضمن نسقٍ غرضه الأسمى بناء رؤية جديدة للحياة والوجود، ولقد "أثّر التصور الإسلامي الجديد للإله الأسمى بعمق في بنية الرؤية للكون كليا ذلك أنّ نظاما توحيديا ذا مركزية إلهية قد تأسس للمرة الأولى في تاريخ العرب... وهكذا أصبحت كل الأشياء الموجودة والقيم رهنًا بإعادة تنظيم كاملة وتوزيع جديد، إنّ كل عناصر الكون بلا أي استثناء اجتثّت من تربتها القديمة وأُعيد زرعها في حقل جديد " [(1)].

ومن النسق الكوني والتوازن في خلق الله تعالى "نجد أنّ الله تعالى جمع بين عالم الغيب والشهادة وبين السماء والأرض في نظام الكون، وبين الدنيا والآخرة في نظام الدين، والروح والجسد في نظام الإنسان والعبادة والعمل في نظام الحياة وسلكها جميعًا في نظامٍ موحّد ليكون هذا سبيلاً إلى الله تعالى " [(2)]

ومن هنا كان الجمع بين القراءتين – القرآن والكون– هو واحد من أهم المحددات المنهجية التي تسهم في فهم الكون والقرآن معًا، والجمع بين القراءتين هو " قراءةٌ تبدو غيبية تنشأ في إطار الوحي وتنطلق باتجاه الكون، وقراءة موضوعيّة تنطلق من الكون وعناصره باتجاه الوحي، فقراءة الوحي بمثابة تنزُّل من الكلّي إلى الجزئي، فتدرك بقدر ما نتيجة القدرات البشريّة النسبيّة من الفهم لتنزّلات الكلّي وكيفياتها، وقراءة الكون

(1) الله والإنسان في القرآن: ص: 37

(2) دراسات إسلامية معاصرة، أنور الجندي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1: 1403هـ- 1982م، ص: 40

تُقدّم القضايا والمسائل والأسئلة الجزئيّة وترفعها إلى سُدة الوحي ليهتدي الإنسان القارئ في الاثنين إلى الإجابات السليمة من المصدر الذي يهدي للتي هي أقوم " (1)

فالنظام المعرفي القرآني إذ يقوم على الجمع بين قراءتين متلازمتين متكاملتين هما قراءة كتاب الله " المسطور" الوحي" وقراءة كتابه المنظور " الكون" قراءة الخبر وقراءة المختبر " (2)

إنّ الجمع بين القراءتين – الكتاب المسطور والكون المنظور- أهم خطوة منهجية وأبرز محدّد منهاجي يساعد على كشف وتحديد بقية المحددات المنهاجية القرآنية " (3)

والقرآن العظيم والكون البديع "كلاهما يدلّ على الآخر ويرشد إليه، ويقود إلى قواعده وسننه، فالقرآن يقود إلى الكون ويمارس دوره في الهداية فيه ويوظفه بوجوه عديدة، لتسخير مكوناته، ولتوضيح قضاياه، وتأييد دعواه والكون أيضًا يقود إلى القرآن ليسقط أسئلته علي، ويستعين به لإرشاد الإنسان إلى كيفيّة التعامل معه، واستثمار تسخيره " (4)

والنظام اللغوي الجديد الذي يقدمه القرآن الكريم هو في حقيقته تأسيس لنظام جديد في الحياة يرتبط مفهومه بالإله الواحد الأحد " وبهذا أنزل كل الآلهة إلى موقع " الباطل"كنقيض لـ " الحق"، وإذا كان للعرب أن يقبلوا بهذه التعاليم، فإنّ الوضع العام سيخضع لتغير كامل، لأنّ كل مجالات الحياة الاجتماعية والفردية لا بد أن تتأثر عمليّا بذلك، ففي النظام الجاهلي ليس " الله" أكثر من عضو في حقل دلالي خاص، وأما في النظام القرآني فلا يوجد ولو حقل دلالي واحد غير مرتبط مباشرة، ولا محكوم بمفهوم " الله" المركزي، إذ أن عالم القرآن "ذو مركزية إلهية" وهناك نوع من التماسك المفهومي في الرؤية القرآنية للعالم، وإحساس بنظام حقيقي يقوم على مفهوم " الله" ويتركز حوله، وتبعًا لذلك فإنّ كل المصطلحات المفتاحية في هذا النظام الجديد – تقع تحت سلطة هذه الكلمة- المركز-العليا، ولا يمكن لشيء أن يفلت منها، ليس فقط تلك المفاهيم التي ترتبط مباشرة بالدين والإيمان، بل كل الأفكار الأخلاقية، حتى المفاهيم التي تمثل الأوجه الدنيوية مثل الزواج والطلاق، والإرث، والمسائل التجارية كالعقود والديون والربا والمكاييل والمقاييس...إلخ،

(1) الجمع بين القراءتين: الوحي والكون: طه جابر العلواني، دار الشروق، 2005م، ص: 20

(2) حول النظام المعرفي في القرآن الكريم، محمود عايد الرشدان، مجلة إسلامية المعرفة، عدد 10 السنة، 1997م، ص: 37

(3) ينظر معالم في المنهج القرآني: طه العلواني، دار السلام- 2010م. ص7.

(4) الجمع بين القراءتين الوحي والكون، ص:20

كلها قد تم إدخالها في علاقة مباشرة مع مفهوم "الله". وهنا لا يجب أن يكون ثمة أي سوء فهم، ففي النظام القرآني أيضا نجد مفهوم " الآلهة" لكن لا ينبغي أن نخلط النظام الوجودي للأشياء بالنظام الدلالي بكلمات أخرى، إنّ حقيقة كون العالم القرآني توحيديا بشكل جوهري لا ينبغي أن تقودنا للتفكير خطأً بأنّ " الله" يوجد وحده بلا أنداد، بل على العكس ثمة مفاهيم "للآلهة" و " الأوثان" في النظام القرآني، إلا أنّها توجد فيه بوصفها شيئا يجب إنكار وجوده قطعيًّا، إذ إنها جميعا ذات علاقة سلبية مع مفهوم " الله" وتعبيرا بمصطلحات دلالية أدق، إنّ هذه الآلهة توجد في القرآن لأجل ربطها بمفهوم " الباطل" على حين أنّ مفهوم "الله" يرتبط مع مفهوم الحق" (1)

إنّ الجمل والعبارات في هذه الحالة لا تكون مجرد جمل وعبارات، بل تصبح آيات كالشمس والقمر وسائر الآيات الإلهية الأخرى، وتطوي هذه الآيات في جوانحها ما تطويه من الهداية والنور والمعاني والإجابات التي تتكشف عبر العصور بتكشُّف وظهور حاجات الأمم والعصور وأسئلة ومسائل الحياة وأزماتها، فكأنّ المعاني تتنزّل مع بروز الأزمات والمشاكل والأسئلة، فإذا كانت الجاهلية العربية قد استحالت إلى إسلام خلال ثلاث وعشرين عاما، فإنّ أي عصر تالٍ وأية بيئة أخرى يمكن أن تجعل من أسئلتها أسباب نزول للمعاني الجديدة التي تنطوي الآيات عليها، ولا تبخل بتقديمها لمن يحتاجها... فالنزول القرآني يأتي بعد أن تقوم الأزمة في البيئة وتصوغ البيئة السؤال وتنظر الوحي " (2)

فالفهم اجتهاد إنساني في النّص مشروط بظروف موضوعيّة وذاتية، لا ينفكّ عنها، يمكن إرجاعه إليها وتحديده بها على أنّها من النّص وحده، كما ساد الاعتقاد، إنّ تصور الفهم والتفسير بمعزل عن إكراهات الظروف الخارجيّة وتأثيرها يعني تأبيد ما هو ظرفي مؤقت، إذا وقع هذا – وقد وقع- فهو على حساب قداسة النّص الإلهي وأبعاده الكونيّة، والعكس صحيح، فالتسليم بظرفية الفهم وتأكيد طابعه الإنساني، هو أهم ما يُحقق إعجاز النص ويكشف عن سماته الإلهية (3)

(1) الله والإنسان في القرآن، ص: 78-79

(2) الوحدة البنائية: طه جابر العلواني، ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد 24، 1431هـ-2010م، ص 24.

(3) ينظر: النص والسياق الحضاري، ص: 15.

فالواقع الذي هو بالدرجة الأولى نتاج لتفكير الإنسان بطريقة معينة، هو دائم التعقيد والإشكال، فقد تبلغ البشرية حدا من الأزمات لا يقوى على حلها إلاّ الوحي، " أمّا في العصور التالية لعصر التنزيل – على المتلقي الأول عليه الصلاة والسلام- فإنّ القرآن كلّه موجود، وعلى البيئة ذات الأزمة – أية بيئة- أن تصوغ أزماتها في شكل أسئلة مُحدّدة وتتجه إلى القرآن المجيد بها ضارعة مفتقرة، وتطرح بين يديه وتثوّره ... مرّة بعد مرّة لتحصل منه على الجواب الشافي، فقد يقودها القرآن إلى الكامن فيه، والمضمر في ثنايا نصّه، وقد يقودها باتّجاه التاريخ تستنطقه، وإلى نماذج الأمم السابقة تسألها عن أخبارها، والأشباه والنّظائر لتحللها وتستخرج دلالاتها، ويظل آخذا بزمامها بهدى واستنارة في رحاب الكون كلّه، طاويًّا المسافات- كلها- حتى يمنحها حلولها، وينهي مشاكلها، فهو زائد لا يكذب أهله، وقائد لا يخذل جنده، وهاد لا تلتبس عليه السّبل " (1)

إنّ خصائص المتكلّم سيما في الخطاب القرآني، مُحدّد أساسي لفهم طبيعة الخطاب وبنيته ونظامه العام، والمنطق الذي يسود فيه " فمن يتعامل مع النّص والخطاب القرآنيين متجاهلاً تلك الخصائص بل مُجرّدًا إياه عن خصائص القائل ويُلحقه بباقي النّصوص ذات المنشأ البشري، فإنّه يسلب من الخطاب سمة رئيسة من سماته، وهو خروج عن الموضوعية في التعامل مع القرآن وخطاباته، حيث إنّ مؤشرات الموقف في الخطاب القرآني لا تتصل بفعل القول ذاته، وإنّما بخصوصية القائل وهو (الله) بشكل أدق، ومن هذا المنطلق فإنّ بنية الخطاب القرآني بنية إجرائية، الهدف منها إحداث التّغيّر وإبدال رؤية برؤية أخرى مُغايرة، أي إضفاء الرؤية التوحيدية إلى العالم وإلى الحياة " (2)

وقد خُصّص لكل عنصر من العناصر موقع جديد وارتبطت بعلاقات جديدة في ما بينها كما أنّ المفاهيم التي كانت سابقة غريبة تماما عن بعضها قد أُدخلت في علاقات صميمية والعكس صحيح، أي أنّ المفاهيم التي كانت مترابطة بقوة في ما بينها في النظام القديم أصبحت منفصلة في النظام الجديد " (3).

---

(1) المرجع السابق، ص: 25

(2) ينظر: أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره: محمّد مصطفوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي: بيروت، ط1: 2009م، ص: 306

(3) المرجع نفسه، ص: 44

ومن أجل فهم المرحلة التالية علينا أن نتذكر تلك الحقيقة الأساسية عن الإسلام " وهي طبقا للتعاليم الدينية للقرآن نفسه أنّ على الإنسان أن يتعلّم فهم ما يبدو اعتياديا تماما ومألوفا من الظاهرة الطبيعية التي يلاحظها حوله لا بوصفها ظواهر طبيعية محضة بل تظاهرات كبيرة بفضل الله عليه أي أنها – بمصطلحات القرآن– آيات كثيرة لله وعلى الإنسان أن يكون ممتنا له بصدق عليها وذلك واحد من الشروط الأساسية أو بالأحرى الخطوة الأولى تماما لبلوغ الإيمان الحقيقي " (1).

ذلك أن أهل الله لا تتعلق همتهم ببيان ما تؤديه مفردات اللغة وتراكيبها من المعاني وما توصل إليه من المقاصد والأغراض، بل تتجاوز ذلك إلى اعتبار القرآن طريقا إلى معرفة الحق باستكناهه... والسبب هو " أن القرآن لما كان صورة إجمال عالمي الآفاق والأنفس وتفصيلهما، ولما كان ينطوي في ذاته بحسب صورته ومعناه على كل ما اشتمل عليه العالم من مركبات وبسائط، فإنّ النظر فيه وقراءته وفهمه... واستنباط مضامينه وما استتر خلف الألفاظ والتراكيب اللغوية من وجوهه، كل ذلك نظر في العالم وإدراك له بتفصيل ما اشتمل عليه صورة ومعنى " (2)

وإدراك هذا كله لا يتم إلاّ " بإنجاز شرح واف للعلاقة التي تربط بين القرآن والعالم، ونعني بالأخير عالمي الصورة والمعنى أو الأنفس والآفاق، وبتحديد دقيق للمنطق الذي يحكم هذه العلاقة، وبنظرِه فإنّ المنطق الحاكم على هذه العلاقة هو منطق التماثل والتطابق المطلق، بمعنى أنّه كما أنّ القرآن كتاب إلهي مشتمل في صورته على الحروف والكلمات والآيات، فكذا عالما الآفاق والأنفس فإنهما كتابان إلهيان ومصحفان ربانيان، يشتملان صورة على الحروف والكلمات والآيات" (3)

والكون بما احتواه مشتمل على الآيات كالكتاب القرآني " إذ إنّ الآيات صورة جامعة وهيئة كاملة مركبة من الكلمات والحروف، والحروف والكلمات والآيات لا تتصور إلا ضمن الكتاب، فعلى هذا التقدير يكون الآفاق المسمى بالعالم، كتابا كبيرا إلهيا ومصحفا جامعا ربانيًّا " (4)

(1) المرجع السابق، ص: 48

(2) تأويل القرآن النظرية والمعطيات: كمال الحيدري، دار فراقد- إيران، ط1: 1426هـ-2005م، ص: 115

(3) المرجع نفسه: ص 115-116

(4) تأويل القران النظرية المعطيات، ص: 119

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنّ الجمع بين القراءتين، هو السبيل الوحيد لتحرير العلوم من أزماتها، " لأنّ قراءة كتاب الكون من دون كتاب الوحي تفضي بالتدريج إلى الفكر الوضعي الذي يسجن الوعي البشري في ظلمات المادة، ويقطع صلته بخالقه، أمّا قراءة كتاب الوحي (القرآن) وإهمال قراءة الكون، فيقود بالتدريج إلى نفي النواميس والسنن التاريخية والاجتماعيّة والنفسيّة، ويؤدي إلى بروز عقلية قدرية تلغي عوامل الزمان والمكان والمحيط الخاص...فيغيب عن الحاضر في عوالم الماضي، وينقطع عن عصره، وإن كان يبدو موجودًا فيه، لكنّه غائب عنه، لأنّ الحضور يعني إدراك العصر ومشاغله واستفهاماته ومكاسبه" [1]

لقد عرف القرآن الكريم بثراء معانيه وغزارتها، وانفتاح خطابه على التاريخ الماضي، والحاضر الراهن، والمستقبل المنتظر" وهو حين ينفتح على كل تلك المعاني فإنّه يتسع لبعضها بألفاظه الظاهرة، وأحيانا بمعانيه الكامنة، ثم بسياقه وبنظمه وأساليبه وبلاغته وفصاحته ووحدته البنائية " [2]

وإمكانية المعرفة قائمة في تمكين الإنسان من الاتصال بهذه الموجودات التي لا تتأثر بمعرفته لها، فهو يقوم بدور معرفي في حدود ما أعدّه الله له " ومِن ثمّ فعلاقة المعرفة بالوجود ليست مثالية كما أنّها ليست واقعية مادية ....إنما تتمثل في أنّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق وأنّ العالم مخلوق، فقضية الخالقية الواحدة لكل شيء هي أساس العقيدة ومن ثم أساس المعرفة؛ لأنّه إذا كانت مخلوقية الإنسان لخالقه هي أساس وجوده فإنها بلا شك أساس معرفته " [3]

وتمثّل قصة إبراهيم الخليل عمليّة التحويل تلك في النّص القرآني تمثيلاً رمزيًّا عميقًا؛ حيث يتمّ تحويل الشمس والقمر والنجوم وزحزحتها من مقام الألوهيّة والعبادة إلى كونها مجرّد علامات دالّة على موجود أعلى مُطلق لا يُدرَك بالأبصار ولا تناله الحواس؛ هكذا تبدأ القصّة في السّرد القرآني: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ

(1) إسلامية المعرفة: عبد الجبار الرفاعي، إشكاليات التعارض وآليات التوحيد: العلم والدين من الصراع إلى الأسلمة، مجموعة من المؤلفين، ط1، بيروت: 2008م، ص: 310-311.

(2) لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، ص: 28

(3) كونية الإسلام: رؤية للوجود والمعرفة والآخر: صلاح سالم، مكتبة الشروق- القاهرة، ط1: 1429هـ-2008م، ص: 58

يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٥ – ٧٩] إنها رحلة معرفية بدايتها أنّ الله تعالى هو الذي "يُري" إبراهيم ملكوت السموات والأرض، بمعنى أنّه يساعده على اكتشاف طبيعة الملكوت بوصفه علامة أو مجموعة من العلامات تحيل كل علامة إلى علامة أخرى في حركة متصاعدة وصولا للدلالة الكلية، وقد صارت رحلة اكتشاف العلامات تلك نموذجا معرفيا في سياق تطور الفكر الإسلامي الذي استند إلى قراءة العلامات للبرهنة على وجود الله" (1).

إنّ النوع اللفظي من الآيات الإلهية أي القرآن الكريم " يُجسّد الإرادة الإلهية بصيغة أكثر تعيُنا إذ توصل إلينا ما يريد الله بأكبر قدر ممكن من الإحكام قياسًا إلى النّوع غير اللفظي أي " الآيات الكونية" من حيث الإرادة الإلهية تتظاهر على نحو كلي لا تحليلي، ولا تتوفر على إحكام مفهومي وتكون الرسالة المبلغة غامضة وعيية إلى أقصى حد، إلاّ أن الأخيرة " الآيات الكونية " ذات حسنة جلية إذ بإمكانها أن تكون موجهة إلى البشر عامة من دون أي تقييد فضلا عن أنها يمكن أن تعطي نفسها على نحو مباشر من دون أي وسيط، بينما لا يمكن أن يُعطى النوع اللفظي مباشرة إلا لشخص بعينه هو الرسول ﷺ، ولا يُعطى للبشر إلاّ على نحو غير مباشر أي من خلال التبليغ ، وهكذا يصبح الناس جميعا في غمرة عالم من الرموز الإلهية وكلها في متناول أي شخص إذا كان يمتلك فقط القدرة العقلية والروحية لتفسيرها كرموز " (2)

والقرآن إذ يؤسس المعرفة " إنّما يتجه إلى الفطرة السليمة الموقنة بأنها مخلوقة لله، فيوقظ هذه الفطرة ويجلوها ويثيرها بما تشاهده من معروضات في الكون والأنفس، حيث يربط الإسلام بين نوعين من الآيات، آيات الله الملفوظة التي مثّلت نبأ السماء العظيم، آيات القرآن الكريم، وآيات الله المشهودة أي" العلامات الكونية" التي بثها في الآفاق... ويطلب من الإنسان النظر والتعقل والتدبر والتفكر في هذين اللونين من

(1) المرجع السابق، ص: 69

(2) المرجع نفسه، ص: 70

الآيات، والمصدرين من الإعجاز، ليكتسب منهما المعارف والعلوم والأفكار والنظريات والدروس والعبر والعظات والخبرات " [1] باعتبار أنّ خطاب الكون قائم على لغة التسخير ومجال الاستخلاف" [2]

والخطاب القرآني نص محكوم بنظام لغوي حامل لرسالة محددة الوظائف والغايات " وهذا النظام هو بمثابة قانون مميز للنص اللغوي الشرعي عن النص اللغوي البشري عن النص اللغوي (الدلالي) الصامت للمسخرات الطبيعية، وجدلية هذه النصوص هي أساس فهم متحرك ومستمر لعلم معاني الوحي والكون، يبرز في أوجه علمية مُتعدّدة تكشف بوضوح عن إشكالات علاقة النص الشرعي بالمتلقي في التاريخ الإنساني " [3]

وتلك خصائص تنفي عن النص القرآني كونه نصّا لغويا منغلقا انقضت قوانين تفاعله مع الواقع الإنساني، و " القرآن يمارس في نفس الوقت منهج التصديق والهيمنة على اللغة ذاتها، هو يمارس الهيمنة عندما يستعمل المشترك والمتعارف ولكن يعيد صياغته، أو بتعبير القرآن يقوم بإنزاله داخل رؤيته هو للعالم ودور الإنسان فيه " [4]

ولم يكتف القرآن المبين بالتّصديق حيث يتواصل مع السابق ويصححه، بل دفع الأمر إلى مستوى أعلى بكثير من ذلك وأهم، وهو ما عبّر عنه بـ (مهيمنا عليه) حيث تتجلى معالم المرحلة القرآنية مع وعي الهيمنة، ومن ثم شكل القرآن مصنعا للغة حيث تتنوع مُصطلحاته الجديدة وتمكن العالم وما فيه من تنوع ليظهر في شكل آخر، تحكمه علاقات مغايرة لما سبقه ويأخذ كل ما فيه مواضع جديدة تختلف مع ما سبقها ..." [5]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) الإسلام والتعددية: مُحَّد عمارة، دار الرشاد- القاهرة، ط1: 1997م، ص: 105

(2) النص الشرعي وبناء مفهوم التأويل: ص:77

(3) المرجع نفسه، ص:77

(4) التأويل في القرآن المجيد – رؤية معرفية- ناجي بن الحاج الطاهر، أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء : الرباط:17-18 شعبان 1434هـ- الموافق: 26-27 يونيو 2013م، تحت عنوان: التأويل: سؤال المرجعية ومقتضيات السياق، دار ابن حزم – بيروت، ط2: 1436هـ-2015م، ص:47

(5) المرجع نفسه: ص: 50

ولكل راغب في إدراك المفاهيم الخاضعة لرؤية القرآن" أن يعمل جاهدا على استيعاب رؤية القرآن للعالم حيث تأخذ كل تلك المصطلحات، الأسماء، والمفاهيم مواقعها وعلاقاتها وتستمد معانيها " [1]

واختلاف مناهج وسبل معارفنا، وتطور مناهج النظر والتدبر في القرآن نحو التحول من التفسير لمفردات القرآن إلى التحليل، والتعامل معه في إطار " الجمع بين القراءتين" و" وحدته البنائية" كل ذلك يمكن أن يُقدّم للبشرية رؤى متجددة، فالقرآن مثل الكون، كلما تطورت مناهج البحث فيه، والتدبر لآياته، تكشف عن مكنونات جديدة " [2]

واللغة في صورتها الراهنة فعل اجتماعي منسجم مع أصناف التفكير لدى الناس، " ولذلك فهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالرؤى الكونية والمعتقدات والقيم القافية لكل مجتمع، وما ينطبع في ذهن الإنسان وعقله ليس المصاديق الخارجية للأشياء، وإنما مفاهيمها ومعانيها، وانعكاس هذه المفاهيم وآثارها يتبع ما نمتلكه نحن عن الحقائق الخارجية " [3]

وبعبارة أخرى" إنّ الإنسان يتصور بدايةً الحقائق الخارجية، ثم تتضح هذه الحقائق وتتحدد عبر اللغة، سواءً كانت هذه الحقائق من أسماء الذوات، كالله والإنسان والروح والشمس ...وأمثالها، أو من الحقائق الانتزاعية التي هي من أسماء المعاني، كالحب والإيمان والجهاد والحرية، ولذلك كانت المفاهيم الثقافية والمعتقدات والقيم في المجتمعات مختلفة، فمفهوم الله في الرؤية الكونية الإسلامية والفكر العقلي الديني للمسلمين هو متميز عن مفهومه في الرؤى الكونية الأخرى، والأمر نفسه جار في المفاهيم الأخرى مثل: الإنسان والحرية والجهاد، والشهادة وأمثالها " [4]

ولا بد من الإشارة إلى ما هو أهم من اللغة وأدواتها ومصطلحاتها لتدبر القرآن والنظر فيه " هنا يخرج بنا النص عن الكيان اللغوي للقرآن ويدخل في صميم الاستعداد الوجودي لبنية الإنسان فقد يكون الإنسان خبيرا بالعربية وبمدلولات النص القرآني ومفاهيمه، بيد أنه معزول عن حقيقة القرآن بعدم الاستعداد، ثم إنّك أيها المغتر بفطانتك البتراء لو أنصفت قليلا ...لعلمت أنّ المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ

(1) ينظر المرجع السابق، ص: 50.

(2) لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب: ص: 10

(3) منطق الخطاب القرآني:ص: 35

(4) المرجع نفسه، ص: 35-36

لَمَعۡزُولُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٢] كانوا عارفين بدقائق الألفاظ وفنون تأدية الكلام على ما يوافق المرام، لأنهم من العرب العرباء والفصحاء الدهناء، بل إنّما انعزالهم عنه لعدم استعدادهم للاهتداء بأنوار القرآن والارتقاء إلى أعلام الحقيقة والعرفان والاطلاع على أسرار المبدأ والمعاد، والوصول إلى عالم الملكوت، والتقرب بالحق الجواد" (1)

إنّ تميز طبيعة النص القرآني عن غيره تكمن في كونه: "كلام الله وقوله، فهو الذي تكفّل بصياغته بينما الكتب السماوية السابقة هي كلام الله وقول المخلوقات، وبالتالي فصياغتها اللغوية تتناسب مع علم هذه المخلوقات ومع قدرتها على صياغة ما علمته، ولذلك لم يتحدّ الله تعالى البشر بأن يأتوا بنص مثل نصوص الكتب السّماوية السابقة، ولم يبين لنا الله تعالى في كتابه أنّ الكتب السّماوية الأخرى من قوله تعالى. بينما القرآن الكريم هو كلام الله تعالى (شأنه بذلك شأن الكتب السّماوية الأخرى) وهو أيضا قول الله تعالى، فالله تعالى صاغ القرآن الكريم ولذلك يتحدّى الله تعالى الإنس والجن على أن يأتوا بنص كالنص القرآني ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨] ".(2)

فالجمع بين قراءة الكون وقراءة النص أمر لا مناص منه، فخالق الكون ومنزل القرآن واحد، وقد نصّ القرآن على ذلك في مواضع متعددة منه، فهو يدعو تارة إلى النظر والتفكر في الكون، ويدعو تارة أخرى إلى النظر والتدبر في القرآن، وهذا التوجّه هو أهم ما يُبنى عليه منهج قراءة الخطاب القرآني.

(1) فهم القرآن: جواد علي كسار، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي- بيروت، ط2: 2010م، ج1، ص 342-343.

(2) المعجزة الكبرى، عدنان الرفاعي، ص: 30.

الفصل الثالث:

آيات السموات والأرض

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث: آيات السموات والأرض

إنّ أكثر الآيات الكونية تداولا في الخطاب القرآني، آيات (السموات والأرض) والحديث عنها بذلك الكم الهائل يلفت إلى أهميتها وعظمتها ويدعو إلى البحث في قوانينها والتأمل في أسرارها، واكتشاف ما هو مُسخّر فيها، ويقترن ذكر الأرض بذكر السماء في مواضع، وبذكر السموات في مواضع أخرى، والغالب في القرآن أن يتقدم ذكر السماء أو السموات على ذكر الأرض، ويرد لفظ الأرض – في مواضع– غير مقترنٍ بلفظ السماء أو السموات، وكلّ ذلك وفق ما يستدعيه نسق السورة وسياقها العام.

ويأتي لفظ السماء تارة بصيغة الجمع وتارة بصيغة الإفراد لنكت تليق بذلك المحل... والحاصل أنه حيث أريد العدد أتي بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة نحو:﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ** ﴾ [الصف:١] أي جميع سكانها على كثرتهم ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ** ﴾[الجمعة: ١] أي كل واحد على اختلاف عددها ﴿ **قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ** ﴾[النمل: ٦٥] إذ المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة من السماوات، وحيث أريد الجهة أُتي بصيغة الإفراد نحو: ﴿ **وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾[الذاريات:٢٢] ﴿ **ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ** ﴾[الملك: ١٦] أي من فوقكم[(1)]

وفي ذكر المفرد والجمع وأسباب اختلاف العلامات الدالة على الجمع واختصاص كلّ محلٍ بعلامته، ووقوع المفرد موقع الجمع وعكسه، وأين يحسن مراعاة الأصل، وأين يحصل العدول عنه ؟ وهذا فصل نافع جدا يطلعك على سر هذه اللغة العظيمة القدر " [(2)]

وليست الأرض في الأصل كأسماء الأجناس مثل "ماء" و "حجر" و "تمر" ولكنها لفظة جارية مجرى المصدر، فهي بمنزلة السّفل والتحت، وبمنزلة ما يقابلها كالفوق والعلو، ولكنها وصف بها هذا المكان المحسوس فجرت مجرى " امرأة زَورٌ وضَيف" ويدل على هذا قول الراجز:

---

(1) الإتقان في علوم القرآن: ص: 459-460

(2) بدائع الفوائد، ج1 ص: 188

ولم يُقلّب أرضها البيطارُ

يصف قوائم الفرس، فأفرد اللفظ وإن كان يريد ما هو جمع في المعنى (1)

فإذا كانت بهذه المنزلة، فلا معنى لجمعها، كما لا يجمع " الفوق والتحت والعلو والسُّفل" فإن قصد المخبر إلى جزء من هذه الأرض الموطوءة وعيّن قطعة محدودة منها، خرجت عن معنى " السُّفل" الذي هو في مقابلة "العلو" حيث عيّن جزءا محسوسا منها، فجاز على هذا أن يُثنّى إذا ضممتَ إليه جزءا آخر، فنقول " رأيت أرَضين" ولا تقول للواحدة "أرَضة" كما تقول في واحد التمر " تمرة" لأن الأرض ليس باسم جنس كما تقدم " (2)

فإن أرادوا الكثرة والجمع الذي لا يتعين آحاده كأسماء الأجناس لم يحتاجوا إلى الجمع، فإنّ لفظ" أرض" يأتي على ذلك كله، لأنها كلها بالإضافة إلى "السماء" تحت وسفل، فعبّر عنها بهذا اللفظ الجاري مجرى المصدر لفظا ومعنى، وكأنّه وصف لذاتها لا عبارة عن عينها وحقيقتها، إذ يصلح أن يُعبر به عن كل ماله فوق، وهو بالإضافة إلى ما يقابله سُفل كما تقدّم، فسماء كل شيء أعلاه، وأرضه أسفله، وتأمّل كيف جاءت مجموعة في قول النبي ﷺ " طوّقه من سبع أرضين" لما اعتمد الكلام على ذات الأرضين وأنفسها على التفصيل والتعيين لآحادها دون الوصف لها بتحت أو سفل في مقابلة فوق وعلو فتأمّله (3)

ومن نماذج البيان القرآني في عرض آيات السموات والأرض:

سورة البقرة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٢]

(1) المصدر السابق: ج1 ص 197-198
(2) المصدر نفسه: ج1 ص 198
(3) المصدر نفسه: ج1 ص: 199

ابتدأ الخطاب بالاسم الموصول "الذي" لأنّ فيه تخصيصا ليس في غيره من الموصولات الأخرى، وكلمة " **الذي**" موضوعة للإشارة إلى مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة " (1)

وفي الآية إشارة إلى أنّ هيئة الأرض في بداية تخلُّقها تختلف عما استقرّت عليه فيما بعد، ولو جاء قوله: "خلق لكم الأرض فراشا" لفُهم أنّ الأرض قد خُلقت على هيأتها هذه منذ البداية، ولكن في التعبير بالفعل "جعل" المتعدّي إلى مفعولين تأكيد على التحول والتغير "وتصيير الشيء على حالة دون حالة " (2) فالفعل "خلق" أليق بإيجاد الذوات، والفعل "جعل" أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها " (3)

فإنّ في الخلق ملاحظة معنى التقدير، وفي الجعل ملاحظة معنى الانتساب يعني كون المجعول مخلوقا لأجل غيره أو منتسبا إلى غيره " (4)

وفي سياق الآية يطرح سؤال مفاده: ما سبب مجيء التعبير بالاسم "فراشا وبناءً " في هذه الآية، والتعبير بالفعل في موضع آخر: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾[الذاريات: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴾[النازعات: ٢٧]

والجواب عن ذلك **بقاعدة قرآنية هامّة** مفادها أنّ ورود الآيات الكونية في القرآن إذا كان في سياق **التذكير بنعمة الله** ناسب التعبير عن ذلك بتوظيف "**الاسم**" وإذا كان في سياق **الإخبار عن عمليّة الخلق ولفت النظر إلى القدرة الإلهية المطلقة** جاء التعبير بـ "الفعل".

ومن نماذج ذلك قوله تعالى في سياق التذكير بالنعمة:﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ﴾ [البقرة: ٢٢] وقال تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[غافر: ٦٤] فورد اللفظ بصيغة " الاسم" (فراشًا، بناءً، قرارًا) لأنّ هذه

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ج1 ص 182
(2) الإتقان في علوم القرآن: ص: 389
(3) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ج7 ص127
(4) تفسير التحرير والتنوير: مُحَمَّد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون، تونس، 1997،ج7 ص:126

الأوصاف هي التي استقرّ عليها حال الأرض وتهيّأت لوجود ما على ظهرها من الناس والدواب والأنعام وغير ذلك.

وقوله تعالى في سياق عمليّة **الخلق** والاستدلال على القدرة الإلهية المطلقة: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٧ — ٤٩]

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية: ١٧ — ٢٠]

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٧ — ٤٨] وقال في موضع آخر: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الرعد: ٢ — ٣]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النازعات: ٢٧ — ٣٣] وجاء التعبير في هذه الآيات بصيغة الفعل (بنيناها، فرشناها، دحاها...) لأنّها في سياق الإخبار عن عمليات ومراحل الخلق والاستدلال على عظمة الخالق.

وفي سياق الآية– آية البقرة– تذكير بنعمة الله على عباده بأن جعل الأرض "فراشا" ولو أخذت هيئةً أُخرى لصعُبت حياة الإنسان عليها، وفي توظيف لام التمليك في "لكم" خطاب للإنسان عموما، وهذا جانب من نعمة الله على النّاس.

وقد يقول قائل: ما وجه المناسبة بين سياق النعمة وورود اللفظ بصيغة " الاسم" ؟

والجواب عن ذلك أنّ الاسم يدل على الثبات والاستقرار، فحينما يرد قوله: ﷻ عن الأرض كونها فراشا، ومهادًا، وبساطًا، وقرارًا...فهذا يعطينا صورتها النهائية التي استقرّت عليها، وتهيّأت لحياة الإنسان فيها، والاستقرار في مكان مكتمل الهيئة محكم البناء أكثر دلالة على النعمة والاستقرار مِن مكانٍ لا يزال في مرحلة التكون والتهيؤ، ولما عبّر القرآن عن هيئة الأرض وهي في مراحل التّكون أورد اللفظ بصيغة "الفعل" فقال: مددناها، دحاها، طحاها... ففي الأولى تذكير بالنّعمة وفي الثانية لفت إلى عظمة الخلق.

وفي مجيء الآية وفق هذا النسق بتقديم الجار والمجرور " لكم" تنبيهٌ على أنّ الأرض المفروشة هي الأنسب للنوع البشري والأصلح له.

وفي وصف السماء بأنّها "بناء" إشارة علمية دقيقة إلى أنّ طبيعة **بناء** السماء تختلف عن **بنيان** الأرض، ومن عادة القرآن الكريم في اختيار المصادر اختصاص الأرض بـ " البنيان" والسماء بـ" البناء" على تعدد مواضع ورودهما في القرآن.

ومِن مواضع اقتران **البناء** بالسماء قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]

وقوله:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[غافر: ٦٤]

ومن مواضع اقتران الأرض **بالبنيان** قوله تعالى:﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ١١٠]

وقوله تعالى:﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦]

وفي ذلك إشارة إلى الفرق الدقيق بين بنيان الأرض، المرتبط أساسًا بالقدرة البشرية المحدودة، وبناء السماء المرتبط بقدرة الله المطلقة، ولما كان بناء السّماء مختلف عن بنيان الأرض، فهذا يعني أنّ العمد التي يقوم عليها البناء مختلفٌ أيضًا، ولذا عبّر عن بناء السّماء بقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]

قال أبو علي الفارسي: " لما كان البناء رفعًا للمبني قُوبل بالفراش الذي هو على خلاف البناء " (1)

وبعد ذكر فرش الأرض وبناء السماء انتقل إلى ما هو أخص منهما وهو إنزال الماء من السماء:﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾[البقرة: 22]

والإنزال هو "حط من علو، يقال: نزل عن دابته، ونزل في مكان كذا أي حط رحله فيه" (2)

ويأتي ذكر إنزال الماء على سبيل الخصوص بعد العموم لأنه آية أيضاً، وإفراده بالذكر من بين الآيات لعظم نفعه وتسبب حياة كل شيء عنه، وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ تفيد ابتداء الغاية، أي نزول الماء من السحاب لأنه يخرج منه، وقدّم الجار والمجرور﴿ مِنَ السَّمَاءِ﴾ على المفعول به "الماء" لأنّ السياق هنا سياق إنعام وتفضل في عملية إنزال الماء من فوقهم، فهم يستفيدون منه دون مشقة في الحصول عليه، فالتقديم هنا أبلغ من التأخير "فإنّ للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلا لا سبيل له مع التأخير" (3)

وحرف الجر"مِن" في قوله:﴿ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ للتبعيض،كما أنّه قصد بتنكير "ماءً" و "رزقًا" معنى البعضية، لأنّه مُفرد في سياق الإثبات، فكأنّه قيل: وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم وهذا معنى صحيح، لأنّه لم ينزل من السماء الماء كله، ولا أخرج بالمطر

---

(1) الإتقان في علوم القرآن: ص 669، وينظر البرهان في علوم القرآن: مُحَّد بن عبد الله الزركشي، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1: 1408ه/1988م ج3 ص: 456

(2) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مُحَّد بن يعقوب الفيروز أبادي، تحقيق : مُحَّد علي النجار القاهرة ، 1384ه/1964م ص: 29

(3) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: مُحَّد عبدة، تعليق: مُحَّد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1402ه/1981م، ص: 189

جميع الثمرات، ولا جعل الرزق كلّه في الثمرات فيكون كل الثمرات بعض الرزق فضلا عن بعضها، ويجوز أن تكون للبيان كقولك: أنفقتُ من الدراهم ألفا" [1]

و"الإنزال" تأتي بلفظ الإفراد" أنزل" ويأتي بلفظ الجمع "أنزلنا" فإذا كان في مقام التعظيم يسنده إلى مقام التعظيم يقول: " أنزلنا" وإذا كان في مقام التوحيد يكون في مقام الإفراد، يقول تعالى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤]

وجاء الفعل " أنزل" في هذه الآية ليناسب مقام التوحيد قبله في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ٢١]

والحاصل أنه تعالى في سياق هذه الآيات عدّد عليهم" خمسة دلائل: اثنين من الأنفس وهما خلقهم وخلق أصولهم، وثلاثة من الآفاق جعل الأرض فراشا والسماء بناءً والأمور الحاصلة من مجموعهما وهي إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات بسببه، وسبب هذا الترتيب ظاهر لأنّ أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، ثم ما منه منشؤه وأصله، ثم الأرض التي هي مكانه ومستقرّه " [2].

وتبيّن الآية الكريمة إلى جانب مظاهر قدرة الله في خلقه دقةَ اختيار المفردات والتراكيب المعبّرة عنها، وهل يمكن لقدرة غير قدرة الله أن تعبّر عن نفسها " وأي قدرة تلك التي تدفعك إلى أن تستغني عن الله سبحانه وتعالى لتنسب الفضل إلى نفسك، لا توجد قدرة إنسانية تستطيع أن ترغم عملا من الأعمال في الدنيا على أن ينفعل بها" [3]

* * * * *

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[البقرة: ٢٩]

---

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ج1 ص: 187

(2) المصدر السابق، ج1 ص: 182

(3) خواطر الشعراوي، د ط، ص: 99.

وإنّما جاءت الآية السابقة بتوظيف الفعل "جعل" لِفِراش الأرض وبناء السّماء، وجاء في هذه الآية:﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾لأنّ في فعل الخلق معنى الإيجاد وفي الجعل معنى التصيير، ولما كان سياق الآية الأولى في بيان النعمة ناسبه الفعل "جعل" وجاء سياق هذه الآية في الإخبار ببداية الخلق، فناسبه الفعل "خلق" ، ولو قال: "هو الذي جعل لكم ما في الأرض جميعا " لاحتمل أن يكون ما في الأرض لم يُخلق من أجل الإنسان ابتداءً، ففي التعبير بـ"الخلق" مزيد من التذكير بنعمة الله على عباده.

ودلت الآيات القرآنية على أنّ كل عنصر من عناصر الطبيعة السماوية مخلوق؛ فليس هناك عنصرٌ منها يتصف بالأزلية ... وعبّر القرآن عن هذا المفهوم بألفاظ صريحة (كالخلق، والإبداع، والفطر، والجعل، والقضاء) وهي كلها تنتهي إلى معنى الإيجاد والتكوين والإنشاء مع الدلالة على القدرة.

وفي نسبة الخلق إلى الله إشارة إلى أنّ الإنسان لا يستطيع أن يوجد شيئا إلا من موجود، وأنّه لا يستطيع أن يستحدث شيئًا في الكون، أو يغيّر منه، وفي ردّ إبراهيم عليه السلام على الذي حاجّه في ربه قائلا:﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٨] دلالة على عجز البشر عن تسيير نواميس الكون أو التحكم فيها، فضلاً عن إيجادها أو خلقها من عدم.

وفي التسوية معنى الاعتدال والإحكام، ولو جاء فعل " الخَلق" وحده لانصرفت الأذهان إلى أن هيئة السموات قد يعتريها العوج والفطور، وفي التعبير بذكر "التسوية" نفي لهذا التوهم وإثبات لهيئة هذا الخلق الذي من صفته الاستقامة والانتظام.

وتقرير الاستواء أن يقال:" استوى العود إذا اعتدل، ثم قيل استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصدا مستويا من غير أن يلوي على شيء، ومنه استعير قوله:﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾أي قصد إليها بإرادته ومشيئته بعد خلق ما في الأرض من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر" (1).

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ج1ص: 210-211

والآية الكريمة تشير إلى خلق الله لكل ما في الأرض وتفرده به، وإيجاده للسماوات، ومعنى "فسواهن": "هيأهن وخلقهن ودبرهن وقومهن، والتسوية في كلام العرب التقويم والإصلاح والتوطئة كما يقال: سوّى فلان لفلان هذا الأمر اذا قوّمه وأصلحه ووطأ له، فكذلك تسوية الله سبحانه سماواته وتقويمه إياهن على مشيئته، وتدبيره لهن على إرادته، وتفتيقهن بعد ارتقاهن" [1] فعدلهن وخلقهن مصونة من العوج والفطور[2] .

وفي الآية حديث عن خلق ما في الأرض عموما ثم الاستواء إلى السماء وتسويتها سبعا، وفَهِمَ بعض أهل التفسير من الآية أنّ خلق الأرض سابق لخلق السماء، وفي هذا السياق ذكر مُحَمَّد الأمين الشنقيطي أنّ " هذه الآية تدلّ على أنّ خلق الأرض قبل خلق السماء، بدليل لفظة " ثم " التي هي للترتيب والانفصال، وكذلك آية حم السجدة، تدلّ أيضا على خلق الأرض قبل خلق السماء، لأنّه قال فيها:﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾إلى أن قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ... ﴾الآية، مع أنّ آية النازعات تدل على أنّ دحو الأرض بعد خلق السماء، لأنّه قال فيها ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ ثم قال: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ " [3]

ويؤكد ذلك مرة أخرى في قوله: " وفي هذه الآية التصريح بأنّ جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء، لأنّه قال فيها:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ الآية " [4]

---

(1) جامع البيان في تفسير القرآن: أبو جعفر بن جرير الطبري ، أعيد طبعه بالأوفست، 1392 ط2: هـ/1972م. ج1 ص: 151.

(2) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، افتاب، طهران، (د.ت) /271

(3) دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب: مُحَمَّد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط1417،1هـ، 1996م، ص: 12-11

(4) المصدر نفسه: ص 12

والواقع أنّ مضمون الآية لا يدل على أنّ خلق الأرض أسبق من خلق السماء، وفي قوله عز وجل:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ دليل على أنّ السماء هي الأخرى كانت موجودة مِن قبل، وإنّما تسويتها سبع سموات هي المرحلة التي جاءت فيما بعد، وهذا هو المعنى المستفاد من العطف بـ " ثم" الذي يفيد الترتيب والتراخي.

ورفع الشنقيطي الإشكال الوارد في فهم الآيات المتعلقة بخلق السموات والأرض من وجهين، تدل على كل واحد منهما آية من القرآن:

" **الأوّل**: أنّ المراد بخلق ما في الأرض جميعا قبل خلق السماء: الخلق اللغوي الذي هو التقدير، لا الخلق بالفعل الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمي التقدير خلقًا، ومنه قول زهير:

ولَأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

والدليل على أنّ المراد بهذا الخلق التقدير: أنّه تعالى نصّ على ذلك في سورة فصّلت حيث قال: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ثم قال:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ... ﴾ **الوجه الثاني**: أنّه لما خلق الأرض غير مدحوة، وهي أصل لكل ما فيها، كان كل ما فيها كأنّه خُلق بالفعل، لوجود أصله فعلا، والدليل من القرآن على أنّ وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع، وإن لم يكن موجودًا بالفعل، قوله تعالى: ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ... ﴾ [الأعراف:11] ؛ فقوله:﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾أي بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم " (1)

والمعنى الذي أفادته " ثم" في سياق الآية هو الترتيب والتراخي، وإن جاز حمل المعنى على الترتيب " فلا إحالة في أنه تعالى خلق الأرض أولا في غاية الصغر وجعل فيها أصول الجبال ووضع فيها البركة وقدّر الأقوات، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعا، ثم دحا الأرض بأن جعلها أعظم مما كانت عليه كهيئتها الآن والله تعالى أعلم" (2)

(1) المصدر السابق: ص 12-13

(2) غرائب القرآن: ج1 ص212

وفي قوله: ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ ﴾ ورد رسم لفظ ﴿ سَمَٰوَٰتٖ ﴾ بالألف المحذوفة بعد الواو كما جرت عليه العادة في القرآن بخلاف آية فصلت حيث ورد قوله عز وجل: ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَاوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت] برسم الألف بعد الواو، والمتتبع لسياق الآيتين يجد أنّ سياق آية البقرة أقل تفصيلا من سياق الآية في فصّلت، حيث جاء قبل آية البقرة قوله: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [البقرة: 18]

وجاءت المعنى أكثر تفصيلا قبل آية فصّلت في قوله عز وجل: ﴿ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت: ٤ – ٥]

وجاء في آية البقرة ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٩]

وفي فصلت قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَاوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت: ٩ – ١٢]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولما كان اختلاف سياق الآيتين إيجازًا وتفصيلا ناسب ذلك اختلاف رسم اللفظ " سموات" فحذف الألف مع الإيجاز ورسم مع التفصيل.

ومقتضى الظاهر – حسب ما يقتضيه السياق– أن تُختم آية البقرة بالقدرة، وآية آل عمران بالعلم في قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران 29]

والجواب: " أنّ آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم، وخلق السماوات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالما بما فعله كليّا وجزئيا، مجملا ومفصلا ناسب ختمها بصفة العلم، وآية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب، ناسب ختمها بصفة القدرة " (1)

وقال الرازي في سورة البقرة: " ومن تأمّل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو – أيضا– بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلاّ أن رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير منتبهين لهذه الأسرار " (2)

* * * * *

سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]

في سياق الآية تقديم للجار والمجرور "عليه" على الفاعل "شيءٌ" وذلك للاهتمام بالمتقدم وهو الله (سبحانه)، وفي معنى قوله: ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ عموم الأمكنة، وما فيها، وابتدأ بذكر الأرض ليتسنى التدرج في العطف إلى الأبعد في الحكم، لأنّ ما في الأرض قد يكون علمه متاحًا لِكثيرٍ

(1) الإتقان في علوم القرآن: ص 684

(2) المصدر نفسه، ص: 694

مِن الناس، بخلاف ما في السماء فلا يعلم أحدٌ بعضها فضلا عن علم جميعها، والخطاب قبل الآية موجّهٌ لأهل الأرض، فناسبه تقديم ذكر الأرض على السماء.

وكرّر حرف الحرف (في) في قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنّ السياق قبل الآية الكريمة سياق مُحاجحة ومكابرة مِن نصارى نجران، ومعارضتهم للنّبي، فناسب ذلك أن يزيد لهم في القول ويبسط (1) .

* * * * *

سورة المائدة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٧]

ورد في مواطن من القرآن الكريم أنّ لله ملك السموات والأرض و"ما بينهما" وفي مواطن أخرى دون قوله "وما بينهما"

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]

قال تعالى:﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ

(1) ينظر التعبير القرآني: صالح فاضل السامرائي، دار عمار- عمان، ط1: 1427هـ-2006م، ص: 103 .

يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾[الحجر: ٨٠ – ٨٥]

المتتبع لسياق الآيات القرآنية يجد أنّ "كل موطن ذكر فيه أن له ملك السماوات والأرض **وما بينهما** إنّما جاء تعقيبا على القول في الله ما لا يليق به سبحانه كقول النصارى: إنّ المسيح ابن الله أو هو الله، أو قول اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، فجعلوا أنفسهم أبناء الله، فيعقب على ذلك بقوله: إنّ له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فلِمَ يتخذ ولدًا ؟

إنّ الذي يتخذ ولدا إنّما به حاجة إلى ذلك أو يشعر أنّ به حاجة فيتخذ الولد لسد الحاجة، أما الله فإنّ له ملك السماوات والأرض وما بينهما فهو ملكهما ومالكهما فلِمَ الولد؟

فيذكر سعة ملكه في نحو هذا الموطن لبيان أنّ قولهم باطل وأنّه غير محتاج إلى الولد، أمّا ما لم يرد في سياق ذلك فلا يذكر " ما بينهما "

ومن الطريف أن نذكر أيضا أنّ كل موطن ذكر فيه "ما بينهما" إنّما هو في سياق الكلام على ثلاث ملل وهُنّ: اليهود والنّصارى والمسلمون، بخلاف ما لم يذكر ذلك، فاليهود والنّصارى والمسلمون ثلاثة، والسماوات والأرض وما بينهما ثلاثة فناسب بين الملل الثلاث ما ذكره من السماوات والأرض وما بينهما " (1)

ولو اكتفى القرآن بذكر ملكية السموات والأرض دون "ما بينهما" لقال قائل أنّ الملكية تختص بالسموات والأرض دون غيرهما، وفي التعبير بـ " ما بينهما" دلالة على عموم الملكية مِن البشر ومِن غيرهم.

* * * * *

(1) على طريق التفسير البياني: صالح فاضل السامرائي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ- 2002م. ج1 ص:237-238

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الأنعام:

قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ٢﴾ [الأنعام: ١ – ٢]

وفي تفسير سورة الأنعام يقول سيد قطب: " إنها اللمسات الأولى... تبدأ بالحمد، ثناءً عليه وتسبيحًا له، واعترافًا بأحقيّته للحمد والثناء على ألوهيته المتجليّة في الخلق والإنشاء... بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى ...الخلق، وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود ...السموات والأرض...ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض وفق تدبير مقصود...الظلمات والنور... فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك...لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم، كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهو بعد ذلك كلّه لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون، بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه "(1)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام: ١١]

جاء في هذه الآية عطف النظر على السير بالحرف " ثم" و ذكر في النمل والعنكبوت والروم وغيرها: " فانظروا" بالفاء لأنّ " ثم" للتراخي، و" الفاء" للتعقيب: وفي هذه السورة تقدم ذكر القرون في قوله:

(1) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق- بيروت، ط9: 1400هـ- 1980م، ص: 1030

﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ ﴾ [الأنعام: 06] فأُمِروا باستقراء الديار وتأمل الآثار، وفيها كثرة، فيقع ذلك بسير بعد سير، وزمان بعد زمان، فخصّت بـ "ثم" ولم يتقدم في سائر السورة مثلها، فخصّت بالفاء " (1)

قال الخطيب الاسكافي: " الجواب عن ذلك أن يقال: إنّ قوله:﴿ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ يدل على أنّ السير يؤدي إلى النظر فيقع بوقوعه وليس كذلك " ثم" ألا ترى أنّ " الفاء" وقتٌ في الجزاء، ولم تقع فيه "ثم" فقوله في سورة الأنعام:﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ ﴾ لم يجعل النظر فيه واقعا عقيب السير متعلقا وجوده بوجوده، لأنه بعث على سير بعد سير لما تقدم من الآية التي تدل على أنه تعالى حثهم على استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثرًا بعد أثرٍ في ديارٍ بعد ديارٍ قد علم أهلها بدمار.. ثم قال:﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: 06] فدعا إلى العلم بذلك، بالسير في البلاد ومشاهدة هذه الآثار، وفي ذلك ذهاب أزمنة، ومدد طويلة، تمنع النظر من ملاصقة السير، كما قال في المواضع الأخرى التي دخلتها الفاء، لما قصد من معنى التعقيب، واتصال النظر بالسير، إذ ليس في شيء من الأماكن التي استعملت فيها " الفاء" ما في هذا المكان من البعث على استقراء الديار وتأمل الآثار، فجعل السير في الأرض في هذا الموضع مأمورا به على حدة، والنظر بعده مأمورا به على حدة، وسائر الأماكن التي دخلتها الفاء علّق فيها وقوع النظر بوقوع السير، لأنه لم يتقدم الآية ما يحدو على السير الذي حدا عليه فيما قبل هذه الآية، فلذلك خصت بـ " ثم" التي تفيد تراخي المهلة بين الفعلين" (2)

* * * * *

سورة الأعراف:

(1) البرهان في علوم القرآن: ج3 ص:65.

(2) ينظر: درة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: ابن عبد الله محمّد الخطيب الاسكافي، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت، لبنان، ط3: 1979م .ج29ص:60

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]

قيل: إنه تعالى كان قادرا على إيجادهما دفعة واحدة فما الفائدة في ذكر أنه خلقهما في ستة أيام في أثناء ذكر ما يدل على وجود الصانع ؟ وأجيبَ بأنه أراد أن يُعلّم عباده الرفق والتأني في الأمور والصبر فيها ... ومن العلماء من قال: إنّ الشيء إذا أحدث دفعة واحدة ثم انقطع الإحداث فلعلّهُ يخطر ببال بعضهم أن ذلك إنما وقع على سبيل الاتفاق، أمّا إذا أحدثت الأشياء على التعاقب والتواصل مع كونها مطابقة للحكمة والمصلحة كان ذلك أقوى في الدلالة على كونها واقعة بإحداث محدث حكيم عليم قادر رحيم" (1)

وفي القرآن حين تتحدث الآيات عن خلق الإنسان يُذكر معه أنّه خُلق من طين، ثم جاء نسله من ماء مهين، فهو تذكير مستمرّ للإنسان بأصل خلقته ووجوده، ولم يذكر القرآن مُدة خلق الإنسان بنصّ صريح ما عدا في قوله تعالى: حمله وفصاله في عامين،

أمّا النصوص التي ذُكر فيها خلق السموات والأرض فلم تذكر الأصل الذي خُلقت منه، بل نصّت على المدة الزمنيّة التي استغرقتها عمليّة الخلق، فيُذكر الزمن مع السموات والأرض، دون أصل المادة، ويُذكر أصل المادة مع خلق الإنسان دون ذكر المدّة الزمنية، ولم يذكر القرآن مجموع هذه المراحل – مع تخلّق الإنسان– لأنّ اكتمالها يختلف من إنسانٍ لآخر؛ فقد يتمّ ذلك في مدة تتراوح بين ستة أشهر إلى تسعة، ولذلك لم يذكر القرآن ذلك لأنّ الإنسان يعرفه بالمعاينة.

ولا ينتفي أن يكون المقصود من الأيام الستة لخلق السموات والأرض جملة المدة الزمنيّة التي استغرقتها هذه المراحل، وهو أمرٌ غير مشاهَد للإنسان– فيما يملكه من معطيات– لذلك أخبر القرآن عن مُدّة خلقها؛ ثم لِننظر كيف فصلّ القرآن مراحل خلق السموات والأرض – وهي ستٌّ أيضًا– (خلق

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج3 ص:245-246

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأرض في يومين، ثم جعل الرواسي، والبركة، وتقدير الأقوات في أربعة أيام ، ثم الاستواء إلى السماء وتسويتها سبعًا في يومين آخرين)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ
(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ
اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت: ٩ – ١٢]

فالخَلقُ-كلّه- خاضع لمبدأٍ مشترك هو عامل الزّمن، ولا يتخلّف عن ذلك مخلوقٌ، وقد بسط الله لعباده مِن نماذج ذلك ما يراه كلّ إنسان في حياته، وفي ذلك دليل على أنّ القرآن يولي اعتبارًا خاصًّا لمسألة الخلق التدريجي للعالم، وهو بذاته دليلٌ على عظمة الله وقدرته، وحينما يقول القرآن ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]

فمعنى ذلك أنّ الاستجابة لأمر التّكون ﴿ كُن ﴾ تتمّ وفق مراحل زمنية – قد تطول وقد تقصر- ولا تكون بشكل مفاجئ ، وما يدلّ على ذلك هو مجيء الفعل بصيغة المضارع ﴿ فَيَكُونُ ﴾

ومعَ أنّ خلق النبي عيسى عليه السلام يُعدّ مُعجزة بالنظر إلى أسباب وجود الإنسان، إلا أنّ نواميس الله في خلقِه لم تتخلّف من ناحيّة المدة الزمنية، ومثلُه في ذلك كمثل آدم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ [آل عمران: ٥٩] ولو لم ينُصّ القرآن على أمر "الخلق التدريجي" في كل الموجودات، لوَجَد من يعبُد غير الله منفذا للقول بأنّ معبودَه قد وُجِد دُفعةً، وما وُجِد دفعة فهو ليس محكومًا بزمنٍ فمِن شأنه- إذن – أن يُتخذ إلهًا.

وأيًّا ما كان الأمر فلفتُ النظر إلى المدة الزمنيّة هو إيماءٌ إلى أنّ كل ما هو مخلوق قد مرّ بمراحل، وكل موجودٍ يمر بمراحل يدلّ – بذاته- على أنّ هناك مُوجِدًا، ثم إنّ ما يأتي عليه الزّمن يأتي عليه الفناء، وليس من شأن الفاني أن يكون إلهًا يُعبد من دون الله.

جمعية أمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والآيات القرآنيّة تؤكد أن عملية خلق السموات والأرض أمر غير مشهود للإنسان غائبٌ عن مجال إدراكه، ولكن الله ﷻ " قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسيّة ما يمكن أن يُعين الإنسان – بإمكانياته المحدودة – على الوصول إلى تصوّر ما لعمليّة الخلق، إلاّ أنّ هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى معالم الحقيقة أبدًا، لأنّ الحقيقة العلميّة لا بد وأن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه- على الرغم من محدودية ذلك- ومن هنا فإنّ العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق مرحلة التنظير أبدًا، ولذلك تتعدّد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها...وفي هذا الخضم يبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات "[1]

و الفرق بين الخلق والأمر هو: أنّ الخلق إيجاد الشيء بعد أن لم يكن، والأمر في تدبيره وتسييره " فعالم الخلق في تسخيره وعالم الأمر في تدبيره " [2] قال الكشاف" سمي ذلك أمرا على التشبيه كأنهن مأمورات بذلك" [3]

وفي قوله:﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ [الرعد: 03] نقل عن القفّال قوله: لما أخبر بالاستواء على العرش وأن أمر المخلوقات منوط بتدبيره ومشيئته أراهم ذلك عيانا فيما يشاهدونه؛ لينضم العيان إلى الخبر، وقدم ذكر الليل والنهار لما في تعاقبهما من المنافع الجليلة؛ فبهما تتم أمور الحياة، ثم وصف الحركة التي يحصلان منها بالسرعة والشدة فقال: ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾" [4]

فوصف هذه الحركة **بالطلب** تصويرٌ للتلازم الحاصل بين الليل والنّهار، وحلول الواحد منهما محل الآخر بصفة مستمرّة متواصلة، حتى لكأنّ الليل شخص عاقلٌ يطلب الشّيء بصفة مستمرّة مُتجدّدة لا ينقطع عن تحصيلها.

* * * * *

سورة يونس:

(1) حقائق علمية في القرآن: زغلول راغب النجار، دار المعرفة – بيروت، ط1: 1426هـ- 2005م، ص: 13

(2) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج3ص: 254

(3) المصدر نفسه، ج3ص: 253

(4) المصدر نفسه، ج3ص: 252.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١]

وإنّما قال ههنا " في الأرض ولا في السماء" خلاف ما في سورة سبأ وهو المعهود في القرآن لأنّ الكلام سيق لشهادته على شؤون أهل الأرض فناسب أن يقدّم ذكر ما في الأرض " [1]

* * * * *

سورة الرعد:

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢ – ٤]

وفي ذكر الفعل ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ بعد رفع السماء بغير عمد يدرج السيوطي مبحثًا تحت عنوان: " نفي الشيء بإيجابه" ونقل عن ابن رشيق قوله: أن يكون الكلام ظاهره إيجاب الشيء وباطنه نفيه، بأن ينفي ما هو من سببه كوصفه، وهو المنفي في الباطن، وعبارة غيره: أن يُنفى الشيء مُقيدا والمراد نفيه مطلقا، مبالغة في النفي وتأكيدًا له، ومنه: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]

(1) المصدر السابق: ج3 ص: 565.

فإنّ (الإله مع الله) لا يكون إلا عن غير برهان و﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٦١] فإنّ قتلهم لا يكون إلا بغير حق ﴿ رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ فإنها لا عمد لها أصلا " (1)

وفي قوله: ﴿ رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ لفتة علمية دقيقة، إذ أنّه لو قال: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ فحسب، كان نفياً مطلقاً للعمد، مرئية وغير مرئية، و من دقة التعبير أن يُقيّد الله نفي العمد من الخلق والرفع بقوله: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ والضمير في ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ يرجع أولاً إلى أقرب مذكور وهو (عمد) فيكون المعنى: (بغير عمد مرئية) أو (بعمد غير مرئية) أي من فطرتها وتكوينها ألا تُرى للنظر، والفعل المضارع في اللغة يشمل الحال والاستقبال أو هو الحال المستمر؛ لأن القرآن يخاطب به الناس في كل عصر " (2)

وإذا أُعيد إلى السماء كان المعنى أن السماء ترونها مخلوقة بغير عمد وتكون العمد ما يعهده الناس في أبنية الأرض، ونفيها بهذا المعنى عن السماء المرفوعة أيضاً أمر عجيب لا يقدر عليه إلا الله.

* * * * *

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥] جاءت هذه الآية في النحل بعبارة أخرى فقال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩] " لأنّه تقدّم ذكر ما خلق الله على العموم ولم يكن فيه ذكر الملائكة ولا الإنس بالصريح فعمّم ليشمل الإنس وصرح بالملائكة، وقال في الحج: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج: ١٨] بتكرار " مَن" لأنّه تقدم ذكر المؤمنين وسائر الأديان فقدّم ذكر ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ تعظيما لهم ولها، وذكر ﴿ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لأنّهم هم الذين تقدّم ذكرهم، وأمّا في هذه السورة (الرعد) فقد تقدّم ذكر العلويات من الرعد والبرق، ثم ذكر الملائكة وتسبيحهم، ثم انجرّ الكلام إلى ذكر الأصنام والكفار فبدأ في آية السجدة بذكر من في

(1) الإتقان في علوم القرآن، ص: 633.

(2) الإسلام في عصر العلم: محمّد أحمد الغمراوي، مطبعة السعادة، مصر، ط1: 1973م، ص: 317 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السموات والأرض وذكر الأرض تبعا ولم يذكر من فيها استخفافا بالكفرة وأصنافهم فتبين أنّه أورد كل آية بما لاق بمقامها " (1)

* * * * *

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١]

الخطاب في الآية موجه إلى أهل مكة والمعنى أن نأتي أرض الكفر ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئا فشيئا، حتى يتم الأمر بفتح مكة نفسها (2) فالنقص يبدأ بالأطراف "لأنّ طرف الشيء أضعف من قلبه ووسطه" (3).

والكناية في الآية تُصور معنى الغلبة والنصر على سبيل التمثيل بالصورة الحسية عبر عنها القرآن بنقصان الأرض من أطرافها، وهذا يمثل المعنى الظاهر القريب، أما المعنى المكنى عنه البعيد فهو يلتقي مع هذا المعنى من حيث إن النصر والغلبة للمسلمين والدمار والهلاك للكافرين، وقد أظهرت دلالة الكناية في الآية الكريمة عظمة الله سبحانه القوية التي تفعل فعلها في الأمم القوية حين تبطر وتتكبر فتنتقص من قوتها وثرائها (4) كما حل بقوم عاد وثمود وفرعون وغيرها من الأمم التي ملأت الأرض ظُلمًا وعُدوانًا.

وفي الآية تعريض بأهل مكة بزوالهم وانحسار أرضهم وفتحها من قبل المسلمين، وفي ذلك إشارة إلى عذاب آخر يصيب الكافرين من انحسار أرضهم بعدما كانت واسعة وتحول أرضهم إلى دويلات صغيرة لا قوة لها بعد أن كانت منيعة وعالية الشأن.

****

---

(1) ينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج4 ص: 150

(2) ينظر الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمّد بن أحمد القرطبي، ت : أحمد بن أحمد البردوني، دار الشعب – القاهرة، ط2:2137هـ . ج9، ص:219

(3) البرهان في علوم القرآن: ج3 ص: 115.

(4) ينظر: الكناية في القرآن الكريم: أحمد فتحي رمضان، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، إشراف: الدكتورة مناهل فليح، 1415هـ/1995م، ص: 314 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الحجر

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤ — ١٥]

قال الخليل : (ظل فلان نهاره صائماً، ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار، كما لا يقولون بات إلا بالليل...) (1) ومثل هذا قال ابن فارس وعلل ذلك بقوله: "لأنّ الشيء يخص به النهار، وذلك أن الشيء يكون له ظل نهاراً ولا يقال ظل يفعل كذا ليلاً، لأنّ الليل نفسه ظل " (2).

أما العروج: مِن عرّج البناء تَعْرِيجاً أي ميَّله فتعرج ... وانْعَرَج الشيء مال يَمْنَة ويَسْره وانَعَرج انعطف وعَرَّج النهرَ: أماله ... وعَرَج الشيءُ، فهو عريج: أي ارتفع وعلا...تَعْرُج الملائكة تصعد ... والمعارج المصاعد والدرج ... وقيل معارج الملائكة وهي مصاعدها التي تصعد فيها، وتعرج فيها ... " (3) .

وسُكّرت الأبصار أي: حُبِسَتْ عن النظر وحيَرتْ، وقال أبو عمرو بن العلاء: معناها غُطِّيَتْ وغشِّيتْ وقرأها الحسن مخففة، وفسرها سُحِرَت. التهذيب قرئ سُكِرت وسُكِّرت بالتخفيف والتشديد، ومعناها: أُغشيت وسُدت بالسِّحْر فيتخايل بأبصارنا ما ترى، وقال مجاهد: سُكّرت أبصارنا أي: سُدَّت، قال أبو عبيد: يذهب مجاهد إلى أنّ الأبصار غشيها ما منعها من النظر كما يمنع السَّكْرُ الماء من الجري ... وقال أبو عمرو بن العلاء: سُكّرت أبصارنا مأخوذ من السُكْر كأن العين لحقها ما يلحق شارب المسْكِرِ إذا سَكِرَ... " (4).

---

(1) العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، دار الهلال للنشر، بغداد 1981م، (ظل)، ج8 ص:148.

(2) معجم مقاييس اللغة: مادة ظل

(3) لسان العرب: محمد بن مكرم بن منصور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت. ط1، ج1 ص:321. عرج

(4) المصدر نفسه: سكر

وفي التعبير بلفظ (يعرجون) إشارة إلى أنّ حركة الأجسام في السماء حركة مائلة، ويرد الفعل (ظلّ) للدلالة على أنّ فعل العروج بالنهار لا بالليل، ولو أن اللهّ " فتح لهم بابا من السماء وعرجوا فيه نهاراً فإنهم سوف يواجهون ظلاما دامساً رغم وجود الشمس في كبد السماء " (5)

ورغم وجود تلك الشواهد الكونية، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها، ثم هم بعد ذلك يكابرون ويقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾ وأتوا بصيغة الحصر للدلالة على أنهم قد بتّوا القول في ذلك وكأنهم قالوا: وليس ذلك إلا تسكيراً للأبصار" (1)

والآيتان تشيران إلى عناد المشركين وتكبرهم عن قبول دعوة الحق والإذعان لها حتى لو رأوا معجزات وخوارق غير التي رأوا ويرونها على الأرض "فإنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا: هو شيء نتخيله لا حقيقة له

وقد جاءت السماء في سياق الآية منفردة غير مقترنة بالأرض فهؤلاء المشركون لا تقنعهم الدلائل والبراهين الشاخصة على الأرض التي تدل على صدق دعوة النبي وعلى توحيد الله ووحدانيته لذلك احتاجوا إلى أدلة أقوى وحجج أبلغ، فذكّرهم الله بمعجز خلقه أي: لو فتحت لهم أبواب من أي سماء لم يؤمنوا.

واستعمل التعبير القرآني الفعل (ظل) الذي يدل على الكون في النهار ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون، وقد أتى بأداة الحصر (إنما) ليدل على أنهم يبيتون القول بأنّ ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار وتعمية لها، وقد أضرب الكفار عن كلامهم قبل (بل) في قوله تعالى على لسانهم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾ تكثيراً منهم ومبالغة في تكذيب ما رأوه، لأنّ تسكير عيونهم لا يعني أن ما شاهدوه غير موجود في الحقيقة لأن العيب فيهم وليس في المرئي أي أنهم قد وقع السحر عليهم من محمّد وقد بينت هذه الآية أن هؤلاء الكفار غاية في الكفر والعناد حتى لو رأوا ملكوت السموات.

---

(5) البحر المحيط في التفسير: ج6 ص: 470

(1) التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي بقاء العكبري، ت: علي محمّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ج2 ص: 72.

****

سورة النّحل

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴾[النحل: ٦٥]

في التصريح بلفظ الجلالة تعظيم للخبر المذكور، فالله هو وحده من أنزل الماء من السماء، ولم يشاركه أحد في إنزال الماء، ومن عادة القرآن في التعبير أن يقترن نزول الماء بلفظ الجلالة مُفردًا أو بضمير الجمع الدال على العظمة، وفي تقديم لفظ الجلالة على الفعل "أنزل" تعظيم لقدرة الله، و تخصيص تفرده بالأمر، وخُصّت السماء بالذكر -مع أنّ جميع النّاس يعلمون أنّ السّماء هي موضع نزول المطر- للتذكير بتفرّد الله بهذه النّعمة التي تُمثّل مصدر الحياة لكل المخلوقات، واقترن إحياء الأرض بحرف الفاء للدلالة على سرعة وقوع الحدث، وذُكرت الأرض دون ذكر ما عليها لإفادة معنى العموم، لأنّ ما عليها من مخلوقات لا يكادُ يُحصى، ولولا الماء النّازل من السّماء لم يبقَ مجالٌ للحياة على ظهرها.

وجاء ضرب الخبر في الآية إنكاريًّا، لأنّه أكد الخبر بـ (إنّ) ولام الابتداء (لآية)؛ للدلالة على أن أمر الاهتداء إلى وحدانية الله من خلال آية إنزال الماء وإحياء الأرض، هو أمر لا يحتاج إلى كبير عناء، وجاء التعبير بـ "قوم" في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴾ للإشارة إلى أن المقصود هم مَن أصبح سماع التدبر صفتهم التي عليها يجتمعون، ولأجل هذه الصفة المشتركة استحقوا تسمية "قوم"، فهم ليسوا ممن سمعوا سماع تدبر مرة واحدة أو عدة مرات متفرقة، وفي غير ذلك لا يسمعون إلا سماع إعراض وإنكار، وهذا ما يفيده الفعل المضارع، من أن سماعهم متجدد متكرر، وليس سماع واقعة واحدة، وفي وصف القوم بالسمع تعريض بأهل الكفر، لأنّهم يرون آيات الله عيانًا ويستفيدون منها ثم يكفرونها.

ومع أنّ سياق الآية هو الحديث عن آيات الكون فقد خُتمت الآية بفعل السمع، ومُقتضى الظاهر أن تُختم بفعل الإبصار، وفي هذا ربط وثيقٌ بين آيات الله الكونية وآيات القرآن، فالمعتبر عند أصحاب

العقول الصحيحة هو أنّ سماع القرآن هو تذكيرٌ لهم وحثٌّ على النظر المستمر لآيات الكون والخَلق.

****

سورة طه:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾ [طه: ١ — ٤]

هذا موضع من المواضع التي قُدّم فيها ذكر الأرض على ذكر السماء، إعلامًا بالاعتناء والترفق بأهلها، ليملأها بالإيمان منهم تحقيقا لمقصود السورة، وتشريفا للمنزل عليه " (1) وفي وصف السموات بـ "العُلى" دليل على عظيم قدرة مَن يخلق مثلها في عُلوها وبُعد مُرتقاها، فالسماء الأولى التي فوقنا رغم سعة أفقها، وبُعد مداها فقد أطلق القرآن عليها صفة "الدنيا" فكيف بأمر السموات التي نعتها بـ "العلى" ؟

وجاء وصف السموات بـ "العلى" دون "العاليات" إذ ليست صفة العلى معدولة عن عالية لمجرد رعاية الفاصلة، وليست للمفاضلة بين أعلى وعالي، بل إنّ هناك سرًّا بيانيّا وهو أن القرآن اختار هذه المفردة بقصد المضي في العلو إلى النهاية القصوى بغير حدود ولا قيود" (2) .

واختيار الفاصلة في القرآن محكوم بقوانين المعنى والسياق ومقتضى الحال وخواتيم الآي وجو السورة وكل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى، بل مراعيا فيها إلى جانب ذلك كله عموم التعبير، وفواصله بحيث يدرك الإنسان أن القرآن اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أو شبيها بها في

---

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، توزيع مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط1: 1403هـ/1983م: ج12ص:268.

(2) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: عائشة عبد الرحمان –بنت الشاطئ– دار المعارف، مصر، 1391هـ–1971م، ص: 252.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة أخرى لسبب دعا إليه، وجمع بين ذلك ونسقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال حتى كأنها جاءت بصورة طبيعية غير مقصودة مع أنها في أعلى درجات الفن والصياغة [1] .

****

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٤]

جاء في هذا الموضع ذكر السماء بصيغة المفرد، وجاء في الفرقان بلفظ الجمع قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦]

والسبب في ذلك – والله أعلم- أنّ " السّماء أوسع من "السموات"، فهي تشملها وغيرها، فجاء في الأنبياء ذكر القول، وفي الفرقان بذكر السّر لأنّ القول أوسع من السر، فهو قد يكون سراً وقد يكون جهراً، فلمّا وسّع وقال ﴿ يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ وسّع وقال: ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ولما ضيّق وقال: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾ قال: ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [2]

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقوله في موضع آخر: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]

فجاء في آية آل عمران بجمع السموات، وفي آية الحديد بإفرادها، ولما ذكر في آية آل عمران لفظ السموات لم يأتِ بكاف التشبيه، لأن السماء أعم وأوسع من السموات، وجاء بكاف التشبيه ليشابه

(1) ينظر التعبير القرآني، ص: 211.

(2) ينظر التعبير القرآني، ص: 42-43

وفي نسق الآيتين ما يوضح ذلك فقد قال في آل عمران:﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران]

فذكر المتقين المنفقين في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس، وذكر في آية الحديد المؤمنين بالله ورسله، ولا شك أنّ المؤمنين أعم وأشمل من المتقين، والتقوى تشكّل دائرة صغيرة في مساحة الإيمان فهي أخص منها، فناسب ذِكر السماء في آية الحديد لأنّه ذَكر ما هو أوسع وأعم، بخلاف آية آل عمران حيث ذكر " المتقين" مع "السموات" لأنّه أقل وأخص.

ثم إنّ هناك فرقًا آخر هو قوله في آل عمران:﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ وقوله في الحديد:﴿ سَابِقُوٓاْ ﴾، لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها، وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها، وذكر فضله العظيم على عباده قال:﴿ سَابِقُوٓاْ ﴾وفي الآية الأخرى﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾؛ وذلك لأنّ كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان واحد تستدعي المسابقة لا مجرد المسارعة، فذكر في آية سورة الحديد (المسابقة) وهي تشمل المشاركة وزيادة ، وذكر (السماء) وهي تشمل السموات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسله، وهم يشملون المتقين وزيادة، وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة، فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ، والمسابقة فيها مسارعة وزيادة، كما أنّ السماء هي سموات وزيادة، فناسب كل مقام ما يليق به.

****

سورة الأنبياء:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ ﴾[الأنبياء: ٣٠ – ٣٤]

كثيرًا ما تقترن الآيات الكونية في أساليب القرآن بالاستفهام التقريري " ألم" ، " أولم" في مثل هذه الآية وفي آيات أخرى مع أنّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن: هل رأى الذين كفروا حدث الرتق والفتق ؟ وكيف كانت هذه الرؤية ؟ ومن هم الذين كفروا الذين تقصدهم الآية ؟ هل قبل النبوّة أم بعدها ؟

سياق الآيات الكريمة فيه حديث عن الذين قالوا ﴿ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ ﴾[الأنبياء: ٢٦] فآية الرتق والفتق لها علاقة بمضمون هذه الآية، فالرؤية – إذن- ليست مختصّة بمن هم بعد زمن النبوّة وحدهم، ومثل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴾[الفيل: ١] فكيف تكون الرؤية مع أنّ الحدث كان زمن ولادة النبي محمّدﷺ ؟ ويُفهم من هذا أنّه لم يرَ أحدٌ أحداث القصّة، فالتعبير إذن يفيد من الرؤية العلم والتذكير، وهو إشارة إلى أنّ الخبر متواتر، فكان العلم الحاصل به ضروريًّا مُساويًّا في القوة والجلاء للرؤية، فضلاً عن أنّ العلم الذي يخبر به الله ﷻ مُنّزل منزلة الخبر المشاهد، وإخباره أقوى وسائل العلم، وهو الرؤية العينيّة ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾[النساء: ٨٧] وقد ورد الخبر بأوثق أنواع التوكيد وهو مجيء النّفي مع الاستفهام ليفيد التّقرير بأبلغ أسلوب(1)

ويقترن فعل الرؤية في القرآن مع " أنّ" فيجعل المحسوس معقولا كما في هذه الآية، وهي في ذلك تلتقي مع سائر الأحرف المصدريّة؛ فإنّ من أهم وظائف الحرف المصدري أن يوقع الجملة موقع المفرد، ثم إنّ الحرف المصدري يجعل ما بعده في حكم المصدر، والمصدر معنى ذهني غير مُتشخّص فـ (أنّ) على هذا تجعل الأمر المعنوي ذهنيًّا، فثمّة فرقٌ بين قولك: أرى محمدًا واقفاً وأرى أنّ محمدًا واقف، فالأول موقف مُتشخّص ورأى بصريّة، والثاني موقف عقلي ورأى عقليّة، أي أرى أنّه فاعل ذلك وأحسبه " (2)

والآيات القرآنية في نحو ذلك متعددة مثل قوله تعالى:﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ [إبراهيم: ١٩]

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ ﴾ [الحج: ١٨] .

---

(1) الكشاف: ج4 ص: 286

(2) ينظر: معاني النّحو: صالح فاضل السامرائي، شركة العاتك – القاهرة، ج1 ص: 270

وفي قولـه تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ رؤيـة بالتفكر والتدبر والنظر العقلي، " فـ(أنّ) إذن تُحوّل المحسوس إلى معقول، والمتشخّص إلى ذهني [1]

والـذي يظهـر مـن الآيـة أنّ خلـق السـموات والأرض أسـبق زمنًـا مـن فتقهمـا، وفي قولـه تعـالى: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ دليل على وجود السموات والأرض، ولكنه وجود مختلف عن مرحلة ما بعد الفتق، ويستفاد هذا المعنى من ورود الفعل: ﴿ كَانَتَا ﴾ بمعنى أنّ هناك وجودًا سابقًا للسموات والأرض، ولكـن كيف كانتا ؟ القرآن يحدد هيئة كل منهما فيقول: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ والرتـق: هـو الالتئام، جاء في لسان العرب: " الرَّتْق إلحام الفتق وإصلاحه، رتقه يَرْتُقُه رتْقـاً فارتتقا أي: التأما ... والراتق: الملتئم من السحاب..." [5]. وهذه هي المرحلة الأولى لهيئة السموات والأرض.

ولكـن يرد على الآية سؤال مفاده: هل الالتئام كان بين مجموع السموات والأرض ؟ أم أنّ السـموات كانـت ملتصقة بعضـها ببعض قبل تسويتها سبع سموات، والأرض كانت ملتصقة قبل أن يخلق منها سبعًا ؟

وهـذا يعـني أنّ السـموات والأرض كانتا معًا في جرمٍ واحد ملتصـقتين متصلتين، ولم تحدد الآيـة حجـم الجرم، وإنّما حدّدت طبيعته (رتقًا) غير أنّ ذكر لفظ السموات يفيد ضآلة حجم الجرم إلى حد لا يمكن تصوّره، فالسموات كانت في **رحم** السماء الأولية (لم تُسوَّ بعد) وهذا يعني أنّ المدى الذي تسوّت إليه السماء الأولية فأصبحت سبع سموات هو مدى هائل، كما أنّ الحجم الذي كانت فيه السّماء الأولية والأرض ضئيل جدًّا، ذلك الحجم هو الذي أصبح السموات والأرض " [2]

ولعلّ هذا المعنى هو ما نظير قوله عز وجل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات: ٤٧] واتساع الشيء يعني أن حجمه كان أصغر ومساحته أضيق.

ويـدل مفهـوم الرتـق – أيضًـا– علـى أنّ الشـيء كـان بحالـة لا يمكـن الاستفادة منهـا، ومعنـى ذلـك أنّ السموات والأرض في حالة الرتق لم تكن مُهيّئةً لحياة الكائنات عليها، وما خُلقت الكائنات الحيّة إلاّ

---

(1) المصدر نفسه، ج1 ص: 270

(5) لسان العرب: مادة رتق

(2) السماء والسماوات في القرآن الكريم: عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي، موقع رحى الحرف، 1436هـ-2015م، ص 5.

بعد الفتق، ولعلّ هذا ما يُفسّره قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ فذكر الحياة بعد الفتق" [1]

أمّا المرحلة الثانية هي مرحلة فتق السموات والأرض، والفتق ضد الرتق، قال ابن فارس:" الفاء والتاء والقاف أصل يدل على فتحٍ في شيْ من ذلك فتقت الشيء فتقاً " [2]

وقال ابن منظور:" الفتق ضد الرتق فتقه فتقاً: شقّه والفتق الخلة من الغيم والجمع فتوق ... والفتق انشقاق ووقوع الحرب بين الجماعة وتصديع الكلمة ... والفتق الخصب، سمي بذلك لانشقاق الأرض بالنبات...قال الفراء:﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾قال فتقت السماء بالقطر والأرض بالنبات، وقال الزجّاج: فتق الله السماء فجعلها سبعاً وجعل الأرض سبع أرضين " [3]

وكلّ المعاني المذكورة يمكن أن تُستفادَ من الآية، وذكر أهل التفسير أمثلة كثيرة تدل على صحة الجمع بين المعاني التي يذكرها المفسرون، أو ترجيح بعضها على بعض بشرط عدم الخروج عن معاني الكلام العربي البليغ " [4]

وفي التعبير بلفظي: الرتق والفتق تصوير لهيئة السموات والأرض " فالشيء الممتلئ يتفتّق بما امتلأ به، حيث إنّه لشدة امتلائه يبدأ بالتشقق، وكان ما بداخله يحث له عن مدى أوسع، بعد أن ضاق به حال الأولى وكذلك السموات والأرض خلقهما الله وخلق ما فيهما، وكانتا رتقًا، وكان الجرم الذي هما فيه ممتلئ بهما وبالمخلوقات التي فيهما، ففتق الله ذلك الجرم، فأخذ ما كان فيه في التوسع والامتداد، فالله فتقهما بما امتلأ به من خلقٍ، وبعد الفتق بدأ كل جرم يكبر ويتسع، ويتباعد عن الأجرام الأخرى " [5]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) ينظر المرجع نفسه، ص: 57

(2) مقاييس اللغة: فتق.

(3) لسان العرب: فتق

(4) التحرير والتنوير، ج1 ص: 100.

(5) ينظر السماء والسموات، ص: 62

وجاءت الآيات في سياق الإنكار على بني إسرائيل قولهم في عيسى بن مريم ما لا يليق به، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴾وقال بعدها: ﴿ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٢٦ – ٣٠]

وفي مجيء آية الرتق والفتق بعد هذه الآيات إشارة إلى أنّ خلق السموات والأرض أعظم من خلق البشر، فكيف يصح للإنسان أن يكون إلها وهو أقل من هذه المخلوقات ؟ وفي وصفهما بالرتق يعني أنّهما كانتا في منتهى الضآلة والصّغر، وفي هذا حث للإنسان إلى النّظر في أصله وأصول المخلوقات الأخرى التي تفوقه عظمة، والبحث عمّا وراءها من القدرة والعلم والحكمة.

وجاء بعدها جعل الرواسي على الأرض، فجمعت الآيات بين الاستدلال على العظمة والتذكير بالنعمة، وفي اختيار لفظ " الرواسي" دون لفظ "الجبال" " لأنّ المقصود بالرواسي الثوابت وليس في لفظ الجبال ما يدل على ذلك، ولذا لا يستعمل لفظ الرواسي حين يذكر زوالها وذهابها يوم القيامة، لأنّها من الرسُو وهو الثبات بل يستعمل لفظ الجبال" (1)

إنّ القرآن –كما ذكرت- يقدم الألفاظ ويؤخرها حسب ما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام –مثلا- متدرجا حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا ... وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور، قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فقدم الليل لأنه أسبق من النهار، وذلك لأنّه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقدّم الشمس على القمر لأنّها قبله في الوجود ...ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور...قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] وذلك لأن الظلمة قبل النور " (2)

******

سورة الحج:

---

(1) على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 299

(2) التعبير القرآني، ص: 53-54

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ [الحج: 63] يُطرح سؤالٌ مفاده: ما سبب عطف المضارع في قوله " فتصبح" على الماضي " أنزل" ؟.

والجواب هو " أنّ النكتة في المضارع هي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان، كما تقول: أنعم عليَّ فُلان عام كذا وكذا، فأروح وأغدو شاكرا له، ولو قُلت: فغدوت ورحتُ لم يقع ذلك الموقع " [1]

والتعبير بالمضارع يفيد استحضار الهيأة التي اتصفت بها الأرض بعد نزول المطر، والماضي لا يُفيد دوام استحضارها، لأنّه يُفيد انقطاع الشيء " [2]

وفي رفع الفعل " تُصبحُ" دون نصبه فلأنّهُ ليس مُسبّبا عن الرؤية التي هي موضع الاستفهام، وإنّما هو مُسبّب الإنزال في قوله: ﴿أَنزَلَ﴾

وقال الزمخشري في الجواب عن هذا السؤال: " فإن قُلتَ فما لَه رفع ولم ينصَب جوابًا للاستفهام ؟ قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض، لأنّ معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنّصب إلى نفي الاخضرار. مثاله: أن تقول لصاحبك: ألم تراني [3] أنعمتُ عليكَ فتشكر، إن تنصبه فأنت نافٍ لشكره شاكٍ تفريطه، وإن رفعته فأنت مُثبت للشكر، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتّسم بالعلم في علم الإعراب " [4]

والآية تحتمل المعنيين من باب التوسع في المعنى.

وعدل في الآية عن لفظ الماضي ههنا إلى المضارع فقال: "فتصبح" ولم يقل فأصبحت عطفاً على "أنزل" وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم علي فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع" [5].

---

(1) أضواء البيان، ج5 ص: 809

(2) المصدر نفسه، ج5 ص: 809

(3) ألم تربي

(4) الكشاف، ج3 ص: 107

(5) ينظر المصدر نفسه، ج3 ص: 107

ويقرب من الالتفات نقل الكلام إلى غيره، وإنما يفعل ذلك إذا ابتلي العاقل بخصم جاهل متعصب فيجب أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة لأنه كلما كان خوضه معه أكثر كان بعده عن القبول أشد، فالوجه حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، وأن يؤخذ في كلام آخر أجنبي ويطنب فيه بحيث ينسى الأول فإذا اشتغل خاطره به أدرج له أثناء الكلام الأجنبي مقدمة تناسب ذلك المطلب الأول ليتمكن من انقياده.

ولذلك قال ابن الأثير " اعلم أنّ الفعل المستقبل إذا أتي به في حال الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأنّ الفعل المستقبل يوضّح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأنّ السامع يشاهدها " (1)

****

سورة لقمان:

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١ ﴾[لقمان: ١٠ – ١١]

لما كان بناء السماء مختلف عن بنيان الأرض ناسبه اختلاف العمد أيضًا، ومعنى العمد في اللغة: يقال: عمد الحائط يعمده عمداً: أي دعمه والعمود الذي تحامل الثقل عليه من فوق كالسقف يعمد بالأساطين المنصوبة، وعمد الشيء عمداً، أقامه ... وأعمد الشيء: جعل تحته عَمداً " (2)

وفي قوله ﴿ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ توسّع في المعنى، فيحتمل أن يعود الضمير على السموات، فيكون المعنى: أنّه خلق السموات بغير عمدٍ وها أنتم تروها كذلك، وإذا عاد الضمير على العمدِ فالجملة الفعلية ﴿ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ صفة لعمدٍ، يعني خلقها بغير عمدٍ مرئية، لها أعمدة لكن لا تُرى.

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين نصر الله بن الأثير، ت: محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1939م، ج2، ص: 145

(2) لسان العرب: عمد.

ومعنى: **بعمدٍ غير مرئيّة**: كقولنا دخل فلان بكتاب غير معروف، أي أنّ هناك كتابًا ولكنّه غير معروف، فيها إثباتٌ لوجود الكتاب ونفيٌ لكونه معروفًا، والمعنى: أنّ هناك أعمدة ولكن لا تُرى.

ومعنى **بغير عمدٍ مرئية** كقولنا: دخل فلانٌ بغير كتابٍ معروف، أي أنك تعرف كتبا ولكنّ فلانا دخل بكتابٍ غيرَها، فيه إثبات لوجود كتاب غير معروف، ونفيٌ لوجود كتابٍ معروف، فيكون معنى الكلام- ههنا- أنّ هناك عمدًا ولكن هي غير تلك التي يراها الإنسان، والتنكير في لفظ "عمدٍ" يفيد العموم، فكلّ عمد تراها العين أو تتصورها فالسماء مخلوقة بغير تلك العمد.

ولو اكتفى بقوله: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ لكان نصًّا صريحًا في نفي العمد، ومعنى ذلك أنّ هناك عمدًا لا نراها، وجاء لفظ الرؤية بصيغة المضارع ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ الدال على التجدّد والاستمرار ليُفيد أنّ الرؤية البشرية مهما تطورت وسائل العلم والمعرفة، وأدوات البحث والتقصي فلن تستطيع رؤية هذه العمد، والسبب أنّها دعامة لبناء السموات؛ فإن كان بمقدور الإنسان أن يُدرك هذا البناء — بناء السموات- فمن لوازم ذلك إدراك العمد التي يقوم عليها، وإذا كان بمقدوره أن يرى العمد فمن لوازم ذلك إدراك بناء السموات ورؤيته أيضًا، فيُفهم من الآية أنّها نفت رؤية العمد عن طريق التصريح ونفت إدراك البناء عن طريق التلميح. والله أعلى وأعلم.

وجاء في سورة لقمان: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ وفي سورة الرعد قال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[الرعد: ٢]

كل تعبير مناسب لمكانه لو نظرنا في الرعد نجد قبلها ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ الإنزال إنما يكون من فوق، أي من مكان مرتفع فناسب رفع السموات، وقال بعدها: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ العرش فوق السّموات إذن ناسب رفع السموات. ثم قال: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ وهي من الأجرام السماوية المرتفعة إذن يناسب رفع السموات. أما في لقمان فليس فيها شيء من ذلك بعد هذه الآية في لقمان قال: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الآية:11]

خلق الله مناسب لخلق السموات، إذن السياق في الرعد يناسبه رفع السموات والسياق في لقمان يناسبه خلق السموات فكلّ تعبير في مكانه " (1)

****

سورة سبأ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣]

وقال في سورة يونس: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[يونس: ٦١]

وردت فروق تعبيرية بين الآيتين:

آية سبأ: آية يونس:

﴿ لاَ يعزُبُ ﴾ ﴿ مَا يَعزُب ﴾

﴿ عَنه ﴾ ﴿ عَنْ ربّكَ ﴾

﴿ مثقال ذرة ﴾ ﴿ من مثقال ذرة ﴾

﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾

﴿ ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ ﴾(بالرفع) ﴿ ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ ﴾(بالنصب)

" أمّا النّفي بـ (لا) في سبأ فلأن الكلام على الساعة، والساعة استقبال فجاء بـ (لا) الدالة على الاستقبال في النفي، وأمّا النفي بـ (ما) في يونس فلأنّ الكلام على الحال، و (ما) مختصة بنفي الحال،

(1) ينظر على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 299

فجاء بكل حرف في الموضع الذي يليق به...وقال في آية سبأ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ ﴾وقال في آية يونس:﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ فجاء بالضمير في سبأ لأنّه تقدّم ذكر الرب عالم الغيب فيها فأعاد الضمير عليه، فقد قال: ﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ ﴾[يونس: 03] ولم يتقدم ذكر له في يونس فلذلك ذكره صريحا.

وأمّا زيادة (مِن) في آية يونس وعدم ذكرها في آية سبأ، فلأنّ سياق كل آية منهما يقتضي ذلك، وذلك أنّ الكلام في آية يونس على إحاطة علم الله بعلم الغيب وأنّه يعلم كل شيء، وبدأ الآية بقوله:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ ﴾[يونس: 61] أمّا في آية سبأ فالكلام على الساعة ابتداءً، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ ﴾ [يونس: 03] فجاء بعلم الغيب تبعًا للساعة، أمّا في آية يونس فالكلام ابتداءً على علم الغيب، ومقدار علم الله وإحاطته بكل شيء بحيث لا يندّ عنه شيء، فناسب ذلك زيادة (مِن) الاستغراقية المؤكدة التي تستغرق كل مذكور.

وأمّا تقديم السماوات على الأرض في آية سبأ ﴿ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [03] فلأن الكلام على الساعة وأمرها يأتي من السماء، وهي تبدأ بأهل السماء كما قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[الزمر: ٦٨]

...في حين قدّم الأرض على السماء في آية يونس لأنّ الكلام على أهل الأرض وذلك أنّه قال:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [الآية: 61] فناسب ذلك تقديم الأرض في آية يونس " (1)

(1) التعبير القرآني، ص: 257-258، وينظر: بدائع الفوائد، ج2 ص: 111

جاء في الكشاف: " فإن قلت: لِمَ قُدّمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الآية: 03] قلت: حق السماء أن تُقدّم على الأرض، ولكنّه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء " [1]

والسماء في القرآن تستعمل على معنيين، فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك: ٥] وقوله: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجر: ١٤ — ١٥]

وإمّا أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره، ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من (السماوات) لأنّها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع.

وقد وردت في آية يونس بهذا المعنى الشامل العام ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: ٦١] وهو المناسب للدلالة على سعة علم الله وإحاطته بالغيب واستغراق علمه لكل شيء، فهو أوسع من أن يكون في السماوات السبع وأعم، وناسب ذلك أيضا ذكر (مِن) الاستغراقيّة معها في هذه الآية " [2]

وقال في آية سبأ ﴿ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ بالرفع، وفي يونس: ﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ ﴾ بالنصب " فجاء في آية يونس بـ"لا" النافية للجنس الدالة على الاستغراق والتأكيد، ليناسب مقام إحاطة علم الله بالغيب واستغراقه لكل شيء، ويناسب الاستغراق الذي جاءت به (مِن) الاستغراقية والاستغراق الذي أفادته كلمة (السماء) لأنّ (لا) النافية للجنس تفيد الاستغراق كما هو

(1) الكشاف: ج2 ص: 79.

(2) التعبير القرآني: ص: 260

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

معلوم، وجاء في آية سبأ بـ (لا) النافية التي لا تنص على الاستغراق، وهي أقل توكيدا من (لا) النافية للجنس، لأنّ المقام لا يقتضيه والسياق ليس عليه، بل ذُكر علم الغيب فيه تبعا لذكر الساعة " (1)

****

سورة فصلت:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ
(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ
اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت: ٩ – ١٢]

والخلق " يكون بمعنى الإنشاء، وإبراز العين من العدم الصرف إلى الوجود، وهذا لا يكون إلا لله وقد يكون بمعنى التقدير والتصوير، ولذلك يسمى صانع الأديم ونحوه الخالق، لأنه يقدر " (2)

و الاستواء كان بعد خلق السماء وبعد خلق الأرض، فلم يقل رب العالمين (ثم خلق السماء) بل قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ فالسماء إذن مخلوقة وموجودة مع الأرض، ثم بعد ذلك جعل هذه السماء الواحدة سبع طبقات بعضها فوق بعض.

﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ لما خلق السموات والأرض كان هناك نداء من الله ﷻ لهذين المخلوقين السموات والأرض يعلنان طاعتهما لله ويقرّان بالطاعة والالتزام ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ خاطب تعالى الاثنين السموات والأرض على أنهما كيانان وهي غير عاقلة كان يمكن أن يقول ائتينَ لغير العاقل لكن لو قلنا

(1) المرجع نفسه: ص: 260

(2) البحر المحيط: ج2 ص: 465

هذا كأنه سيضفي عليهن صفة الاستقلال ولكن القرآن أراد أن يجمع السموات والأرض فقال﴿ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا ﴾ بمعنى أعلنا خضوعكما لله تعالى بم نظّم فيكما. كيف خوطبتا وكيف قالتا؟ هذا يدخل في مسألة التأويل والإيمان بهذه المساحة.

قال: ﴿ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ لم يقل طائعتين من الذي مطلوب منه الطاعة العاقل أو المجنون؟ العاقل طبعاً ولو قال طائعتين مثلاً معناه يرسّخ غير العاقل فيها (مؤنث غير حقيقي فهو غير عاقل) إئتيا تقال للعاقل ولغير العاقل: رجل وامرأة، امرأتان، رجلان تقول إئتيا، لكن لو قال: (طائعتين) كأنما يرسخان فكرة غير العاقل وهما خوطبتا بالعقل﴿ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا ﴾ ﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ بصيغة جمع المذكر السالم لأنه للعاقل. السماء والأرض مادتان أصلاً فيصنفها العربي من غير العاقل فلو قال طائعات يكون جمعاً لغير العاقل لأنهما غير عاقل لكن جمع المذكر السالم خاص بالعقلاء فقط والطاعة تستدعي العقل " ولم يقل طائعتين، لأنّه ذهب به إلى السماوات والأرض ومن فيهن، مجازه: أتينا بمن فينا طائعين، فلّما وصفهما بالقول أخرجهما في الجمع مجرى ما يعقل" (1)

وفي قوله تعالى فقال لها وللأرض أتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ففي هذه السورة " إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيته " (2)

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[ص: ١٧] ورد لفظ ﴿ ٱلۡأَيۡدِ ﴾ مرسومًا بياء واحدة، وورد اللفظ بـ" ياءين" في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات: ٤٧] ياء ساكنة لا تُنطق وياء ثانية تُنطق، الأيد في داوود واحدة، هي نفس الأيد ونفس النطق، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾ نفس النطق لكن فيها ياءين: ياء عليها سكون لا

(1) الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي: أبو اسحاق أحمد،ت: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، لبنان –بيروت– ط1: 1422هـ – 2002م ج8 ص: 287

(2) في ظلال القرآن: ج5 ص: 3114

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تُنطق، ذاك وُصف بها داوود ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ ﴾ وهذه وصفٌ لله ﷻ فأيد الله غير أيدي البشر فغيّر في الرسم وأضاف ياء أخرى، فأضاف الياء دلالة على أن القوة أكثر " (1)

* * * * *

سورة الدخان:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩]

الآية تشير إلى موقف السماء والأرض من العذاب الذي حل بفرعون وقومه، ومن عادة العرب في أساليبهم أنّهم إذا أرادوا تعظيم مَهلك رجل عظيم الشأن، رفيع المكان، عام النفع، كثير الصنائع، تقول: أظلمت الشمس له، وكسف القمر لفقده، وبكته الريح والبرق، والسماء والأرض(2) فإنّ الله لما أهلك فرعون وقومه لم يبك عليهم باكٍ ولم يجزع جازعٌ، وما وُجد لهم فقد؛ لأنّ الله كان غاضباً عليهم(3). وإذا جاز حمل الكلام على هذا المعنى، أمكن القول أنّ في الآية تشخيصًا لصورة السماء والأرض في هيئة إنسان محزون لفقد عزيز؛ فالسّماء والأرض تبكيان كما يبكي الإنسان ويحزن عندما يصيبه مكروه، فأصبحت السماء والأرض شخوصاً حيّة ناطقة تتفاعل مع الحدث.

وما قيل في أوجه بكاء السماء والأرض، أنّ التعبير القرآني يُصور هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس في هذه الأرض، وقد نزل بهم الهلاك فلم يأسَ على ذهابهم أحدٌ، ولم تشعر بهم سماءٌ ولا أرضٌ؛ ففي نفي بكاء السماء والأرض عليهم، ما يُصوّر هوان شأنهم؛ فالكون المنقاد لأمر الله بما

---

(1) ينظر: أسئلة بيانية في القرآن الكريم: صالح فاضل السامرائي، مكتبة الصحابة: الشارقة–الإمارات،ط1: 1429هـ- 2008م. ج1 ص: 163.

(2) ينظر تأويل مشكل القرآن، ص: 167.

(3) ينظر المصدر نفسه : 170.

فيه ومن فيه يمقتهم لانفصالهم عنه بكفرهم؛ وفي الصورة إيحاءٌ بهوانهم على الله وعلى هذا الوجود كلّه، لأنّهم مقطوعون عنه لا تربطهم به آصرة، بعد أن قطعوا آصرة الإيمان " (1)

وغير ممتنع أن يُحمل بكاء السموات والأرض على الحقيقة، لأنّ في القرآن مواضع شتى تبيّن نسبة أفعال البشر إلى غيرها من المخلوقات، فقدرة الله المطلقة لا يحدّها شيء، وأظهرت دلالة هذه الآية أنّ موت الكافرين غير مأسوف عليه، فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه، فهو مؤمن بربه وهم كافرون. وفي ذلك بيان لعظم قدر المؤمن عند الله (سبحانه وتعالى).

* * * * *

سورة الحديد:

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾[الحديد: ٤ – ٦]

قال: (يعلم ما يلج) ولم يقل: (ما يولج)، وقال: (ما يخرج) ولم يقل:(ما يُخرَج)، وقال: (ما ينزل) ولم يقل: (ما يُنزَل) وقال: (ما يعرج) ولم يقل: (ما يُعرَجُ) وهذا أدل على العلم، لأن الفرد في العادة يعلم ما يفعله هو ولكنه يجهل مالم يفعله هو، أما ربنا فقد أخبر عن نفسه أنّه يعلم ما يلج وما يخرج وما ينزل وما يعرج، وهذا أدل على العلم " (2)

وفي ترتيب جمل الآية " قدّم ما يلج في الأرض على ما يخرج منها، وقدّم ما ينزل من السماء على ما يعرج فيها، فقدّم ما ينزل وما يلج، وأخّر ما يخرج وما يعرج، ذلك أنّ كثيرا مما ينزل من السماء قد يلج

---

(1) ينظر الطبيعة في القرآن الكريم: كاصد ياسر الزيدي، دار الرشيد للنشر، العراق، المركز العربي للطباعة والنّشر، بيروت، 1980م، ص: 462.

(2) على طريق التفسير البياني، ج1 ص: 243

في الأرض ثم يخرج بعد ذلك من الأرض ما يخرج بسببه أو بغيره من الأسباب كالنباتات والينابيع وغيرها، فالولوج قد يكون سببا للخروج.

والذي يخرج من الأرض ومحيطها قد يعرج إلى السماء، فالذي ينزل من السماء قد يلج في الأرض، والذي يخرج من الأرض ومحيطها قد يعرج إلى السماء، وذلك أنّ قوله: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يحتمل معنيين، الأول: أنّه يخرج من داخلها كالنبات والحشرات وغير ذلك، والآخر أنّه يخرج من دائرتها ومحيطها، وبدأ بالأرض وأخّر السماء لأنّ السياق في الكلام على أهل الأرض وهو قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهي مَسكنهم" (1)

* * * * *

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الطلاق:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[الطلاق: ١٢]

تأكيد أنّ الأرض سبع متطابقة كما أن السموات سبع متطابقة " وفي كل سماء من سماواته وأرض من أرضه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه " (2)

فخلق الأرض يماثل خلق السموات، ففي كليهما خصائص دالة على عظيم قدرة الله تعالى، وفي إفراد لفظ الأرض دون جمعها كما جاء في لفظ السموات" إيذان بالاختلاف بين حاليهما " (3)

وفي ذكر خلق السموات والأرض- يؤكد القرآن على أنّ الخلق لله وحده وأن لا أحد شهد الخلق- لكن ما معنى أن نؤمر بالسير لفهم كيف بدأ الخلق، وبالمقابل نجد نفيا لشهود الخلق لحظة الخلق ؟

ومن أجل فهم ذلك لا بدّ من فهم معنى الأمر بالنظر في كيفية الخلق، فعندما يُشير القرآن إلى النظر في كيفية خلق الأشياء لا يقصد كيفية الخلق الخاص كفعل إلهي، بقدر ما يعني توجيهًا آخر منها معرفة

---

(1) المصدر نفسه: ج1 ص: 243.

(2) التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية –طهران، ط2، ج30 ص: 40

(3) التحرير والتنوير: ج29 ص: 340.

كيفية التركيب وحدوث الظاهرة والأمر يتعلّق بفهم قوانين وهيئات ومراحل الحدوث، وكلها ظواهر ماثلة أمام النظر العقلي وهذا معنى من معان تجلي آيات الله في الأنفس والآفاق.

****

سورة المرسلات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [المرسلات: ٢٥ – ٢٦]

وردت الآيتان في سياق وعيد المكذّبين بما سيلقونه من عذاب أليم، ثم لفت النظر إلى أصل خلق الإنسان وما كان عليه في أصل نشأته فقال: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المرسلات]

فجعل الله رحم الأم هو القرار الذي تستقر فيه النطفة إلى وقت معلوم قدّره رب العزة، وفي هذا القرار تتجلى قدرته ونعمته، حيث تتوفر ظروف النشأة وعوامل الحياة والقدرة على الحركة والتنفس إلى أن يكتمل نموه فيخرج للحياة في قرار آخر ورحم آخر إلى وقت معلوم أيضًا، فيأتي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ليبيّن القرار الذي يتهيأ للإنسان بعد نهاية أجله في الرحم الأول، وهو "الأرض" التي يستمد منها الإنسان حياته سواءً ما تعلق منها بصفات الأرض وخصائصها من كونها مهدًا وفراشًا وقرارًا ومهادًا...أو ما تخرجه من نبات له من غذاء، وما يجد عليها من ماء ... وإذ جعل الله الرحم الأولى تضم الجنين وتمده بعوامل الحياة، فقد كان للرحم الثاني الدور نفسه والخاصية نفسها، حيث جعله الله مهدًا للحياة وحضنًا لأجساد الخلق بعد الممات... وفي توظيف لفظ "كفاتًا" ما يُناسب هذا المعنى، لأنّ في الكفت معنى الضم

ولكن في الأرض خاصية أخرى ليست للرحم وهي أنها تضم ما عليها – أحياءً وأمواتًا– ولهذا السبب لم يكتف بذكر اللفظ "كفاتا" بل فسّر هذا الكفت بأنّه يجمع الكل، للتنبيه على أنّ الله لم يخلق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الوجود عبثا ولم يترك الإنسان سُدى في حياته أو حتى في موته؛ فهو باقٍ في هذه الأرض إلى وقتٍ معلوم.

ثم إنّ في الآية الكريمة إشارة إلى أنّ الأرض هي قرار الإنسان وليس له قرارٌ آخر – غير الأرض- يناسب خصائصه ووظيفته في الحياة، ونظير هذا المعنى قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥] وفي تقديم الجار والمجرور "فيها" و"منها" تخصيصٌ للأرض بهذه الصفة، فالإنسان يحيا فيها لا في غيرها، ويموت فيها لا في غيرها، ويخرج منها لا من غيرها... فكما أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش في رحمٍ آخر غير الرحم الذي استقر فيه، وتهيّأت له ظروف الحياة من خلاله؛ فهو كذلك لن يجد كوكبًا آخر- غير الأرض- يناسب صفاته وخصائصه ووظيفته في هذه الحياة.

****

سورة النازعات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا
﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾[النازعات: ٢٧ – ٣٣]

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جاء في هذه الآية ذكر ما يتعلق ببناء السماء، وذكر دحو الأرض بعد تسوية السماء، ولا يعني هذا أنّ خلق السماء مُقدّم على خلق الأرض، لأنّ معنى الخلق غير معنى الدحو، ويمكن أن نفهم من الآية أنّ الدحو مرحلة تصف هيئة الأرض وهي في مرحلة تشكّلها، وذكر ابن فارس أنّ " الدال والحاء والواو أصلٌ واحد يدل على بَسْطٍ وتمهيد، يقال: دحا الله الأرضَ يدحُوها دَحْواً، إذا بَسَطَها، ويقال: دحا المطُر الحصى عن وجه الأرض، وهذا لأنّه إذا كان كذا فقد مهّد الأرض...ومن الباب أُدْحِي النَّعام: الموضع الذي يُفَرَّخ فيه، أُفْعولٌ مِن دحوت، لأنّه يَدْحُوه برجله ثم يبيض فيه، وليس للنعامة عُشٌّ " (1)

وأما قوله: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ يقول: جعل فيها جبلا، وجعل فيها نهرا، وجعل فيها شجرا، وجعل فيها بحورا " (2)

وقد ورد في القرآن مواضع ذكر فيها هيئة الأرض بألفاظ أخرى مثل: سُطحت، مددناها، طحاها، فرشناها، ومهدها، بساطا ... والقرآن لا يورد الألفاظ المتقاربة المعاني لمجرد التنويع أو التفنّن في الخطاب بل لكل تسمية معنى يطلبه نسق السورة وسياقها العام.

والدحو من معانيه مبيض النعام في الرمل، وليس بيض النّعام، وَمن فهِم من الآية أنّ الأرض كروية الشكل استند إلى أنّ معنى الدحية هو البيضة، وهذا ما لم يرد في معاجم اللغة، بل ورد في القرآن ما يعضد القول الأول وهو قوله تعالى:.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[الزخرف: ١٠]

والمهد فيه توطئة تتناسب مع شكل مبيض النّعام في الرمل، ولكن هذه التوطئة الحاصلة في شكل الأرض جعلها الله في منتهى الصنع والإحكام، ووصفها في موضع آخر فقال: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨] ووصفت الأرض بصيغة الفعل ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾ [ق: ٧] للدلالة على أنّها كانت جوهرا في منتهى الصغر والضآلة، ثم أخذت في التمدد إلى أن صارت على ما هي عليه.

(1) مقاييس اللغة: دحو

(2) الإتقان في علوم القرآن، ص: 534-535

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا ﴾ [نوح: ١٩] يعني أنّها استقرت على هذه الهيئة، فناسب ورود الفعل قبلها "جعل" الذي يدل على معنى التحول من حالة إلى أخرى.

وصف القرآن الأرض بما استقرّت عليه في هيئتها النهائية بجملة من الأوصاف مثل كونها: فراشًا وبساطاً وقرارًا ومهدًا، وكونها فراشًا لأنّها ما عليها يُفرش ويُطوى باستمرار، وكونها بساطًا بمعنى أنها الأصلح للنوع البشري، ولو كانت مقبوضة ما تحقق ما هو مطلوب، وجعلها قرارًا بمعنى أنّها هي الأنسب للنوع البشري وفيها مستقره ولا يمكن أن يحيا خارجها قال تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [البقرة: ٣٦]

وكل المواضع التي جاء الحديث فيها عن كون الأرض فراشا ومهادا وبساطا وقرارا... هي في سياق النّعمة والتفضّل على العباد، وجاء الحديث عنها مسبوقًا بالفعل "جعل" للدلالة على الهيئة التي استقرّت عليها الأرض وصارت صالحة لحياة الأنام عليها.

أما في حديث القرآن عن دحو الأرض ومدها فقد جاءت في مقام الاستدلال على عظمة الخالق في خلقه، فلم يسبقها الفعل جعل، وهذا يدل على أنّ دحو الأرض هي مرحلة من مراحل خلق الأرض ولذلك تقترن هذه المعاني بمعانٍ أخرى مثل: إرساء الجبال، وذكر الأنهار ...وغيرها.

وجاءت الحركة الإعرابية للفظي الأرض، والجبال بالنصب في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴾ [النازعات] لأنها في سياق الإخبار عن الله لا عن الأرض والجبال و" من الواضح أن المتحدَّث عنه في نحو قولك: (محمدٌ أكرمته) هو مُحَّد، وفي (محمدًا أكرمتُه) هو المتكلّم، وكذلك في نحو قولك: (زيدٌ سلّمت عليه) الإخبار فيه عن زيد، وفي: (زيدًا سلّمتُ عليه) الإخبار عن المتكلّم " [1]

فالفرق واضح بين باب المبتدأ وباب الاشتغال، فالمبتدأ في الكلام هو المتحدَّث عنه، أمّا في باب الاشتغال يُقدَّم المشغول عنه للحديث عنه بصورة ثانويّة وهو ليس بمنزلة المبتدأ، ونحو هذا المعنى قوله

([1]) ينظر: معاني النحو، ج2 ص: 113

تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ [الحجر: ١٩] بالنصب، وسياق الآية كلام عن الله الذي جعل في السماء بروجًا وزيّنها، ومدّ الأرض وألقى فيها رواسي ...

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحجر]

" فالكلام – كما ترى– على الله تعالى لا على الأرض، ولكن قدّم الأرض للاهتمام بها من بين ما ذكر، والحديث عنها من بين ما عدّد فقال: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾ فإنه وإن كان الكلام في الأصل يدور على الله تعالى، وقدرته، خص الأرض بالاهتمام فقدمها، والكلام فيها قبل وبعد على الله تعالى، ولو رفع الأرض لكان الحديث يدور عنها والاسناد إليها، ونظير هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥]

فإنه نصب (الأنعام) ولم يرفعها، والسياق يوضح سبب ذلك، قال تعالى:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٧ – ٨] والحبك فيه توسّع في المعنى، وأورد مُحَمَّد الأمين الشنقيطي أقوالاً في معناه فقال: " ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنّ الحبك جمع حبيكة أو حِباك وعليه فالمعنى: ﴿ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴾ أي ذات الطرائق فيما يبدو على سطح الماء السّاخن أو الرّمل من الطرائق إذا ضربتْهُ الرّيح هو الحبك، وهو جمع حبيكة أو حباك، قالوا: ولبُعد السّماء لا ترى طرائقها المعبّر عنها بالحبك، وقال بعض أهل العلم ذات الحبك أي: ذات الخَلق الحسن المحكم، وهذا الوجه يدُلّ عليه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك: ٣ – ٤] وعلى هذا القول فالحبك مصدر لأنّ كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه، تقول فيه العرب: حبكه حبْكًا بالفتح على القياس، والحُبُك –بالضّمتين– بمعناه، وقال بعض العلماء: ﴿ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴾ أي ذات الشّدة، وهذا القول يدُلّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ ﴾ [النبأ: ١٢]

والعرب تسمّي شدّة الخَلق حبكًا، وفيه قيلَ للفرس الشديد الخَلق: محبوك، والآية تشمل الجميع فكل الأقوال حقٌّ " (1)

****

سورة الذاريات

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾[الذاريات: ٤٨]

و (موسعون) اسم فاعل لفعل (أوسع) ويعني عرض وجعل الشيء شاسعاً وأكثر رحابة (2).

ويمكن الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال الضوابط اللغوية لهذه الآية فكلمة (السماء) جاءت بصيغة المفرد وكما أشرنا إلى أن السماء في العلم وكما فسرها محمد عبده هو كل ما علاك لذا فهي تشمل النجوم والكواكب والمجرات والطبقات، لأن السماء إذا جاءت بصيغة المفرد دلت على معنى عام، وقوله تعالى : (بأيدٍ) ذكر ابن عاشور أنّ معنى الأيد: القوة، وأصله جمع يد، ثم كثر إطلاقه حتى صار اسما للقوة والمعنى بنيناها بقدرة لا يقدر أحد مثلها (3).

وتقديم (السماء) على عامله للاهتمام به، ثم بسلوك طريقه الاشتغال زاده تقوية ليتعلق المفعول بفعله مرتين : مرة بنفسه ومره بضميره، وبناء اسم الفاعل في هذه الجملة الاسمية يدل على الاستمرار في توسع الكون، مما يدل على دقة استعمال القرآن الكريم لبناء اسم الفاعل.

ومَن فسر لموسعون بالسعة المكانية ففيه تتميم أيضاً، لذا " ابتدئ بخلق السماء لأن السماء أعظم مخلوق يشاهده الناس، وعطف عليه خلق الأرض؛ عطف الشيء على مخالفة في الجامع الخيالي، وعطف عليها خلق أجناس الحيوان؛ لأنها قريبة للأنظار لا يكلف النظر فيها والتدبر في أحوالها ما يرهق الأذهان(4)

(1) أضواء البيان، ج7، ص: 703

(2) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم- دراسة في الكتب المقدسة: موريس بوكاي، دار المعارف – مصر، 1979م، ص: 192.

(3) التحرير والتنوير، ج 27 ص: 16.

(4) المصدر السابق، ج 27 ص: 15 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الآيتان جاءتا في معرض الحديث عن الأمم المكذبة قوم إبراهيم، وفرعون وقومه، وعاد، وثمود، وقوم نوح، ومعنى قوله "بأيد أي بقوة وقدرة" [(1)] ، والأيد هو القوة الشديدة يقال: أدته أُئيده أيدًا نحو بعته أبيعه بيعا، وأيدته على التكثير، ومنه قيل للأمر العظيم مؤيد [(2)].

وأَوَّلُ ما يلفت النظر في هذه الآيات الكريمة، ويدعو إلى التفكر والتدبر مجيئُها على هذا الترتيب البديع: بناء السماء بقوة، والتوسُّع المستمر في بنائها أولاً، ثم فرش الأرض، وتمهيدها لساكنيها ثانيًا، ثم خلق الزوجية من كل شيء ثالثًا، ولما كان الغرض هو الإخبار عن قدرة الله تعالى قدّم ما هو أقوى في الخلق؛ وما كان أقوى في الخلق، كان أقوى في الدلالة، وأظهر في الإفادة.. ومعلوم أن الله تعالى خلق السماوات والأرض، ثم خلق بعدهما جميع المخلوقات، وما خُلِق ابتداءً، كان خَلْقُهُ أشدَّ.

وقد تحقق الاقتران بين السماء والأرض هنا في آيتين وهو اقتران بعيد موجه لإقامة الحجة على الكافرين ، فقد انتقل السياق القرآني من ذكر العالم العلوي (السماء) إلى ذكر العالم السفلي (الأرض) وجعلها كالفراش؛ ليتمكن الإنسان من العيش فيها والاستقرار عليها، وقد ختم السياق القرآني الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فالآية فيها إشارة إلى توسع الكون كما هو ظاهر من كلام ابن كثير ، فضلا عن دلالة معنى اسم الفاعل (موسع) الذي يفيد معنى الاستمرار في هذه الحالة وكأنه في حالة توسع مستمر وازدياد على الدوام.

وقد اسند البناء ، والاتساع، والفرش، والتمهيد إلى ضمير العظمة الدال على الذات الإلهية للتدليل على عظمة هذا العمل وشدته.

والمراد بذكر السماء وبنائها وتمهيد الأرض وبسطها بعد ذكر الأقوام المكذبة السابقة التعريض بأهل الكفر ومن وقف معهم ضد دعوة النبي مُحَمَّد ﷺ وتهديد لهم بالأخذ بالمثل؛ وهذه واحدة من المسلمات التي يظهرها القرآن حوا عناصر الكون حيث إنّه:

1-لا يمكن أن يكون الكون قد نشأ عن طريق الصدفة، ذلك لأن جميع عناصره تعمل وفق نُظم محكمة، وعناية في الدقة والتنظيم، وتقع قوانينها خارج نطاق العقل البشري المحدود.

---

(1) تفسير غريب القرآن: أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. دار إحياء الكتب العربية-القاهرة، 1378هـ-1958م ص: 422.

(2) المفردات في غريب القرآن: أيد.

2- إنه لا يوجد تناقض بين مجالات عناصر الكون المختلفة، بل إن الكون بكل ما فيه هو عبارة عن منظومة منسجمة فيما بينها ذاتيًّا.

3- إنّ مادة الكون نفسها هي كل أرجائه وعلى كل امتداده في الزمان والمكان، وإنّ ترابطًا وثيقًا بين المادة التي تتألّف من جسيمات متناهية في صغر حجمها، وتطوّر الكون المستمر في الاتساع واللامتناهي في كبر حجمه " (1)

****

سورة الرحمان

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن: ٣٣]

الالتفات في قوله: ﴿ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ بصيغة الجمع إلى التثنية في قوله: ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٥]

قال الرازي: كيف ثنى الضمير في قوله: "عليكما " مع أنه جمع قبله بقوله "إن استطعتم" والخطاب مع الطائفتين وقال: "فلا تنتصران" وقال من قبل: "لا تنفذون إلا بسلطان" تقول فيه لطيفة وهي أن قوله: "إن استطعتم" لبيان عجزهم وعظمة ملك الله فقال: إن استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا ولا تستطيعون لعجزكم فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم ببعض فهو عند افتراقكم أظهر، فهم خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام إلى جميع من عداه من الأعوان والإخوان، وأمّا قوله تعالى: ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا ﴾ فهو لبيان الإرسال على النوعين لا على كل واحد منهما لأن جميع الإنس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ولا يخرج أحد

(1) الروابط الموضوعية بين الأهلّة والمواقيت: عبد الله محمد عبد الله، ندوة الأهلة والمواقيت والتقنيات الفلكيّة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1989م، ص: 02-03.

من الأقطار أصلاً، وهذا يتأيد بما ذكرنا أنه قال: لا فرار لكم قبل الوقوع ولا خلاص لكم عند الوقوع لكن عدم الفرار وعدم الخلاص ليس بعام.

والجواب الثاني: من حيث اللفظ وهو أن الخطاب مع المعشر فقوله﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ أيها المعشر وقوله: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ ليس خطاباً مع النداء بل هو خطاب مع الحاضرين وهما نوعان وليس الكلام مذكوراً بحرف واو العطف حتى يكون النوعان مناديين في الأول وعند عدم التصريح بالنداء فالتنبيه أولى كقوله تعالى:﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وهذا يتأيد بقوله:﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ وحيث صرح بالنداء جمع الضمير، وقال بعد ذلك:﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث لم يصرح بالنداء [1].

ومعنى النفاذ في اللغة هو الجواز: جوازُ الشيء والخلوصُ منه، تقول: نَفَذْت أي جُزت، وقد نَفَذَ ينفُذُ نَفَاذاً ونُفُوذاً...ونَفَذَ السَّهمُ الرَّمِيَّة ونَفَذَ فيها يَنْفذها نَفْذاً ونَفَاذا :خالط جوفها ثم خرج طرفُه من الشق الآخر وسائره فيه " [2] أما القطر قال الخليل: "وأقطار الجبل أعاليه " [3] وقد ذكر ابن منظور حديث عائشة تصف أباها رضي الله عنهما قالت: " (قد جمع حاشِيَتيْه وضَمَّ قُطْرَيْه) أي: جمع جانبه عن الانتشار والتَّبدُّدِ والتَّفَرُّق، والله أعلم " [4]

في قوله تعالى: ﴿ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ ذكر ابن منظور تفسيرا لذلك فقال: " حيثما كنتم شاهَدْتُم حُجَّةً لله تعالى سُلطاناً يدل على أنه واحد... والسَّلْطان والسُلُطان قدرة الملك... والنون في السلطان زائدة لأن أصل بنائه سليط [4] والشواظ في اللغة بضم الشين وكسرها اللَّهَبُ الذي لا دخان له كما ذكر أغلب أهل المعاجم [5]

ولما كان أمر التحدي بالنفاذ من الأمور المستحيلة على قدرة البشر، علم أن أمر النفاذ منها لا يتم إلا بسلطان من الله له قدرة على قهر هذه النواميس وخرقها، وهو تماماً في هذا المقام من التحدي كقوله سبحانه: ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ في تحدي الإنس والجن أن يأتوا سورة من مثل القرآن في قوله تعالى:

---

(1) التفسير الكبير، ج29، ص: 100-101.

(2) لسان العرب: نفذ

(7) المصدر السابق: سلط

(8) ينظر مقاييس اللغة، و لسان العرب: شوظ

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣] ولولا هذه الكلمة التي استدرك بها إمكانية النفاذ من أقطار السماوات، لتعذر بدونها تصديق النبيﷺ في معراجه الذي تجاوز فيه السبع الطباق، وكان السلطان الذي أعده الله له بعد الإسراء على البراق هو المعروف بالمعراج بالهيئة التي وصفته كتب السنة والسيرة .ولحصل الخلاف في كلام الله في الآيات التي تحدثت عن معراجه كذلك "[3]

وقد أقسم الله سبحانه بالسماء دون أن تقترن بالأرض في ثلاثة مواضع هي قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾[الذاريات: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [البروج: ١]، وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ ﴾[الطارق] واقسم بهما مجتمعتين مقترنتين في موضعين هما قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾[الطارق] وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ ﴾[الشمس] فلم يقسم بالأرض في القرآن إلا والسماء معها مقدمة ومفردة، ولم يقسم بالسموات أبدا؛ لأنه أراد السماء مطلقة ولم يرد التنصيص على سماء معينة.

وجميع الآيات التي ورد فيها القسم بالسماء والأرض مكية، وهذا يأتي من طبيعة السور المكية التي عالجت أصول العقيدة فكانت تخبر عن هذه الأصول بالتوكيد بالقسم لإقامة الحجة على كفار مكة وإقناعهم بصدق القرآن، وصدق دعوة النبي مُحَمَّد، وجاء القسم بالسماء منفردة في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ ﴾[الذاريات: ٧ – ٨]

وفي معنى الحبك قال ابن فارس: "الحاء والباء والكاف أصل يدل على إحكام الشيء في امتداد واطراد"[1]

---

(3) الإعجاز العلمي للقرآن بين الظن والتحقيق: عبد الجليل عبد الرحيم، بحوث المؤتمر الأول للإعجاز، بغداد1990م، ص: 242 – 243.

(1) مقاييس اللغة : حبك.

فالآية الكريمة تشير من خلال سياقها إلى ضخامة هذه الطرائق وامتدادها وعظمها فإنها جاءت صفة للسماء، وهناك دلالة أخرى في هذا السياق وهي الإشارة إلى القوة والقدرة الربانية في إحكام سير الأجرام السماوية ومجاريها ، فالقسم إذن هو بالسماء ذات الطرائق الشديدة الإحكام والبنيان المتقن.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ وهو المقسم عليه، والخطاب موجه للكافرين الذين يتخبطون في تقولاتهم على القرآن وعلى النبي وهو تبكيت لهم ، لأنهم لما كذبوا القرآن وهو الحق اختلفت أقوالهم وأفكارهم، أمّا الحق فهو شيء واحد وطريق مستقيم واحد فمن عدل عنه واختلف، اختلفت به الطرق والمذاهب [1] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾ [البروج: ١ – ٤]

سميت بروجا؛ لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها، وهي من عظيم آياته سبحانه؛ ولهذا أقسم بها[2] .

أقسم القرآن أولا بالسماء ثم باليوم الموعود وهو يوم القيامة ثم بالشاهد والمشهود في ذلك اليوم، وقد تضمن هذا القسم ثلاثة عوالم على اختلاف أصنافها فقد اقسم سبحانه أولا بما فيه غيب وشهود وهي السماء ذات البروج ، فان كواكبها مشهود نورها ، ومرئي ضوؤها، وتعرف حركاتها وطلوعها ومغيبها بالبصر ولكن فيها غيب لا نعرفه بالحس وهو حقيقة الكواكب وما أُودع فيها من القوى، كل ذلك غيب لا ندركه وان وصل العلم إلى معرفة جزء من أسراره، ثم اقسم بما هو غيب تام وهو اليوم الموعود؛ لأنه اخبرنا بقيامه وحدوثه وما فيه من أهوال وأحداث، ولكن لا شيء من ذلك يمكن ان نشاهده في حياتنا، ثم اقسم بما هو شهادة صرف وهو الشاهد أي صاحب الحس، فانه مرئي والمشهود هو ما وقع عليه الحس ، فمن الانتقال البديع بالقسم بهذه العوالم كلها نبه القرآن إلى ما فيها من العظم[3] "فالمقسم

(1) ينظر : التبيان في اقسام القرآن، ص:288 .

(2) ينظر المصدر نفسه، ص : 59.

(3) ينظر الطبيعة في القرآن: ص: 501

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عليه يراد من القسم توكيده وتحقيقه فلابد أن يكون مما يحس فيه ذلك كالأمور الغائبة والحقيقة اذا اقسم على ثبوتها " [1]

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾[الطارق: ١ — ٣]

وأطلق الطارق على كل من يأتي بالليل طارقا لحاجته إلى دق الباب[2]وطرق القوم يطرقهم طرقا وطروقًا جاءهم ليلا [3]

ولفظة (الطارق) في الآية الكريمة يراد بها جنس من النجوم وقد جمع بين دلالة ظهور النجم وطرق المسافر بيتا لأنهما يحدثان في الليل، وكانت عادة العرب أن النازل بالحي ليلا يطرق شيئا من حجر أو وتد إشعارا لرب البيت لضيافته، فالطارق هو الضارب، ثم تطور معناه الدلالي فأصبح يطلق على كل ما يظهر في الليل (كالنجم)، وقد قرن القرآن في هذا القسم بين السماء والطارق؛ لأنه يسير فيها.

جاءت في الآية أسلوب الإثبات بعد الإبهام في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾ في بيان عظمة هذا النجم، فإنه لما كان الطارق يطلق على غير النجم أبهمهُ أولاً ثم أضفى على المقسم به تعظيما وتبجيلا بقوله:﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾ والمخاطب النبي مُحَمَّد ﷺ، أي ما عرفك (ما الطارق)، ثم زاده تهويلا بتفسيره بعد إبهامه مرة أخرى بقوله:﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾أي المتوهج العالي المضيء كأنه في قوته يثقب الأفلاك فتنشق عنه وتنزوي [4] .

فقد اكتسب دلالة أخرى بمجاورته للقسم بالسماء، وفي الآية توجيه إلى التفكر في عظمة مخلوقات الله وبالتالي معرفة عظمة خالقها، فقد أكد القرآن على الظواهر الكونية المحسوسة والمشاهدة والمدركة من خلال توجيه الفكر لإدراك الإنسان مزايا نفسه ومزايا الكون من خلال هذه الآيات الدالة على وحدانيته وتفرده بالخلق والإيجاد.

(1) التبيان في أقسام القرآن، ص: 2.

(2) ينظر التبيان في أقسام القرآن، ص:100 .

(3) لسان العرب: طرق.

(4) ينظر روح المعاني: ج 29 ص: 371.

وجاء القسم بالسماء والأرض مجتمعين في قوله تعالى:﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٥ – ٦] والقسم تعظيم للمقسم به، واستحقاقه للتعظيم من حيث بنى وأظهر هذا الخلق العظيم الذي هو السّماء، ومن حيث سوّاها بقدرته، وزيّنها بحكمته، فاستحقّ التعظيم وثبتت قدرتهن فلو قال: " ومن بناها" لم يكن في اللفظ دليل على استحقاقه للقسم به، من حيث اقتدر على بنائها، ولكان المعنى مقصورًا على ذاته ونفسه دون الإيماء إلى أفعاله الدّالة على عظمته، المنبئة عن حكمته، المفصحة باستحقاقه للتعظيم من خليقته " (1)

وحذف جواب القسم يقع في مواضع التفخيم والتعظيم، ويجوز حذفه لعلم المخاطب به، وإنما يحذف لقصد المبالغة؛ لان السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب، ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح عنه، فلا يكون له ذلك الوقع ، ومن ثم لا يحسن تقدير الجواب مخصوصا إلا بعد العلم بالسياق(2).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ ﴾ [الطارق: ١١ – ١٢]

الآيتان الكريمتان في معرض القسم بالسماء والأرض، والمقسم عليه هو القرآن الكريم، ووظف القسم للاستدلال على صدقه، ومعنى (ذات الرجع) أي ترجع بالدوران إلى الموضع الذي تتحرك عنه فترجع الأحوال التي كانت وتصرمت من الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب، والفصول من الشتاء وما فيه من برد ومطر، والصيف وما فيه من حر وصفاء وسكون، وقيل ذات الملائكة؛ لرجوعهم فيها بأعمال العباد، وقيل ذات المطر لعودة كل حين، وقيل ذات السحاب لأنها تحمل الماء ثم ترجعه إلى الأرض(3)

والظاهر أن معنى الرجع في الآية لا يعني المطر وحده، فالرجع "إعطاء الخير الذي يكون من جهة السماء حالا بعد حال على مرور الأزمان، ولما كان الخير المشهود بالعيان هو المطر فسر الرجع به وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات" (4) فالمطر يرجع أيضا للناس حالا بعد حال من الله

(1) بدائع الفوائد، ج2 ص: 233

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج3 ص: 183.

(3) ينظر : الكشاف :ج 4 ص: 242.

(4) التبيان في أقسام القرآن، ص: 107 .

سبحانه، وفسر الصدع بالنبات لأنه يصدع الأرض أي يشقها فاقسم سبحانه بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، لبيان قدرة الله وعظمته بتعاون السماء والأرض في عملية الإنبات.

* * * * *

الآيات القرآنيّة تؤكد أن عملية خلق السموات والأرض أمر غير مشهود للإنسان غائبٌ عن مجال إدراكه، ولكن الله ﷻ " قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسيّة ما يمكن أن يُعين الإنسان – بإمكانياته المحدودة – على الوصول إلى تصوّر ما لعمليّة الخلق، إلاّ أنّ هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى معالم الحقيقة أبدًا، لأنّ الحقيقة العلميّة لا بد وأن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه- على الرغم من محدودية ذلك- ومن هنا فإنّ العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق مرحلة التنظير أبدًا، ولذلك تتعدّد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها...وفي هذا الخضم يبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات [1]

- إنّ حديث القرآن عن الآيات الكونية مُخالف لما اعتاده البشر في منهجهم العلمي، فقد درج البشر في بحوثهم العلمية على اختيار موضوع من موضوعات المعرفة وتحديد الأطر والمجالات التي تحكمه واختيار المنهج المناسب لذلك، بخلاف عرض القرآن وتناوله لشتى صنوف العلم والمعرفة فمنهجه مختلف إذ نجد الحديث عن آية كونية مُحاط بالحديث عن آيات أُخر يختلف مضمونها تمام الاختلاف، ما يبعث على التساؤل حول وجه المناسبة في الجمع بين هذه الآيات وجدوى تجاورهما ضمن نسق واحد.

– عرض القرآن لآيات الكون لم يرد بشكل تفصيلي، بل بشكلٍ مُجملٍ يتناسب مع الغايات والمقاصد التي جاءت من أجلها، وإيجاد مساحة للعقل البشري للنظر المستمر والبحث والمتواصل وفق ما هو متاح من أدوات ومناهج معرفيّة.

(1) حقائق علمية في القرآن، ص: 13

– لا يمكن دراسة الآيات الكونية في القرآن خارج نسقها العام داخل السورة القرآنية وفي تجاورها مع غيرها من موضوعات القرآن الأخرى، لأنّ تداول موضوع من موضوعات الكون ضمن سور القرآن إنّما هو أمرٌ يستدعيه السيّاق والمعنى العام الذي جاءت من أجله السورة القرآنيّة.

– إنّ مراعاة عادات القرآن وعرفه في التعبير عن الآيات الكونيّة من الأصول الهامّة التي تضبط عمليّة الفهم، وتسهم في الوقوف عند دلالات النص.

– وجه الإعجاز ليس في صحّة ما يقدمه القرآن من علوم فحسب_ فقد قدمت بعض اجتهادات البشر قبل نزول القرآن نتائج هامة في شتى صنوف المعرفة، وتحدثت الكتب السماوية السابقة عن موضوعات وردت في القرآن أيضًا، وإنّما يكمن الاختلاف في كيفية بناء القرآن لهذه الموضوعات وطريقة عرضها على العقل البشري، مُراعيًّا في ذلك ما توافر للعرب من خصائص في الإبانة وتفنّن في التعبير، وبذلك وقع التّحدي، وحصل الإعجاز، والمعجزة كما هي مفارقة لما اعتاد عليه النّاس في أفعالهم فهي أيضًا مفارقة لما اعتاد عليه النّاس في أقوالهم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع: آيات الشمس والقمر والليل والنهار

- المبحث الأول: آيات الشمس والقمر
- المبحث الثاني: آيات الليل والنّهار

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: آيات الشمس والقمر

سورة يونس:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٥ – ٦]

الشمس لغة: " تُطلق على القرصة، وعلى الضوء المنتشر منها. والجمع شموس... وقد أشمست الأيام، و أقمرت الليالي. ودابة شموس، و خيل شمس: لا تكاد تستقر..." (1)

وجعل الشمس ضياءً يُفهم منه أنّها كانت على هيئة غير هذه، فالشمس لها وجود سابقٌ مختلفٌ عن الحال الذي استقرّت عليه بعد ذلك، بحيث كانت ولم يكن هناك ضياء، فالضياء مرحلة متأخرة بالنسبة للشمس، وكذلك الحال بالنسبة للقمر، والذي يدل على ذلك هو تعدي الفعل "جعل" إلى مفعولين، فيفيد معنى التّصيير والتحول من هيئة إلى أخرى- كما سبقت الإشارة- ومثل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢]

و "الضِيآء" يأتي مفرداً مثل صام صياماً، وقام قياماً، وضاء ضياءً، ويأتي جمعاً، مثلها مثل حوض. جمعه: حياض، ومثل روض. جمعه رياض، وكذلك جمع ضوء هو ضياء " (2)

ومن معاني كون الشمس "ضياءً" هو أنّ ضوءها يختلف من مكان لآخر، فتكون الحرارة العالية في مناطق من الأرض، ومعتدلة في مناطق، وتكون البرودة مع وجود ضوء الشمس في مناطق أخرى، والضياء حالة من حالات النّور وهو أخصّ منه، وذلك أنّ النور درجات بعضها أقوى من بعض، فإذا كان في حالة قوية فهو ضياء " (3)

وفي تخصيص الشمس بالضياء والقمر بالنور من حيث إنّ الضوء أخص من النور" (4)

---

(1) بصائر ذوي التمييز: شمس.

(2) ينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ج3 ص: 560.

(3) ينظر تفسير الرازي ج 6 ص: 208_209.

(4) المفردات في غريب القرآن: نور

ومن هنا يتضح أنّ النور أعم من الضياء، وأنّ الضياء قسم منه أو حالة من حالاته... فسمّى الله نفسه نورًا لا ضياءً، لأنّ الضياء حالة من حالات النور، وهناك حالات من حالات النّور لا نعلمها، الله يعلمها هي أعلى من الضياء، فلا يصح قصر المطلق على جزئية " (1)

جاء في الأنبياء أنّ التوراة ﴿ ...لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨ – ٤٩] وهم أخص ممن ذُكر في الآيتين الأخريين، فقد قال في المائدة: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ [المائدة: ٤٤] أي: اليهود؛ والمتّقون أخص من اليهود وهم جزء منهم، وقال في آية الأنعام: ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ٩] فجعله للناس، وهم أعم من المتقين المذكورين في آية الأنبياء، والمتقون جزء منهم، فجعل النّور الذي هو أعمّ من الضياء للذين هم أعم، وهم اليهود والنّاس، وجعل الضياء الذي هو أخص للذين هم أخص، وهم المتقون الذين يخشون ربهم، وهم من الساعة مشفقون، فناسب العموم العموم، والخصوص الخصوص " (2)

والضياء إنّما هو السّاطع من النّور، أو هو التّام منه " (3) وإنّ المتقين إنّما هم جماعة ساطعة من بين عموم المؤمنين أو النّاس، وحالهم أتم وأكمل، فناسب بين سطوع المتقين وسطوع النور وهو الضياء، فالمتقون من بين عموم المؤمنين كالضياء من النّور " (4)

إنّ لسان القرآن يخرج اللفظ عن كونه مجرد لفظ، لأنه يُحمّل اللفظ طاقات دلالية لم يعهدها أحد في تلك الألفاظ قبل نطق القرآن بها، فهو يفرغها ويملؤها، ويمنحها معاني، ودلالات ما كان لشاعر أو ناثر أو مجموعة كبيرة أو صغيرة من أساطين العربية أن تمنحها تلك الدلالات" (5)

---

(1) أسئلة بيانية ج1 ص: 199
(2) المرجع نفسه ج1 ص 201
(3) التفسير الكبير، ج 6ص: 209
(4) أسئلة بيانية، ج1 ص: 201
(5) المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ج1 ص: 15

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة النحل:

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [النحل: 12] جاء التعبير (سخر) بالفعل الماضي لا المضارع مع أن آيات الليل والنهار والشمس والقمر مازالت مسخرة إلى غاية الآن؛ وذلك لأن التسخير سنة ربانية تم قضاؤها، فناسب التعبير بالماضي؛ وما نراه من التسخير هو من آثار القضاء الإلهي السابق، أي أنه قانون إلهي تم قضاؤه على الليل والنهار والشمس والقمر فهي تسير بناء على ما قضي.

وقدم ذكر الشمس على القمر لأنها الأصل في الإضاءة والقمر تبع لها، وقدم ذكر الشمس والقمر على ذكر النجوم؛ لأن الشمس والقمر ألصق بالأرض من النجوم البعيدة، ولأن آثارهما على الأرض أوضح من أثر النجوم، فالليل والنهار من أثر الشمس، والنور في الليل من أثر القمر، وغير ذلك من الآثار الأخرى.

وأفرد ذكر تسخير النجوم في جملة أخرى مستقلة عن التي قبلها ﴿ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ ﴾ لأنّ شأن النجوم في الخلق أعظم مما ذكر من الليل والنهار والشمس والقمر، ولأن النجوم ليست تبعا للشمس أو للقمر، ولأن الشمس نجم من النجوم، وفي النجوم ما يفوق الشمس في الحجم والقوة. وعبر عن الليل والنهار والشمس والقمر بالفعل﴿ سَخَّرَ ﴾ وعبّر عن النجوم بالاسم ﴿ مُسَخَّرَٰتُۢ ﴾ لأن الاسم أقوى في التأكيد على المعنى من الفعل.

وجاء التعبير بـ "قوم" في قوله تعالى: ﴿ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ للإشارة إلى أن المقصودين هم من أصبح استعمال العقل صفتهم التي عليها يجتمعون، ولأجل هذه الصفة المشتركة استحقوا إطلاق "قوم" عليهم، وليسوا ممن استعمل عقله مرة واحدة أو عدة مرات متفرقة، وفي غير ذلك لا يعقلون، وهذا ما يفيده الفعل المضارع، فإن استعمالهم لعقولهم متجدد متكرر، وليس في واقعة واحدة. قال الزمخشري: "جمع الآية وذكر العقل لأنّ آثار العلو أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة " (1)

وجمع "مسخرات" " لأن كل من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها لتباين الليل والنهار وتخالف مسيرات الكواكب.. بخلاف قوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ

---

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج4 ص: 248

وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١١] فإنّ مطلق الإنبات آية واحدة ..." (1)

ولما خلق الله ما في السموات وما في الأرض جعل له وجودًا بالقوة ووجودًا بالفعل، وسخرها للإنسان يكشف عن بعضها ويبقى بعضها الآخر مطمورًا يكشفه الله لمن بحث في قوانين الكون وأسرار الوجود.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان: ٢٠] ذكر ﴿ سَخَّرَ لَكُم ﴾ وفي هذه الآية: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان: 29] لم يذكر" لكُم" لأنّ المقام هنا ليس مقام تعداد النّعم كما في الآية الأولى، وإنّما في بيان آيات الله ... ثم إنّه من ناحية أخرى قال: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فذكر أنّ لهما أجلا مُسمى ولا يناسب ذلك ذكر النّعم، فإنّ من تمام النّعمة الدوام، وهنا ذكر الانقطاع، ولذا حيث قال: ﴿ سَخَّرَ لَكُم ﴾ لم يقل: ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (2)

وتدل هذه الآيات الكريمات على أنّ جميع عناصر الكون مسخرة بأمر الله عز وجل، والتسخير في اللغة سياقة إلى الغرض المختص قهرًا ...فالمسخَّر هو المقيّض للفعل، والسخري هو الذي يُقهر فيتسخّر بإرادته " (3).

وإذا كان الشيء مُسخَّرًا فهو مخلوقٌ حتمًا؛ لأنّ صفة القهر وتنفيذ الإرادة تلازم المخلوقين، وقد اقترن تسخير الشمس والقمر بالجري في ضوء الآية الثانية من سورة الرعد(4) الذي هو تعبير عن الحركة بسرعة، بل وبسرعة غير محسوسة من بني البشر، ومن ثم اقترن التسخير في آيات أخرى بالسباحة، وواضحٌ أنّ

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، ج4 ص: 248

(2) ينظر على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 366

(3) المفردات في غريب القرآن: سخر

(4) قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ذلك فيه استدامة لهذا التسخير حين يكون الفعل مُضارعا" [1] والمسَخّر إذا كان مُسرعًا فيما سُخّر له كان فعله أدلّ على التعبير عن قهره وعبوديته " [2]

﴿ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ عُـدي الفعـل " يجـري" في هـذه الآيـة بحـرف الجـر " إلى" وفي مواضـع أخـرى بـ " الـلام" " وممّـا ذُكـر في الفـرق بينهمـا أنّ (إلى) تفيـد انتهـاء الغايـة، و(الـلام) تفيـد الاختصـاص وتفيـد التعليـل، فمعـنى (يجـري لأجـلٍ) أنّـه يجـري لهـذه الغايـة أي لإدراك الأجـل المسـمى كمـا تقـول: يجـري لغـرض وصـول الهـدف وبلوغـه، ومعـنى: ﴿ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أنّه يجري إلى أن يبلغ الأجل المسمى.

ومجيء (إلى) في هذه الآية أنسب لأنّها جاءت في سياق الآيات المنبّهة على الحشر والإعادة " [3]

فمعنى " اللام" في الآية بلوغ الأجل وإدراكه، أمّا " إلى" في الآية الأولى تدل على الانتهاء، والمتتبع لسياق آية لقمان يجد أنّها وقعت بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهي إليه الخَلق، والقيامة غير ذلك، فناسب ذكر "إلى" الدال على الانتهاء، والمعنى: لا يزال كل من الشمس والقمر جاريا حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمّى له، أمّا المواضع الأخرى التي ذُكرت فيها "اللام" ففيها إخبارٌ عن ابتداء الخلق، وابتداء جري الكواكب، كما هو حاصل في آية الزمر [4] فهي تجري حتى بلوغ غايتها، وكذلك آية الرعد [5] أمّا آية فاطر [6] فاكتنفها ذِكر النّعم في البر والبحر، والمعنى في هذه الآيات، أي: يجري كل مما ذكر لبلوغ الأجل.

---

(1) ينظر: الطبيعة في القرآن، ص: 57-60.

(2) من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حسن أبو العينين، مكتبة العبيكان- الرياض، ط2: 1425هـ- 2005م، ص: 188.

(3) المرجع السابق: ج2 ص 367.

(4) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾

(5) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(6) ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول الإسكافي: " الجواب أن يُقال إنّ معنى قوله: ﴿ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى وقوله: ﴿ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ معناه لا يزال جاريا حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له، وإنّما خصّ ما في سورة لقمان بـ " إلى" التي للانتهاء، واللام تؤدي نحو معناها لأنّها تدل على أنّ جريها لبلوغ الأجل المسمى، ولأنّ الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة، فقبلها: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ ﴾ [لقمان: ٢٨] وبعدها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ ﴾ [لقمان: ٣٣] " فكان المعنى: كلّ يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تُكور فيه الشمس، وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى، وسائر المواضع التي ذُكرت فيها "اللام" إنّما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق، وهو قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥ ﴾ [الزمر] فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب، وهي تجري إذ ذاك لبلوغ الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة (1) إنّما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول: ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ [فاطر: ١٢ – ١٣] فاختصّ ما عند ذكر النهاية بحرفها، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها " (2) وحركة النجوم والكواكب هي إذن حركة سريعة جدا، ولكنها تتم في سهولة ويسر دون شعور الإنسان بها، فهي " جري" و "سباحة" والفلك كحديدة الرحى أو كفلكة المغزلة لا يدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به" (3)

(1) سورة الملائكة هي سورة فاطر

(2) ينظر الكشاف، ج3 ص: 237.

(3) مختصر تفسير ابن كثير: مُحَمَّد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط5، 1400هـ، ج2، ص: 598.

وعن أهمية حروف المعاني ودورها في الكشف عن المعنى يقول محمود شاكر " وحروف المعاني التي يتناولها هذا القسم الأول من جمهرة علم القرآن العظيم، أصعب أبواب هذه الجمهرة لكثرتها وتداخل معانيها، فقلّ أن تخلو آية من القرآن العظيم من حرف من حروف المعاني، أمّا المشقة العظيمة، فهي في وجوه اختلاف مواقع هذه الحروف من جمل، ثم اختلاف معانيها باختلاف مواقعها، ثم ملاحظة الفروق الدقيقة التي يقتضيها هذا الاختلاف في دلالته المؤثرة في معاني الآيات، وهذا وحده أساس علم جليل من علوم القرآن العظيم " [(1)]

****

سورة فصلت:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]

آيات الله في الكون كثيرة، وهي في جملتها مخلوقات مُسخرة، وليست آلهة تُعبد، وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ ذكر حرف النهي "لا" مع الشمس والقمر، ولو اكتفى بذكر الحرف مرة واحدة فقال: (لا تسجدوا للشمس والقمر) لتوهّم السّامع أنّ النهي عن السجود إنّما هو للشمس والقمر مجتمعين، فيجوز السجود لأحدهما، وجاء الفعل: ﴿خَلَقَهُنَّ ﴾ الدال على العاقل، مع أنّ الليل والنهار والشمس والقمر هي مخلوقات غير عاقلة، ومقتضى الظاهر أن يقول: (خلقها)

والجواب عن ذلك أنّه لو قال: (واسجدوا للذي خلقها) لانصرف الفهم إلى الشمس وحدها، لأنها هي المؤنث الوحيد بين المذكورات السابقة.

فالتعبير القرآني " تعبير فني مقصود، كلّ لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله " [(2)] وهذا ما يدعو إلى ضرورة العناية بدلالة المفردة القرآنية كوحدة رئيسة في التشكيل القرآني العام.

ولما كان القرآن الكريم يمثل الذروة البيانية في الموروث البلاغي عند العرب، يبتعد عن النمط الجاهلي في الفاظه ويستقل استقلالا تاما في مداليله فلا أثر فيه لبيئة أو إقليمية أو زمنية، فهو المحور الرئيس لدى البحث

(1) مقدمة محمود شاكر لكتاب دراسات لأسلوب القرآن الكريم: عبد الخالق عظيمة. دار الحديث- القاهرة، ص:2

(2) التعبير القرآني، ص:10.

الدلالي باعتباره نصا عربيا ذا طابع إعجازي وكتابا إلهيا ذا منطق عربي، فقد توافرت فيه الدلائل والأمارات والبينات لتجلية هذا البحث والتنظير له تطبيقا في لمح أبعاد الدلالة الفنية "(1)

****

سورة الواقعة:

قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٥ – ٨٠]

يقسم الله بالآيات الكونية وهي مرتبطة بظواهر معينة للدلالة على أهمية الزمان وكذا المكان في هذا العالم " مواقع النجوم، النجم إذا هوى، الليل إذا يغشى والنهار اذا تجلى " والغالب في القرآن القسم بالظاهر الكونية وهي مرتبطة بحالة من حالاتها أو وظيفة من وظائفها للتأكيد على أنّ وجه التسخير في هذه المخلوقات، ليس متعلّقًا بها كجوهر فرد مجرد عن الغاية بل في حركتها الدائبة المستمرة التي وُجدت من أجلها إلى أجلٍ مسمّى.

ووقوع القسم في مواضع من القرآن مقترنًا بـ"لا" تقول بنت الشاطئ: " وفرق بعيد أقصى البعد بين أن تكون "لا" لنفي القسم-كما قال بعضهم- وبين أن تكون لنفي الحاجة إلى القسم كما يهدي إليه البيان القرآني، ومِن نفي الحاجة إلى القسم يأتي التوثيق والتقرير؛ لأنّه يجعل المقام في غنىً – بالثقة واليقين- عن الإقسام ...وما نزال بسليقتنا اللغوية نؤكّد الثقة بنفي الحاجة معها إلى القسم، فتقول لِمن تثق فيه: لا تُقسم أو من غير يمين، مُقرّرًا بذلك أنّه موضع ثقتك، فلستَ بحاجة إلى أن يُقسم لك، كما تقول لصاحبك: لا أوصيك بكذا، تأكيدًا للتّوصية بنفي الحاجة إليها " (2)

****

(1) تطور البحث الدلالي: دراسة تطبيقية في القرآن الكريم: مُحَمَّد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي- بيروت، ط1: 1999م، ص: 44

(2) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 285.

سورة المعارج

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المعارج: ٤٠ – ٤١]

ومما جاء في القرآن مجيء المشارق والمغارب مجموعتين تارة، ومثنيين تارة، ومفردين تارة، **فالأول**: قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المعارج: ٤٠ – ٤١] **والثاني**: قوله تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الرحمن: ١٧ – ١٨] والثالث: قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [المزمل: ٩]

وقف ابن القيم عند هذه الآيات وبيّن بعض ما انطوت عليه من حكم وأسرار فقال: " فتأمّلْ هذه الحكمة البالغة في تغايُر هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب مواردها يُطلعك على عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد " (1)

وبيّن سبب الإفراد والتثنية والجمع فقال: " فحيث جُمعت، كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السّنة، وهي مُتعدّدة، وحيث أُفردا كان المراد أفقي المشرق والمغرب، وحيث ثُنّيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنّها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوْجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها وارتفاعها وينشأ منه فصلا الربيع والصيف، ثم ترجع هابطة حتى ترجع إلى غاية حظيظها وانخفاضها، وهذا غاية هبوطها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء، فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقا واحدا، ومشرق هبوطها بجملته مشرقا واحدا، ويقابلها مغرباها، فهذا وجه اختلاف هذه الألفاظ في الإفراد والتثنية والجمع " (2)

والنظر في السياق القرآني له دوره في بيان معاني الآيات والكشف عن المقصود منها، ووجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه، فـ " وروده مثنى في سورة الرحمن، لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات، فذكر أولاً نوعي الإيجاد وهما: الخلق والتعليم، ثم ذكر سِراجي العالم ومظهر نوره، وهما: الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات، ما قام منه على ساق، وما انبسط

---

(1) بدائع الفوائد، ج2 ص: 211

(2) المصدر نفسه، ج2 ص: 212

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

منه على وجه الأرض، وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه، ووسّط بينهما ذكر الميزان ... ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما: الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكَلَّفين وهما: نوع الإنسان ونوع الجانّ، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب ... ثم تأمّل ورودهما مفردين في سورة المزمل لما تقدّمها ذكر الليل والنهار، فأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم-بقيام الليل، ثم أخبره أنّ له في النّهار سبحًا طويلاً، فلمّا تقدّم ذكر الليل وما أُمر به فيه، وذكر النّهار وما يكون منه فيه، عقّب ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار، فكان ورودهما مُفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع، لأنّ ظهور الليل والنهار بهما واحد، فالنهار أبدًا يظهر من المشرق، والليل أبدا يظهر من المغرب، ثم تأمل مجيئهما مجموعتين في سورة المعارج في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المعارج: ٤٠ – ٤١] لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته وإحاطة قدرته، والمقسم عليه هو إذهاب هؤلاء والإتيان بخير منهم، ذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب ...وأيضًا فإنّ تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهود، وقد جعل الله – تعالى- ذلك بحكمته سببا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوانات، وانتقالها من حال إلى غيره، وتبدّل الحر بالبرد والبرد بالحر، والصيف بالشتاء والشتاء بالصيف... كل ذلك تقدير العزيز العليم...فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظ الجمع " (1)

ولفظ "المشرق والمغرب" كما دلّ على معنى المكان، فهو يحتمل الإشارة إلى معنى الزمان أيضا فنقول مشرق الشمس ونقصد وقت شروقها وكذلك الأمر مع المغرب، وعلى هذا فمعنى " المشرق والمغرب" إذا وردت بصيغة الإفراد يحتمل أن يكون زمن أول شروق لها وزمن آخر غروب، كما تدل بلفظ الجمع" المشارق والمغارب" على أوقات متعددة لشروقها وأخرى لغروبها كما هو حاصل بالمشاهدة.

(1) المصدر السابق، ج2 ص: 213-214.

ومِن الخِلافَاتِ الصَّرْفِيَّةِ في هذا المَوْضِعِ خِلافُهُمْ في قَوْلِهِ: (المشْرِقُ) في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة: ١١٥] فقَوْلُهُ: (المشْرِقُ) يَحْتَمِلُ الدّلالَةَ عَلى المِصْدَرِ والمكَانِ؛ ولِذلِكَ اخْتَلَفُوا فيه فَمَنْ ذَهَبَ إِلى أَنَّهُ اسْمٌ للمَصْدَرِ فالمعْنى: للهِ تَوَلّي إِشْرَاقِ الشَّمْسِ مِنْ مَشْرِقِها وإِغْرابِها مِنْ مَغْرِبِها، ومَنْ ذَهَبَ إِلى أَنّه اسْمُ مَكَانٍ فالمعْنى للهِ مَكَانُ الشُّرُوقِ ومَكَانُ الغُرُوبِ، أَو للهِ بِلادُ الشُّرُوقِ والغُرُوبِ، فالمعْنى في الرَّأْيِ الأَوّلِ يَخْتَلِفُ عَن المعْنى في الرَّأْيِ الثّاني (1)

ولم يقترن ذكر المشارق بالمغارب في قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ [الصافات: ٥] مناسبةً للآية بعدها، فقد قال: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦] ذلك أنّ الزينة تكون في مشارقها لا في مغاربها، ولقوله أيضًا: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الصافات: ٧ – ٨] وقذف الشياطين إنما يكون في مشارق الكواكب لا غروبها.

وأمّا قوله في المعارج: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ فهو مناسبٌ لما بعده، وهو قوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ذلك أنّ المعنى أنّه يُهلك هؤلاء ويفنيهم ويأتي بغيرهم من هو خيرٌ منهم، وإذهابهم وإهلاكهم أشبه بالغروب، والمجيء بغيرهم إنّما هو شروق جيلٍ أفضل منهم؛ فإذهابهم غروبهم، ومجيء غيرهم شروقٌ؛ فناسبَ كلّ تعبيرٍ موضعه " (2)

يتعلق كمال البنية اللغوية للنص القرآني بكل وحداتها التركيبية، فالحرف القرآني له وضعه في نفسه ومن المفردة، والمفردة القرآنية لها وضعها في نفسها ومن النظم، والنظم له وضعه في نفسه ومن القرآن كوحدة كاملة، فـ "الكلام بالطبع يتركّب من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم. و قد رأينا سرّ الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلّها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به؛ فليس لنا بدّ في صفته من الكلام في ثلاثتها جميعاً... فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنّه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السرّ في إعجاز جملته إعجازاً أبديّاً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانيّة، وفوق ما يتسبّب إليه الإنسان إذ هو يشبه الخلق الحيّ تمام المشابهة، وما أنزله إلاّ الذي يعلم ((السّر)) في السّموات و

---

(1) تفسير البحر المحيط، ج1 ص: 530.

(2) ينظر: أسئلة بيانية: ج2 ص: 111-112

الأرض، فأنت الآن تعلم أنّ سرّ الإعجاز هو في النظم، وأنّ لهذا النظم ما بعده؛ وقد علمت أنّ جهات النظم ثلاث: في الحروف، والكلمات، والجمل " (1)

****

سورة نوح:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح: ١٥ – ٢٠]

قُدمت الشمس على القمر في كل موضع من القرآن إلا في هذا المقام " لأنّ انتفاع أهل السماوات العائد عليهن الضمير به أكثر... يقال: إن القمر وجهه يضيء لأهل السماوات وظهره لأهل الأرض، ولهذا قال تعالى﴿ فِيهِنَّ ﴾ لما كان أكثر نوره يضيء لأهل السماء " (2)

وذكر السيوطي معنى آخر في باب " إطلاق المثنى على المفرد﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ أي: في إحداهن" (3)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح: ١٦ – ١٧] فبتعبير "سراج " يفتح على تاليها معان كثيرة وهي معرفة عظمة الصانع عز وجل وإحسانه إلى خلقه، وتذكير الإنسان أنّ هذا الكون قد أعدّه الله عز وجل مسخرٌ للإنسان وذوي الحياة، وأنّ الشمس ما هي إلاّ مصباح مسخرّ فهذا دليل من أدلة التوحيد، فالشمس التي يتوهمها كثير من المشركين أعظم معبود لديهم وألمعها ما هي إلا مصباح مُسخّر ومخلوق جامد لا يستحق العبادة، فالقرآن الكريم لا يبحث في ما هية الشمس التي لا يحتاج إليها الإنسان بل في وظيفتها وفيمن نوّرها وجعلها سراجا مؤدية لوظيفة منتظمة " (4)

****

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:145 ـ 146.

(2) الإتقان في علوم القرآن، ص: 503.

(3) المصدر نفسه، ص: 557.

(4) كليات رسائل النور: الكلمات: بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر–القاهرة، ط6: 2011م، ص: 345-346.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة التكوير:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾ [التكوير]

في تقديم الاسم بعد "إذا" على الفعل في الآيات" للتهويل كقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ ﴾ [الانفطار: ١ - ٣] وكقوله: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ فإنّ في تقديم المسند إليه تهويلاً لا تجده في التأخير، ألا ترى أنّ السماء لم يسبق لها أن انفطرت، ولا الكواكب انتثرت، ولا البحار فُجّرت، ولا الشمس كُوّرت، فهذه الأجرام مستقرّة على عادتها الدهور المتطاولة والأحقاب المتوالية حتى ذهب بعض النّاس إلى أنّها على حالها منذ الأزل، وستبقى كذلك أبدًا ولذلك قدّمها إشارة إلى الهول العظيم والحدث الجسيم الذي يصيب هذه الأجرام، ألا ترى إلى قوله تعالى مثلا: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١] كيف أخّر المسند إليه، لأنّ الزلزلة معهودة، مستمرة الحصول، بخلاف ما سبق، ونحوه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ ﴾ [القيامة: ٧ – ٨] ولم يقل: (وإذا القمر خسف) لأنّ خسوف القمر معتاد الحصول، ونحوه بريق البصر " (1)

فالحُكم بتفاضل الأقوال والوقوف عند حظوظها من الاستحسان لا يعود إلى مجرد اللفظ " كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا من التأليف... وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أنّ المعنى الذي كانت له هذه الكلم...أعني الاختصاص في الترتيب، وهذا الحكم يقع في الألفاظ قريبا على المعاني المترتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل ولن يتصور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصص في ترتيب وتنزيل، و على ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة، وأقسام الكلام المدوّنة " (2)

(1) معاني النحو، ج2 ص: 47

(2) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر أبو فهر، دار المدني- جدة، ط1: 1991م، ص: 03-04

المبحث الثاني: آيات الليل والنهار:

الليل والنهار آيتان من آيات الله الكونية، تربط كل واحدة منهما بالأخرى، ولا تنفصل عنها في الحدوث، فلا نهار بلا ليل يسبقه، ولا نهار بلا ليل يتبعه، ولهذا نجد القرآن قد قرن بين هاتين الآيتين في أكثر المواضع التي ذكرت فيها، وعبر عن هذا الارتباط بالاسم أحيانا مثل "الاختلاف" و"الخلفة" .

وغالبا ما يقترن ذكر الليل والنهار في القرآن الكريم بذكر الشمس والقمر، وكذلك ذكر الحياة والموت سواء تعلق الأمر بذكر النعم أو بذكر آيات الله في خلقه.

والليل لغة: هو الفترة الزمنية الممتدة من مغرب الشمس على طلوع الفجر...والليل واحد بمعنى جمع، وواحدته ليلة، وقد جُمع على ليالٍ، فزادوا فيها الياء لتصبح ليالي على غير قياس " (1)

أمّا **النهار** لغة: هو ضد الليل، وهو نصف اليوم الذي تشرق فيه الشمس، ويُنشر النور، ويُعرف بالفترة الزمنية بين طلوع الشمس وغروبها، ولفظة النّهار لا تُجمع وإن كان البعض يحاول جمعه على أنهر للتقليل وعلى نُهُر للتكثير " (2)

ويُذكر النهار كما تُذكر بعض أجزائه على نحو: الإصباح، الضحى، بكرة، الفلق، ويُطلق اليوم في مواضع ويرُاد به النّهار دون الليل —كما في آيات الصوم.

قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]

لفت النظر ليس إلى السموات والأرض بذاتهما بل إلى خلقهما، والنظر ليس إلا ظاهرتي الليل والنّهار بل إلى اختلافهما، ثم عدل في التعبير عن الفلك بتقديم الاسم على الفعل لاستحضار هيئة جريان الفلك وأنها آية مختلفة عن آيتي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، فاختلف التعبير.

---

(1) لسان العرب: ليل.

(2) المصدر نفسه: نهر

قال ابن عاشور: والاختلاف افتعال مِن الخلَف، وهو أن يجيء شيءٌ عوضًا عن شيءٍ آخر يخلفه في مكانه، والخِلفة بكسر الخاء الخلف، وقد أُضيف الاختلاف لكُلّ من الليل والنّهار لأنّ كلّ واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد تُعاكس فوائد الآخر؛ بحيث لو دام أحدهما لانقلب النّفع ضررًا ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١ – ٧٢] وللاختلاف معنى آخر هو مرادٌ أيضًا، وهو تفاوتهما في الطول والقصر؛ فمرّة يعتدلان ومرّة يزيد أحدهما على الآخر وذلك بحسب أزمنة الفصول وبحسب أمكنة الأرض في أطوال البلاد وأعراضها كما هو مُقرّرٌ في علم الهيئة، وهذا أيضًا من مواضع العبرة لأنّه آثار الصّنع البديع في شكل الأرض ومسامتها للشمس قربًا وبُعدًا؛ ففي اختيار التعبير بالاختلاف هنا سرّ بديع لتكون العبارة صالحة للعبرتين " [(1)].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٥ – ٩٨]

افتتحت الآية بحرف التوكيد " إنّ" مع أنّه لا يُنكر أحدٌ أنّ الله هو فاعل الأفعال المذكورة هنا، ولكنّ النّظر والاعتبار في دلالة الزرع على قدرة الخالق على الإحياء بعد الموت كما قدر على إماتة الحي، لما كان نظرًا دقيقًا قد انصرف عنه المشركون فاجترأوا على إنكار البعث؛ كان حالهم كحال من أنكر أو شكّ في

(1) ينظر فوائد قرآنية: دقائق تفسيريّة منتقاة: هشام عبد الجواد الزهيري، الدار العالميّة للنّشر والتّوزيع، د ت ص: 47.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أنّ الله فالق الحبِّ والنّوى، فأكّد الخبر بحرف " إنّ" وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات هذا الوصف ودوامه " [(1)].

وجيء في قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ اسمًا للدلالة على الدوام والثبات، فالاسم يدل على الثبوت والاستمرار، والفعل يدل على التجدد والحدوث ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر" [(2)]

والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ لزيادة التمييز وللتعريض بغباوة المشركين لغفلتهم عن هذه الدلالة على أنّه المنفردُ بالإلهيّة، أي ذلكم الفاعل الأفعال العظيمة من الفلق وإخراج الحي من الميّت والميت من الحي هو الذي يعرفه الخلق باسمه العظيم على انّه الإله الواحد المقصور عليه وصف الإلهيّة فلا تعدلوا به في الإلهية غيره، ولذلك عقب بالتفريع بالفاء قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ " [(3)]

وجاء في الآية استخدام لفظة "الفلق" وليس لفظة "الشق"، لأنّ " الفلق على ما جاء في التفسير هو الشق على أمر كبير، ولهذا قال تعالى: " فالق الإصباح" ويقال فلق الحبة عن السنبلة وفلق النواة عن النخلة ولا يقولون في ذلك شقّ لأنّ في الفلق المعنى الذي ذكرناه، ومن ثم سميت الداهية فلقا وفليقًا " [(4)]

صفات الحيّ الحركة والتجديد (من الحياة) وقد قال تعالى مع الحيّ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾جاء بالصيغة الفعلية التي تدل على الحركة، ومِن صفات الميّت هو السكون والثبات فناسب ذلك التعبير بالصيغة الاسمية.

جاء في كتاب القرآن الكريم وإعجازه العلمي " هناك علاقة وطيدة بين قوله: فالق الإصباح، وفالق الحب والنوى، فظهور الضياء بانفلاق الصباح من الظلام، هو في خد ذاته، عنصر أساسي في نمو النباتات والأشجار، وهو الضوء، وذلك أن الحب والنوى، بعد أن ينفلق كل منهما يحتاج إلى غذاء ينميه، وهذا الغذاء يتكون من عناصر الأرض، وضوء الشمس " [(5)]

---

(1) المصدر السابق، ص: 110

(2) الإتقان في علوم القرآن ص: 470، وينظر التعبير القرآني السامرائي، ص: 22

(3) فوائد قرآنية: دقائق تفسيرية منتقاة، ص: 111

(4) الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، تحقيق: مُحَمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة– القاهرة. ص: 151

(5) القرآن الكريم وإعجازه العلمي، إبراهيم، مُحَمَّد إسماعيل دار الفكر العربي، ص:136

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ونُقل عن عبد القاهر الجرجاني أن قوله: " مخرج الميت" معطوف على قوله " يخرج" وإنما حسن عطف الاسم على الفعل ههنا لأن لفظ الفعل يدل على اعتناء الفاعل بذلك الفعل في كل وقت بخلاف لفظ الاسم ولهذا قال" هل من خالق غير الله يرزقكم" ليفيد أنّه يرزقهم حالا فحالا وساعة فساعة ...فذكره بلفظ الفعل يدل على أنّ الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من العكس" (1)

وفي تقديم ذكر النهار على ذكر الليل في الآية الكريمة انسجام وتناسق مع الآية قبلها، حيث كان الحديث في الآية التي قبلها عن فلق الحب والنوى، فناسب أن يبدأ في هذه بالحديث عما فيه الفلق وهو الصباح، ولهذا ابتدأ بفلق الصباح، أي إيجاده وشقه من ظلمة الليل، كما أنه في الآية قبلها قدم الحديث عن إخراج الحي من الميت، فناسب أن يُقدّم هنا ما فيه حياة وهو النهار، على ما فيه سكون ونوم يشبه الموت هو الليل " (2)

سورة الأعراف:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وفي قوله: يغشي الليل النهار " نقل عن القفال قوله: لما أخبر بالاستواء على العرش وأن أمر المخلوقات منوط بتدبيره ومشيئته أراهم ذلك عيانا فيما يشاهدونه لينضم العيان إلى الخبر، وقدم ذكر الليل والنهار لما في تعاقبهما من المنافع الجليلة فبهما تتم أمور الحياة ثم وصف الحركة التي يحصلان منها بالسرعة والشدة فقال " يطلبه حثيثا" (3)

****

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج3ص: 125

(2) ينظر الليل والنهار في القرآن الكريم: ديالا عبد الجبار سعيد عبد الله، رسالة ماجستير، إشراف: أيمن مصطفى الدباغ، جامعة النجاح الوطنيّة، فلسطين، 2010م، ص: 66

(3) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج 3ص: 252.

سورة النحل:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن
نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ
لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ
لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ
ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ
فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن
لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾ [النحل: ٣ – ١٧]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جاء التعبير بالفعل الماضي (سخر) لا المضارع مع أن آيات الليل والنهار والشمس والقمر لا تزال مسخرة إلى غاية الآن؛ وذلك لأن التسخير سنة ربانية تم قضاؤها، فناسب التعبير بالماضي؛ وما نراه من التسخير هو من آثار القضاء الإلهي السابق، أي أنه قانون إلهي تم قضاؤه على الليل والنهار والشمس والقمر فهي تسير بناء على ما قضي

قال الزمخشري: " جمع الآية وذكر العقل لأنّ آثار العلو أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة " (1)

وجمع "مسخرات" لأنّ كل من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها لتباين الليل والنهار وتخالف مسيرات الكواكب... بخلاف قوله﴿ يُنۢبِتُ لَكُم ﴾فإنّ مطلق الإنبات آية واحدة..." (2)

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٠ – ٣٤]

إنّ القرآن – كما ذكرت- يقدم الألفاظ ويؤخرها حسب ما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام – مثلا- متدرجا حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا ...وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور، قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ فقدم اليل لأنه أسبق من النهار، وذلك لأنّه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقدّم الشمس على القمر لأنّها قبله في الوجود ...ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور ...قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] وذلك لأن الظلمة قبل

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج4 ص: 248

(2) المصدر نفسه، ج4 ص: 248

النور " [1] وتفاوتُ التّفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها لأنّ التركيب أعسر وأشق، ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم – من حيث انفرادها- يفوق جميع كلامهم، ويعلو عليهن وليس ذلك إلاّ لفضيلة التركيب [2]

سورة الحج:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحج: ٦١ – ٦٦]

وفي إيلاج كل من الليل والنهار في الآخر يمكن أن يُستفاد منه معنيان:

" الأول: هو أنّ إيلاج كل منهما في الآخر إنّما هو بإدخال جزء منه فيه، وبذلك يطول النهار في الصيف، لأنه أولج فيه شيء من الليل، ويطول الليل في الشتاء، لأنّه أولج فيه شيء من النهار، وهذه من أدلة قدرته الكاملة.

المعنى الثاني: هو أن إيلاج أحدهما في الآخر هو تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، بغيبوبة الشمس، وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا " [3]

والرؤية الواردة في قوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ بمعنى العلم، لأن إنزال المطر وإن كان مُشاهدا بالبصر فكون الله هو الذي أنزله، إنّما يُدرك بالعلم لا بالبصر، فالرؤية هنا علمية على التحقيق " [4]

---

(1) التعبير القرآني، ص: 53-54

(2) المثل السائر، ج1 ص: 213

(3) أضواء البيان ج5 ص: 807

(4) المصدر نفسه، ج5 ص: 807

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ [النور: ٣٦]

ولهذا الاقتران بين ألفاظ تدل على أول النهار وألفاظ تدل على آخره سر دقيق يقول ابن عاشور: " وهذا يدل على إعمار أجزاء النهار كلها بالذكر والتسبيح بالقدر الممكن، لأنّ ذكر طرفي الشيء يكون كناية عن استيعابه " (1)

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٦١ — ٦٢]

ومعنى خلفة: يخلف كل منهما الآخر ويعقبه في كل بقعة على وجه الأرض؛ فكل منهما خلف للآخر منذ خلق الله تعالى الأرض، والسؤال هنا هو : لماذا عبر بلفظ الاسم "خلفة" دون الفعل" يخلف" مع أنّ ظاهرة تعاقب الليل والنهار تحدث يوميا وبصفة مستمرة ؟

والجواب: أنّ معنى الخلفة هو التعاقب كما مر، وذلك للإشارة إلى أنّ الله عز وجل قد خلق الليل والنهار بحيث يوجدان معا وفي الوقت نفسه، فلا يمكن أن تكون كل الأرض ليلا ولا أن تكون كلها نهارا، إنما يعتريها الليل والنهار، كل منهما في مكان معيّن، فهما يتعاقبان المكان على الأرض في الآن ذاته، ولو عبّر بالفعل " يخلف" لأوهم أنّ أحدهما وجد أوّلا، ثم جاء الآخر فخلفه، لأنّ من مقتضيات الفعل يخلف: أن يسبق أحدهما الآخر في الوجود، فيكون هناك أول، ويكون هناك ثان وُجِد بعده يخلفه، الحال في الليل والنهار ليست كذلك، لأنّ الله تعالى قد خلقهما معا ووجدا معا " (2)

ولم يرد في القرآن أنّ الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر بصيغة "الفعل" ومثله قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٠]

والتعبير بصيغة الاسم ــ إلى جانب ما سبق قوله ــ من باب التوسّع في المعنى، وهو ما لا يفيده التعبير بصيغة الفعل، فالاختلاف يكون بمعنى: "جعلهما مختلفين، وبمعنى: نقصان أحدهما وزيادة الآخر، وبمعنى:

(1) التحرير والتنوير، ج11 ص: 277

(2) الليل والنهار في القرآن، ص: 38-39

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاختلاف في النّور والظلمة، وتكرارهما يومًا بعد ليلة، وليلة بعد يوم، واختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشقاء وخلال " [1]

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير] على أنّ معنى عسعس هو إقبال وإدبار، فالليل إذا أقبل في جهة فقد أدبر في جهة أخرى، ومثله النهار، وفي الآية " يظهر الله تعالى لنا حالة ضعف الأول حين يغادر، وقوة الآخر حين يقبل" [2]

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ٢٩]

ذكر في السورة قبل هذا الموضع خلق السموات وذكر ما يتعلق بخلق الأرض على العموم من إلقاء الرواسي وغيرها، فذكر ما يتعلق بخلق السموات والأرض على العموم، ثم ذكر تسخير ما فيهما على العموم، وجاء بالفعل "يولج" دالا على المضارع " لأنّ ذلك متجدد في كل لحظة، وجاء بالفعل (سخّر) ماضيا لأنّ ذلك لا يتجدد تجدد الإيلاج " [3]

وأرجع الرازي ذلك إلى أنّ إيلاج الليل في النّهار أمر يتجدّد كل فصل بل كل يوم، وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر " [4]

والتسخير أمرٌ لا تعدّد فيه ولا تجدّد وإنّما التّعدّد والتجدّد في آثاره" [5] ولو جاء فعل التسخير بلفظ الماضي لفُهِم أنّه في كل يوم يكون هناك تسخير.

وفي القرآن الكريم حيثما ورد الليل والنهار قدم الليل على النهار وكذلك تقديم الشمس على القمر، تقديم الليل لأسبقيته في الوجود فالتقديم مقصود بحد ذاته داخل القرآن، ولو قال: "يولج الليل في النهار " فحسب لكان الليل أول من النهار دائما، ولو اكتفى بقوله:" يولج النهار في الليل " لكان الليل هو الأطول

---

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرطبي، ج12 ص144

(2) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، ص: 74-75

(3) على طريق التفسير البياني: ج2 ص 365

(4) التفسير الكبير: ج9 ص: 130

(5) روح المعاني: ج21 ص: 102

دوما، ومجيء نظم الآية على هذا الوجه يعكس ما هو واقع ومُشاهَد، لأنّ النهار قد يقصر وقد يطول والليل أيضاً، وهذا حاصلٌ في كل لحظة وفي كل وقت الليل يأخذ من النهار والنهار يأخذ من الليل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
(٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ
(٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَفْعَلُونَ (٨٨) ﴾ [النمل: ٨٦ – ٨٨]

سؤال: لِمَ قال هنا " ألم" وفي مواضع " أولم" ؟ الجواب: ما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة ذكره بالألف وواو العطف أو فائه، وما كان الاعتبار فيه بالاستدلال، ذكره بالألف وحده، ولا ينقض هذا الأصل قوله: ألم يروا إلى الطير مسخرات" في النحل، لاتصالها بقوله:" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم" الآية، وسبيلها الاعتبار بالاستدلال، فبنى " ألم يروا عليه" (1)

وفي هذه الآية عبر عن المستقبل بصيغة الماضي فقال: "ففزع" بلفظ الماضي بعد قوله "ينفخ" وهو مضارع لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به" (2).

وفائدته: أن الفعل الماضي إذا أخذ به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها" (3).

فاستعمل مع الليل " لتسكنوا فيه" ومع النهار الاسم مبصرا ولم يسوّ بينهما فلم يقل: ساكنا ومبصرا ولا لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه مع أن الاستعمال الحقيقي هو " لتبصروا فيه"

---

(1) غرائب التفسير وعجائب التأويل: مُحَمَّد بن حمزة الكرماني، تحقيق: شمران سركال يونس العجلي، دار القبلة للثقافة الإسلامية– جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، ج1ص: 352

(2) الكشاف، ج3 ص: 391.

(3) المثل السائر، ج2 ص: 15.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد، ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية، فإنه ذكر نعمة الله علينا في الليل فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧] ولو قال: " هو الذي جعل لكم الليل ساكنا" لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية ولكانت" لكم" هنا زائدة ليس لها فائدة، فهو جاء بـ " لكم" وبالصيغة الفعلية للدلالة على قصد النعمة والتفضل علينا، وعلاوة على ذلك فإنه لو قال" ساكنا" لم يكن التعبير مجازيا لأنّ الليل يصح أن يوصف بالسكون فيقال: ليل ساكن وليل ساج، فتحويله إلى الصيغة الاسمية ليس فيه فائدة معنوية ولا فنية، ولما تقررت دلالة النعمة في صدر الآية كان العدول إلى التعبير المجازي بعد ذلك كسبا فنيّا فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز فقال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ وذلك أن النهار لا يبصر بل يبصر من فيه: فجمع بين التعبير الحقيقي والمجازي ودلّ على المقصد الأوّل من الآية وهو الدلالة على النعمة بأقرب طريق " (1)

وذكر السامرائي معنى آخر فقال : "جعله مبصرا أيضا يبصر أعمالنا ويكون شاهدا علينا بالخير والشر فكأن له عينان تبصران، فنحن نبصر فيه وهو يبصر أيضا " (2)

وتفسير ذلك : أنّ النهار مُسبّب للإبصار بضوئه الذي يبعث على العمل والنشاط والرؤية الواضحة والتفكّر في خلق الله حتى كأنّه هو المبصِر لكلّ شيء، ولو وصف النهار بأنّه مُضيء لما كان له وَقعٌ كوصفه بالإبصار، فهذا أبلغ وأدلّ على مَوقع النعمة؛ لأنّه يَكشف عن وجه المنفعة (2) التي توحي لنا بأنّ النهار يرقَبُنا ويُبصِر أعمالنا وكأنّ له عينين ليشهد علينا أعمالنا في الخير والشر (3)

****

(1) التعبير القرآني، ص: 27- 28

(2) المرجع السابق، ص: 28

(2) النكت في إعجاز القرآن، ص: 81 .

(3) التعبير القرآني، ص: 28- 29.

سورة ياسين:

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا
مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا
جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ
﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ
تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن
تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣١ – ٤٠]

لما ذكر الحشر في الآية السّابقة وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ذكر الدليل على إمكان وقوعه وعلى أنّ ذلك بمقدوره سبحانه، فاستدلّ بإحياء الأرض الميتة وإخراج الحَبّ والجنات فيها فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ومعنى الآية: العلامة والدّليل؛ فجعل إحياء الأرض الميتة دليلاً على إحياء الموتى في الآخرة " [1]

لقد قال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ فجعل الآية لهم مع أنّها لا تخُصّهم وحدهم، بل هي آية لعموم العقلاء مِن خلق الله، وذلك لأنّهم يُنكرون الحياة بعد الموت ولأنّهم مُشركون لا يُقرّون بالتّوحيد فحاجّهم بما يدُلّ على إحياء الموتى وبما يدلّ على التّوحيد... وقدّم (آية) وهي الخبر على المبتدأ وهي الأرض، ولم يقل: (والأرض الميتة آية لهم) وذلك لأنّ الكلام على العلامات الدّالة على قدرته وليس الكلام على الأرض، وقد ساق الليل والنّهار والشمس والقمر دلائل على قدرته وليس لِذاتها، ولِذا قال:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ ﴾﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ثمّ إنّه قدّم الآية على الجار والمجرور فقال:﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ للدلالة على أنّها آية لهم، ولكنّها لا تخُصّهم وحدهم، ولو قدّم الجار والمجرور فقال: (ولهُمُ الأرْضُ الميتةُ آية) لكان ذلك يعني تخصيص الآية بأنّها لهم دون غيرهم، في حين

(1) على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 119.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أنّها آية للجميع، وليست آية خاصّة بهم، فالتقديم في نحو هذا أكثر ما يُفيد التخصيص وذلك نحو قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] فقدّم (لكم) على (آية) لأنّها آية خاصّة بهم دون غيرهم، ونحوه قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [آل عمران: ٤١] فقدّم الجار والمجرور لأنّهُ طلب آية خاصّة بهم دون غيره " (1).

وجاء التعبير عن حركة الليل والنّهار بلفظ (نسلخ) الذي يدلّ في أصل معناه اللغوي على إخراج الشيء من جلده " (2) فالسَلْخ إخراج الشيء من لباسه، ومنه إخراج الحيوان من جلده، يقال سَلَخَ يسْلُخُ سَلْخاً فهو سالِخ، ومنه قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي: فخرج منها خروج الشيء ممّا لابَسَهُ.

وفي التعبير بلفظ (السّلخ) استعارة مكنيّة قائمة على " تشبيه زوال ضوء النهار وانحساره عن الكون قليلا قليلاً وظهور دبيب ظلمة الليل إلى الكون بعملية السلخ " (3) فكأنّ الله عز وجلّ يشبه النهار بجلد الشاة يغطي ما تحته،كذلك الليل بظلمته يخفي معالم الدنيا، فإذا سطع نور الصباح انكشفت تلك المعالم، كما يظهر لنا ما تحت جلد الشاة إذا أُزيل هذا الجلد" (4)

وأسند الفعل إلى نفسه فقال: (نسلخ) ليدلّ على أنّ ذلك يجري بفعل الله وقدرته، ولم يحصل من نفسه من دون تدبير مُدبّرٍ ولا فعل فاعل؛ فيكون ذلك آية على توحيد الله وقدرته " (5)

واستخدام لفظ " السلخ" يقيم شبكة من العلائق و الروابط مع السياقات التي ورد فيها من أجل تحقّق عملية التبليغ والإقناع، وفي ذلك إشارة لِما يُرافق هذه الحركة المنظمة من صعوبة تتطلّبُ وجود قدرة أو يدٍ قادرة على تحريك هذا الكون باتّساعه، ولا بُدّ من أن تكون هذه القدرة مُهيمنة على هذا الكون، عظيمة في ذاتها؛ فالإثارة المترتّبة على هذه الظاهرة في تواليها مُستمرّة مُتجدّدة بتجدّد دلالة الفعل المضارع (نسلخ) وبحضور الذات الإلهية العظيمة المكنّى عنها في هذا السياق بالضمير (نا) الذي يدلّ على التعظيم " (6)

(1) المصدر السابق، ج2 ص: 120-121
(2) مقاييس اللغة: سلخ.
(3) البنى والدلالات في لغة القصص القرآني: دراسة فنية: عماد عبد يحي، دار دجلة- عمان، ط1: 2009م، ص: 276.
(4) روح المعاني: ج12 ص37.
(5) على طريق التفسير البياني، ج2 ص:133.
(6) تأويل الجملة القرآنية الواحدة، ص: 234

والسيّاق يوضح جانبين: الأول: مسار القوى التي حرّكت هذه الظاهرة، وهي فعل الله تعالى، والثاني: مقصورٌ بـ(إذا) الفجائيّة ليعكس مسار الأثر الذي تتركه هذه القوى في المتلقي، ويعضد خروج دلالة الجزء الثاني ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ عن ظاهره إلى مدلول آخر، فضلاً عن أنّ دلالة (مظلمون) أو دلالة الظلام قد وردت في المعجم القرآني بإيحاءات أخرى تتجاوز ظاهرها، فقد جاءت بمعنى الكثرة والشرك والفسق؛ فكأنّ السرعة التي حملتها (إذا) الفجائية عكست ردّة فعلهم السريعة السّلبية تجاه هذه الآية العظيمة، لتكون النتيجة عدم إدراكهم للبعد الحقيقي لتصوير هذا الأمر الكوني ...لذا يزخر السياق بإظهار النّعم التي أنعم الله تعالى بها على العباد، كما أنّها لا تخلو من دلالات التّهديد والوعيد وضرب المثل بأقوامٍ كفروا أنعم الله تعالى فعذّبهم الله وأهلكهم، فضلاً عن الدّلالات التي ركّز عليها السيّاق اللاحق فيها معاني الامتنان والتي تتطلّب الشّكر " [1]

وقدم في هذه السورة الاستدلال بالأرض على الاستدلال بالليل والنهار، بخلاف سورة " فصلت" حيث قدم الليل والنهار على الأرض فقال عز وجل:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت: ٣٧ – ٣٩]

والجواب أنّ السياق في سورة " يس" هو في الاستدلال على الحشر، وقد وقعت الآية بعد قوله: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٣٢] والاستدلال بإحياء الأرض الميتة أدل على ذلك من الاستدلال بالليل والنهار وإن كان فيهما استدلال من طريق آخر، أمّا الكلام في سورة " فصلت" فهو في توحيد الله وإفراده بالعبادة والنهي عن عبادة غيره، وقد كان قسم من المشركين

(1) المرجع السابق، ص: 234- 235

يعبدون الشمس والقمر ويسجدون لهما فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ [فصلت: ٣٧]

فكان تقديم الليل والنهار وآيتيهما اللتين يسجد لهما طائفة من الناس أولى، بل إنّ السياق إنّما هو في عبادة الله وتوحيده، فإنّه بعد أن نهى عن السجود للشمس والقمر وعبادتهما ذكر أن الذين عند ربك يعبدون الله ويسبحونه بالليل والنهار، بل إن الأرض التي يعيشون عليها إنّما هي خاضعة خاشعة لرب العالمين، واستعمال الخشوع أنسب شيء في هذا المقام فإنّه المناسب لمقام العبادة " (1)

وقوله تعالى:﴿ نَسْلَخُ ﴾ بإسناد الفعل إلى نفسه ولم يقل: " ينسلخ" ليدل على أنّ ذلك يجري بفعل الله وقدرته ولم يحصل من نفسه من دون تدبير مدبر ولا فعل فاعل؛ فيكون ذلك آية على توحيد الله وقدرته " (2)

وقال: ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ ولم يقل: (فإذا الأرض مظلمة) مع أنّ الظلام يأتي على الأرض " ليبيّن أثر ذلك فيهم وفي حياتهم، فإنّهم هم الذين يدخلون في الظلام بعد النّهار فيكون ذلك آيةً لهم، وليبيّن أثر النّعمة عليهم في الضيّاء والإظلام، فذكر نعمتي الضياء والإظلام عليهم، والنّعمة إنّما تكون بتعاقبهما لا أن يكون واحدٌ منهما سرمدًا إلى يوم القيامة... وجاء بـ " إذا" التي تفيد المفاجأة للدلالة على سرعة التغيّر " (3)

ولم يُذكر في القرآن أنّ الليل وحده آية منفصلاً عن النّهار بل كونهما آية في اقترانهما واختلافهما.

وقدّم ذكر الليل لأنّه الأصل، كما بدأ قبله بذكر الأرض الميتة لأنّها أسبق من الأرض الحيّة؛ فالكون في أصله مظلمٌ حتى يُنيره الله بضوء الشمس،كما أنّ الأرضَ ميتةٌ حتى يُحييها الله بإنزال الماء من السّماء، وفي نسق الآيات مناسبةٌ لمقام البعث والإعادة؛ فالبعثُ حياةٌ يسبقها موتٌ، كما أنّ النّهار ظاهرة كونية يسبقها

(1) على طريق التفسير البياني ج2 ص: 131

(2) المصدر نفسه، ج2 ص: 132

(3) المصدر نفسه، ج2 ص: 133

ليل، والأرض الحية كانت ميتة قبل ذلك، وفي الاستدلال بالحقيقة الكونيّة تجسيدٌ لقدرة الخالق وعظمته وتدبيره.

قال ابن أبي الأصبع : " فإنّ من كان حافظا لهذه السورة متفطنا إلى أنّ مقاطع آيها النون المردفة، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أنّ الفاصلة " مظلمون" لأنّ من انسلخ النهار عن ليله أظلم، أي: دخل في الظلمة ولذلك سمي توشيحا، لأنّ الكلام لما دلّ أوله على آخره نزل المعنى منزلة الوشاح ونُزّل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يحول عليها الوشاح " (1)

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [يس: 38]

وفي ذكر "الشمس" لم يُكرّر كلمة "آية" فلم يقل: " وآية لهم الشمس" لأنه أراد أن يكون كل ما ذُكر آية؛ فالليل والنهار والشمس والقمر كلّها آية " (2)

وفي التعبير بالفعل المضارع " تجري" للدلالة على أنّها في حركة متجددة ومستمرة، ومعنى: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ أنّ لها حدًّا تنتهي إليه، سواء كان ذلك الحد زمانًا أو مكانًا، فقد يُقصد بالمستقر اسم مكان أو اسم زمان، وكل ذلك مراد، فهي لها مستقر زمانا ومكانًا، فهي تجري في فلك لا تتعدّاه" (3) كما تجري لأجل مسمى لا تتعداه أيضًا.

ومستقرها في المكان "لمنتهى من المشارق والمغارب لأنّها تتقصّاها مشرقًا مشرقًا ومغربًا مغربًا حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدّها ومستقرّها لأنّها لا تعدوه" (4)

ومستقرها في الزمان هو وقت أجلها" الذي أقرّ الله عليه أمرها في جريها فاستقرّت وهو آخر السّنة، وقيل: الوقت الذي تستقرّ فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة" (5)

---

(1) الإتقان في علوم القرآن، ص: 685-686

(2) على طريق التفسير البياني ج2 ص 134

(3) المصدر نفسه، ج2 ص: 134

(4) الكشاف ج2 ص: 587_588

(5) المصدر نفسه، ج2 ص: 588

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ بعد أن أسند الجري إليها فقال: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي ﴾ لئلاّ يظنّ أنّها تجري بنفسها من دون تقديرٍ أو تدبير، فإنّها تجري بتقدير العزيز العليم على وفق سنّة وضعها لها خالقها، وبذلك أبطل أن تكون حرّة مختارة، وإنّما هي خاضعة لمن جعل لها مستقرًّا لا تعدوه ولا تتخطّاه، فأبطل بذلك صحة أن تكون معبودة أو أن تُتّخذ إلهًا " (1)

وتأتي كلمة " تجري" في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ للتّنبيه على أنّ الكون يسير وفق نظام مثير للإعجاب الذي يقرر في النفس عظمة وقدرة الصانع الجليل المتفرد في ربوبيته ويمكننا أن نقيس ذلك على سائر الكلمات القرآنية التي تبدو لنا لأول وهلة كلمات مألوفة بسيطة لكنها وبالتأمل فيها تؤدي معاني بديعة وتفتح كنوزا وفيرة " (2)

ومعنى:﴿ لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾ أنّ لها حدًّا تنتهي إليه سواء كان ذلك الحد زمانا أم مكانا، فقد يقصد بالمستقر اسم مكان أو اسم زمان وكل ذلك مراد، فهي لها مستقر زماما ومكانا فهي تجري في فلك لا تتعداه، ولمنتهى من المشارق والمغارب لأنّها تتقصاها مشرقًا مشرقًا ومغربًا مغربًا حتى تبلغ أقصاها ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه " (3)

وأسند فعل " الجري" إلى الشمس ثم قال: ذلك تقدير العزيز العليم " لئلا يظن أنها تجري من دون تقدير أو تدبير، فإنها تجري بتقدير العزيز العليم على وفق سنة وضعها لها خالقها، وبذلك أبطل أن تكون حرة مختارة وإنّما هي خاضعة لمن جعل لها مستقرا لا تعدوه ولا تتخطاه، فأبطل بذلك صحة أن تكون معبودة أو أن تُتَّخذَ إلها " (4)

﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩] لما ذكر القمر فقال " قدرناه" أسند فعل التقدير إلى نفسه – عز وجل- واستغنى عن إعادة وصف العزيز العليم.

(1) على طريق التفسير البياني: ج2 ص: 134_135
(2) كليات رسائل النور، الكلمات ص: 434-436
(3) الكشاف، ج2 ص: 587-588
(4) على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 135

وفي التعبير بلفظ عاد دون صار إشارة إلى أنّه " يعود إلى هذه الحالة في كل شهر، وليس في (صار) إشعارا بهذا المعنى " (1)

و حينما يكون القمر هلالا يشبه عرجونا قديما أبيض اللون، فتضع الآية أمام خيال السامع تشبيها بديعا، وهو أنّ الهلال كان مختبئا وراء السماء فشقّ ذلك الستار ومدّ رأسه إلى الخارج...ولا شك أنّ عرض الهلال بهذا التشبيه لأولئك الذين اتخذوا النخيل مصدرا لمعيشتهم وقوتهم هو أسلوب في غاية الحسن واللطافة، وفي منتهى التناسق والعلو " (2)

قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]

والتعبير بالشمس والقمر وبالليل والنهار في الآية يعبر عن حقيقة علمية ثابتة " ذلك أنّه في كل لحظة تشرق الشمس على مكان وتغرب من مكان، فالذي تشرق الشمس عليه يكون نهارا والذي تغرب منه يكون ليلا، فالليل أمامه نهار يأتي عليه في كل لحظة وخلفه نهار يأتي عليه، وكذلك النهار " (3)

وفي ذلك دليل على أنّه لا يمكن لأحد من الشمس والقمر أن يسبق الآخر، فلِكلّ منهما فَلكُه الذي يدور فيه.

ولم تأتِ العبارات في الآية على نسق واحد، فجاءت الأولى بصيغة الفعل " تدرك" والثانية بصيغة الاسم "سابق" ذلك أنّ " قوله: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ ﴾ قد يُفهم منه أنّ الليل سابق فقال:﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾ فردّ هذا التصور وهو أعدل التعبيرات وأبلغها " (4)

وفي تقديم حرف النفي "لا" على الاسم " لإفادة كونها مسخّرة لا يتسهّل لها إلا ما أريد بها من حيث تقديم المسند إليه على الفعل وجعله بعد حرف النفي نحو: (ما أنا قلت هذا، وما زيد سعى في حاجتك)

(1) المصدر السابق، ج2 ص: 135

(2) كليات رسائل النور: الكلمات، ص: 434-436

(3) على طريق التفسير البياني ج2 ص: 136

(4) المصدر نفسه، ج2 ص: 136

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يفيد التخصيص، أي ما أنا قلت هذا بل غيري، وما زيد سعى في حاجتك بل غيره على ما حققه علماء البلاغة، والمقصود من نفي تسهّل إدراك القمر في سلطانه عن الشمس نفي أن يتسهّل لها أن تطمس نوره وتُذهِب سلطانه ... فيكون المعنى بناء على قاعدة التقديم أنّ الشمس لا تقدر على ذلك بل غيرها يقدر عليه وهو الله عز وجل، وهذا بعد إثبات الجريان لها بتقدير العزيز العليم مشعر بكونها مُسخّرة لا يتسهّل لها إلاّ ما أُريد بها " (1)

وفي قوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ورد لفظ "كلٌّ" بدل " جميعا" للدلالة على كل فرد حتى تستغرق جميع الأفراد، فقولنا: (رضوا بذلك أجمعون) يفيد أن مجموعهم رضي بذلك، وأمّا قولك: (رضوا بذلك كلهم) فيفيد أنّ أفرادهم رضوا بذلك، والنتيجة واحدة لأنه إذا رضي كل أفرادهم فقد رضي مجموعهم، فـ (أجمع) تشير إلى العموم ابتداءً، و (كل) تشير إلى الأفراد حتى تستغرقهم " (2)

ومعنى ذلك أنّ لكل من الشمس والقمر فلكه الخاص الذي يسبح فيه، والفلك يُشعر باستدارة السماء، وفي الآية إشارة إلى أنّ حركة الكواكب والأجرام دائرية، أي هي تدور في مسار لها مُحدّد وليست منطلقة في الفضاء على غير هُدًى " (3)

وأورد الزركشي نوعًا من المحسنات البديعية يُسمّى " القلب" في حديثه عن الكلمات التي لا يختلف لفظها ولا معناها إذا قُرِأت من أولها إلى آخرها ومن آخرها إلى أوّلها، وجعل منه قوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ (4)

وقد جاءت هذه الآية مع ذلك من غير تنافر في حروفها ولا غرابة على الرغم من تكرار كل حرف من حروفها مرتين، وفي هذه الصياغة حركة مستديمة هي حركة الأجسام في الفلك.

(1) ينظر: على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 137

(2) معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد، ج4 ص 525

(3) ينظر على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 139

(4) البرهان في علوم القرآن: ج3 ص: 293

وإسناد السباحة إلى ضمير العقلاء، لتنزيل الأجرام منزلة العاقل... ومن جهة أنها تسبح في فلك خاص لا تتعداه كأنها شخص عاقل ملتزم بما حُدَّ له، فهو لا يتعدى حدوده، فلا يشذ ولا يخرج عن مداره ولا يبغي بعضه على بعض، بل إنّ كلا منها يعرف مكانه وفلكه وحدوده.

ولو قال: " كُلٌّ في فلك يسبحُ" مجردة من ضمير العقلاء، لانصرفت الأفهام إلى أنّ فعل السباحة إنّما هو للفَلك دون الشمس والقمر، وعلى هذا يكون ضمير العقلاء " الواو" قد أزال فهم ما هو ليس المقصود من الآية.

وفي الآيات السابقة تصوير عجيب لانقياد نواميس الكون وأجزائه لقدرة لأمر الله وقدرته، وإظهار اتصال هذا الكون بخالِقه اتصال الطاعة والاستسلام: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فليس هناك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع (لقدر ربّه) كرهًا في أغلب الأحيان؛ فإنّه خاضعٌ حتمًا لهذا القدر، لا يملك أن يخرج عنه، وهو ترسٌ صغير جدًّا في عجلة الكون الهائلة والقوانين الكونيّة الكلّية التي تسري عليه رضي أم كره، ولكنّه هو وحده الذي لا ينقادُ طائعًا طاعة الأرض والسّماء، إنّما يُحاول أن ينفلت وينحرف عن المجرى الهيّن الليّن، فيصطدم بالسّنن التي لا بدّ أن تغلبه – وقد تُحطّمه وتسحقه– فيستسلم خاضعًا غير طائع، إلاّ عباد الله الذين تصلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإرادتهم ورغباتهم واتجاهاتهم...تصطلح كلّها مع أوامر ربّهم، فتأتي طائعة وتسير هيّنةً ليّنةً مع الكون متّجهةً إلى ربّها مع الموكب، مُتّصلة بكل ما فيه مِن قوى، وحينئذٍ تصنع الأعاجيب، وتأتي بالخوارق " (1)

وجاء عقب هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١ – ٤٢] وهي في منتهى المناسبة مع ما قبلها؛ فإنّه لما ذكر سباحة الأجرام في الفلك فقال: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ذكر سباحة الفلك في الماء وجريها فيه " (2)

(1) ينظر: فوائد قرآنية: دقائق تفسيرية منتقاة، ص: 328.

(2) ينظر التفسير الكبير، ج26 ص: 78

ولفظ الفُلك يُطلق ويُراد به المفرد أو الجمع، وذكرُه في الآية من باب التوسّع في المعنى؛ فالفُلك – إذا أُريدَ به معنى الجمع- فهي السّفن التي تجري في البحار إلى قيّام السّاعة، والذرّية هم الأولاد؛ فامتنّ عليهم بحمل أولادهم في البحار، ذلك أنّ الامتنان بالنّعمة على الأبناء امتنان بالنّعمة على الآباء " (1)

وقيل المقصود بالفلك سفينة نوح عليه السلام، والمقصود بالذرّية الأبناء، قيل: والمعنى أنّه لما حمل آباءهم الأقدمين يكون قد حمل ذريّتهم في أصلابهم، ولولا ذلك الحمل لم يبقَ للآدمي نسلٌ " (2) ومعنى حمل ذرياتهم دونهم لأنّه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخَلُ في التّعجيب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح " (3)

والتعبير بلفظ الفلُك جمع المعنيين، في الأوّل: تذكيرهم بنعمة حمل أبنائهم في الفلك وتسخيرها لهم جاريةً إلى يوم القيّامة، وفي الثاني: تذكيرهم بنعمة نجاتهم من الغرق بحملهم في السفينة؛ فدلّ اللفظ مع الجمع بين نعمتين.

ولما قصد بالفلك سفينة نوح جاء بعدها ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس: ٤٩] فذكر صيحة القيامة وهي لا تأخذهم وإنّما تأخذ ذريتهم صح أن يُقول في سفينة نوح أنّه حمل ذريتهم فجعلهم هم المعنيين بالصيحة، مع أنّ المعني هم الذرّية؛ فجعل الآباء والذرّية شيئًا واحدًا " (4)

وذكر في قوله: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ حمل الأبناء وجاء في موضع آخر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١] فذكر حملهم في الجاريّة في حالة طغيان الماء، ولما لم يذكر طغيان الماء ذكر حمل ذريتهم، ذلك انّه في حالة طغيان الماء يُخشى الغرق فذكر أنّه حملهم هم ليدلّ على إنعامه عليهم بالنّجاة؛ وفي نجاتهم نجاةٌ لذريتهم، وليس في نجاة الذرّية نجاة للآباء " (5)

---

(1) على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 140

(2) التفسير الكبير: ج26 ص: 78

(3) الكشاف، ج2 ص: 589

(4) على طريق التفسير البياني: ج2 ص: 141

(5) المصدر نفسه، ج2 ص: 141.

ولما ذكر طغيان الماء وصف الفلك بأنّها جارية أي تجري بهم لينجوا إلى مكان آمنٍ، ولما لم يذكر طغيان الماء وصف الفلك بأنّه مشحون أي ممتلئ، ولا يَحسُن ذكر المشحون مع طغيان الماء، لأنّ امتلاءه يُبطئه في الجري، فلا ينجون به بسرعة؛ فذكر مع النّجاة الجري ومع المنفعة الشّحن، فكان كلّ تعبير أنسب في مكانه.

جاء في التفسير الكبير: "قال ههنا: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ منّ عليهم بحمل ذريتهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] منّ هناك عليهم بحمل أنفسهم، نقول لأنّ من ينفع المتعلّق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير، ومن يدفع الضّرر عن المتعلّق بالغير لا يكون قد دفع الضّرر عن ذلك الغير، بل يكون قد نفعه. مثاله من أحسَن إلى ولد إنسان وفرّحه فرح بفرحه أبوه، وإذا دفع واحدٌ الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباهُ ولا يكون في الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه، فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقه فقال: دفعتُ عنكم الضرر، ولو قال دفعتُ عن أولادكم لما حصل بيانُ دفع الضرر عنهم، وههنا أراد بيان المنافع فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لأنّ النّفع حاصلٌ بنفع الذرّية، ويدلّك على هذا أنّ ههنا قال: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فإنّ امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة، وأمّا دفع المضرّة فلا، لأن الفُلك كلّما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة؛ فاختار هنالك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن " (1)

وفي جملة الآيات تذكير بنعم الله على عباده، فذكّرهم بنعمة السّكن وهي الأرض ونعمة الطعام ونعمة النهار والليل، وحملهم وحمل بضائعهم في البرّ والبحر، وقوله: (لهم) يدلّ على تمام نعمته عليهم، ذلك أنّه خلق ذلك من أجلهم " (2)

****

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]

(1) التفسير الكبير، ج26 ص: 80.

(2) على طريق التفسير البياني ج 2 ص: 143.

ما دلالة التعبير بصيغة الجمع (خلقهن) مع أنهما مثنى أي الشمس والقمر؟

لو تأملنا سياق الآية نجد أنها لا تشير إلى الشمس والقمر فحسب ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ﴾ وآيات الله سبحانه وتعالى في كونه لا تُعد ولا تُحصى، ذكر منها أربع آيات، وهي الليل والنهار والشمس والقمر، لذلك ورد التعبير بـ (خلقهن)، ويرد سؤال آخر مفاده: لماذا لم يقل خلقها مع أنها لغير العاقل؟ ولو قال خلقها دون خلقهن لا نصرف الفهم إلى أنّ المقصود هو الشمس وحدها لأنها المؤنث الوحيد في سياق الآية، ولم يقل (لا تسجدوا للشمس والقمر) بل كرر حرف النهي لكي لا يُفهم أن الممنوع هو السجود للشمس والقمر مجتمعين، وتكرار النهي للفصل بينهما.

******

في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ [النبأ: ١٠ – ١١] كرر الفعل جعل ولم يُكرره في مواضع أخرى من القرآن منها قوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدًّا " والجواب أنّ التكرار يفيد التأكيد، والسّدان ليسا بمنزلة واحدة؛ فإنّ السّد الذي من بين أيديهم يمنعهم من السّير إلى أمام وهو أهم لأنّه هو الموصل إلى الهدى وإلى الفلاح، وأمّا السّد من خلف فهو مانع من الرجوع، والعود ليس أحمد، ولما لم يكن السّدّان بمنزلة واحدة من حيث الأهميّة لم يجعلهما في التّعبير بمنزلةٍ واحدة، فذكر الفعل في المهم وحذفه مما هو أقل أهميّة، وأمّا تكراره في سورة النّبأ فإنّ الليل والنّهار كلاهما مهم للإنسان وحياته؛ فلا تصلح الحياة بليل لا نهار فيها، ولا تصلح بنهارٍ لا ليل فيها، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص: ٧١ – ٧٢] فلمّا كانت الحياة إنّما تستقيم بالليل والنّهار معًا جعلهما بمنزلةٍ واحدة في التّعبير، فكرّر الجعل مع كلّ واحد منهما والله أعلم[1].

****

(1) على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 28-29

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ [الفجر: ٤]

من عادة العرب أنها إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه، والليل لما كان لا يسري وإنما يسرى فيه نقص منه حرف، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨] الأصل بغية فلما حول عن فاعل نقص منه حرف" (1)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ ﴾ [الليل: ١ – ٤] يقسم الله بالآيات الكونية وهي مرتبطة بظواهر طبيعية معينة للدلالة على أهمية الزمان وكذا المكان في هذا العالم، إذ الغالب في أسلوب القسم أن تُذكَر الظاهرة الكونيّة مقترنة بوظيفة من وظائفها أو حالة من حالاتها، للتأكيد على أنّ وجه التسخير في هذه المخلوقات، ليس متعلّقًا بالظواهر الكونية كجوهر مجرد عن وظيفته، بل فيما خُلقت من أجله إلى أجل مُسمى.

يقول السامرائي: " والنهار إذا تجلى، أي انكشف وظهر بزوال ظلمة الليل وطلوع الشمس، وجاء بصيغة المضارع مع الليل فقال: يغشى، وبالفعل الماضي مع النهار، ذلك لأنّ الليل يغشى شيئا فشيئا، وأما النهار، فإنّه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وصْلة واحدة، ولهذا قال: والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها(2)

واختلف زمن الفعلين فجاء مع الليل بصيغة المضارع ومع النهار بصيغة الماضي ليفيد معنى التدرّج في وقوع الفعل، فالليل لا يأتي جملة بل يغشى شيئًا بعد شيءٍ بخلاف ضوء النّهار؛ فإذا أشرقت الشمس ظهر وتجلّى دفعة واحدة، ومثل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ ﴾ [الشمس: ١ – ٤]

والإحالة بضمير الغائب في الفعل ﴿جَلاّها﴾ في سورة الشمس فيه توسّعٌ في المعنى، فيحتمل أن يعود على الشمس أو على الظلمة أو على الأرض.

(1) الإتقان في علوم القرآن: ص: 594

(2) على طريق التفسير البياني، ج1 ص: 124

ويرد القسم بمخلوقات متقابلة مثل الليل والنهار والشمس والقمر وغيرها للدلالة على أهميّة عنصر الزوجية في هذا الكون، يقول سيد قطب: " يقسم الله سبحانه وتعالى بهاتين الآيتين الليل والنهار، مع الصفة المصورة للمشهد، والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى، وهما متقابلان في دورة الفلك، ومتقابلان في الصورة، ومتقابلان في الخصائص وفي الآثار...كذلك يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين، الذكر والأنثى، تكملة لظاهرة التقابل في جو السورة وحقائقها جميع، والليل والنهار ظاهرتان شاملتان، لهما دلالة توحيان بها للقلب البشري عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما، والنفس تتأثر تلقائيا بتقلب الليل والنهار...يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة في الكون وفي الناس، على أنّ سعي الناس مختلف، وطرقهم مختلفة، ومن ثم فجزاؤهم مختلف " (1)

وأقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار وبالسّاعي وهو الذّكر والأنثى على اختلاف السّعي، كما اختلف الليل والنّهار والذكر والأنثى وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنّه سبحانه لا يُسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يُسوِّ بين الليل والنّهار والذكر والأنثى " (2)

ولا شك أنّ التحول في صيغ التعبير القرآني، والعدول عن موضوع إلى غيره، يُعدّ أحد روافد البحث اللغوي والبياني، ومدخلاً لضبط آليات التماسك النصي في القرآن.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى: ١ – ٣]

أقسم ربنا بالضحى وبالليل إذا سجى أنّه لم يودّع نبيّه ولم يقله- كما زعم أهل الكفر- والضحى: هو صدر النّهار وارتفاع ضوء الشمس، ومعنى سجى: سكن واستقرّ ظلامه، أو سكون النّاس فيه، فيكون الإسناد مجازيًّا، يقال: سجى البحر إذا سكنت أمواجه، وطرفٌ ساجٍ أي ساكن فاتر، ولا ريب أنّ سجو الليل وقت استيلاء الظلام منه لا كلّه؛ فهو بمنزلة الضحى من النّهار " (3)

إنّ القسم بهذين الشيئين لهما هنا دلالة خاصة –كما قيل- فإنّ الضحى يُمثّل نور الوحي، وإشراقه، وإنّ الليل إذا سجى يُمثّل انقطاعه وسكونه؛ فإنّ الدنيا مِن غير نور النّبوة وإشراقة

(1) ينظر: في ظلال القرآن، ج8ص 50-52

(2) التبيان في أقسام القرآن، ص: 37.

(3) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج6 ص: 514

الوحي ليلٌ مظلمٌ وظلامٌ مُطبَق. ولذا قدّم الضحى وهو ما سبق من نور الوحي على الليل إذا سجى، وهو مدة انقطاع الوحي وسكونه" (1)

وجاء عن ابن القيم قوله: " فتأمّلْ مطابقة هذا القَسم؛ وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودّع محمدًا ربُّه؛ فأقسم بضوء النّهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضًا فإنّ فالق ظلمة الليل عن ضوء النّهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة؛ فهذان للحسّ، وهذان للعقل" (2)

وجاء القسم بالليل – ههنا- مقترنا بقوله تعالى: ﴿ إِذَا سَجَىٰ ﴾ وفي مواضع أخرى بقوله:

﴿ إِذَا يَغْشَىٰ إِذَا يَسْرِ ﴾ " ذلك أنّ معنى: ﴿ سَجَىٰ ﴾ سكن وركد، وهو إشارةٌ إلى سكون الوحي وركوده، وانقطاعه؛ في حين أنّ ﴿ يغشى ﴾ أو (﴿ يسرِي ﴾ ونحوهما تدلّ على الحركة، فكان ذكره ههنا أنسب " (3)

وقدّم ذكر الليل على النهار في السورة المتقدمة وعكس ههنا- بتقديم الضحى على الليل- " لانفراد كل منهما بفضيلة مخصوصة؛ فالليل للرّاحة والنّهار لانتظام أمر المعاش؛ فقدّم هذا على ذلك تارة وبالعكس أخرى لئلاّ يخلو شيءٌ من النّوعين عن فضيلة التقديم " (4)

ولفظ (الضحى) في الآيات الكريمة يوحي بمعانٍ يُمكن فهمها من ورود اللفظ في مواضع أخرى من النّص القرآني؛ فلمّا كان وقت موعد موسى لمعارضة السحرة كما قال: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩] شرّفه الله بأن أقسم به؛ فعلمَ منه أنّ فضيلة الإنسان

(1) على طريق التفسير البياني، ج1 ص: 110
(2) التبيان في أقسام القرآن، ص: 47
(3) على طريق التفسير البياني، ج1 ص: 111
(4) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج6 ص: 514

لا تضيع ثمرتها، وفيه بشارة للنبي ﷺ أنّ الذي قلب قلوب السحرة حتى سجدوا يقلب قلوب أعدائك حتى يُسلموا " (1)

وفي ذلك ربط –كما هي عادة القرآن- بين آيتين عظيمتين من آيات الله تعالى هما الليل والنهار مع آية عظيمة أخرى، وفضل من الله تعالى كبير، هو إشراقة دعوة مُحَّد ﷺ وقد بيّن ابن القيم هذا الربط بكلام يقول فيه: " فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودّع مُحَّدا ربُّه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، لى ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضا فإنّ فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس، وهذان للعقل، وأيضا فإنّ الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدا بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم " (2) ويُقال: وسجى الليل أي سكن، والليل لا يسكن، وإنما تسكن حركات الناس فيه، فأجرى تعالى صفة السكون عليها لما السّكون واقعًا فيه " (3).

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١ – ٢]

وقد تحدّث ابن القيم عن قسم الله بالعصر حين قال: " والعصر هو الزمن، وإقسام الله تعالى بالزمن ينبع من العبرة الشاخصة فية، والمتمثلة في مرور الليل والنهار، وتعاقبهما واختلافهما على نظام محكم دقيق، كما يتمثل في انقسام الزمن من قرون إلى سنين ثم أشهر وأيام وساعات، وكيف تدور هذه الحياة من خلال هذا الزمن، ففي كل هذا آية عظيمة لله عز وجل في هذا الكون الذي أبدعه " (4)

(1) المصدر السابق، ج6 ص: 515

(2) التبيان في أقسام القرآن،. ص:46

(3) تلخيص البيان في مجازات القرآن: الشريف الرضي، تحقيق :علي محمود مقلد، دار الحياة، بيروت، لبنان، 1986م، ص: 357

(4) التبيان في أقسام القرآن، ص: 53.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: ١٦]

لفظ "صرصر" في القرآن يرد بصيغة التضعيف مثل هذا الموضع، ويرد بصيغة " صر" والصرّ من الألفاظ القرآنية التي تُطلق لتدلّ على جملة من المعاني، منها:

- أنّ الرّيح الصّرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يُسمَعُ لهبوبها صوتٌ شديد، وعلى هذا فالصّرصر من الصرّة التي هي الصيحة المزعجة، ومنه قوله تعالى:﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي في صيحة، ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم أي صوتهما.

- أنّ الصّرصر من الصّر الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ [آل عمران: ١١٧] أي فيها بردٌ شديد مُحرق، فقوله: ريحٌ صر أي باردة شديدة البرد، والأظهر أنّ كلا القولين صحيح وأنّ الريح المذكورة جامعة بين الأمرين، فهي عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد " (1)

وفي الصحاح: الصّر بالكسر: بردٌ يضرّ بالنبات والحرث...وقيل: الصرّ: السموم الحارّة...وعلى القولين الغرض من التشبيه حاصلٌ سواءً كان بردًا مُهلكًا أو حرًّا مُحرقًا فإنّه يصير مبطلاً للحرث فيصحّ التشبيه " (2)

وإلى هذا المعنى ذهب ابن فارس حيث ذكر أنّ من معاني الصّر البرد والحر وهو الصّر، يُقال: أصاب النّبتَ صِرٌّ إذا أصابهُ بردٌ يضرُّ به، والصّرُّ: صرّ الريح الباردة، وربّما جعلوا في هذا الموضع: الحر، قال قومٌ: الصّارّة: شدّة الحر حرّ الشمس " (3)

ومما سبق قوله يتّضح تميّز الخطاب القرآني عن سائر صنوف الخطاب على مستوى الدال والمدلول معًا، ومن المعلوم " أنّ الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمرٌ تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلقُ دونه وعجزوا عن معارضته بمثله، ومناقضته في شكله، ثم صار

(1) ينظر: فوائد قرآنية: دقائق تفسيرية منتقاة، ص: 329.
(2) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج2 ص: 241.
(3) مقاييس اللغة: صر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المعاندون له — ممّن كفر به وأنكره- يقولون مرّةً: إنّه شعر لما رأوهُ منظومًا، ومرّةً إنّه سحر لما رأوه معجوزًا عنه، غير مقدورٍ عليه ... ثم اعلم أنّ عمود البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كلّ نوعٍ من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أُبدِل مكانه غيرُه جاء منه إمّا تبدّل المعنى الذي يفسد به الكلام، أو ذهاب الرونق الذي تسقط به البلاغة، وذلك أنّ في الكلام ألفاظًا مترادفة متقاربة المعاني — في زعم أكثر النّاس- كالعلم والمعرفة، والشّح والبخل، والنّعت والصّفة، وكذا بلى ونعم، ومِن وعن، ونحوها من الأسماء والأفعال والحروف؛ والأمر فيها عند الحُذّاق بخلاف ذلك، لأنّ كلّ لفظة منها خاصّة تتميّز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن اشتركا في بعضها " (1)

والبحث في دلالة الأبنية المتماثلة، بحث في التّنوُّع الأسلوبِيّ؛ لأنَّه مرتبط بالتَّحليل اللُّغويّ، فالمغايرة بين الألفاظ ظاهرة أسلوبيَّة خاضعة للسِّياق، فمتى كان المقام مقتضيًا للمغايرة، ومراوحة الأسلوب بين فنٍّ وفنٍّ وجدنا النَّظم القرآنيَّ منسجمًا مع هذا التَّغايُر بأبلغ سبيل، ومتى كان المقام مقتضيًا لاستمرار الأسلوب على طريقة، أو فنٍّ واحد وجدت البلاغة متحقِّقة في النَّظم.

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج2 ص: 104-105.

الفصل الخامس:

آيات كونية أخرى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الخامس: **آيات كونية أخرى.**

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨] بإسناد الفعل (يسجد) إلى: (مَن) التي هي للعاقل في الآيتين، وقال في آية أخرى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النحل: ٤٨ – ٤٩]بإسناد الفعل (يسجد) إلى (ما) فما السّبب؟

الطوع والكره من صفات العقلاء؛ إذ العاقل هو الذي يختار الفعل طوعًا أو يُستكره عليه؛ فناسب إسناد السّجود إلى (مَن) التي هي للعاقل. وأمّا آية الحج فإنّها في سياق العقلاء، فقد قال قبلها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج: ١٧ – ١٨] فناسب إسناد السجود إلى (من) أيضًا، وأمّا آية النّحل فإنّها ذُكرت في سياق العموم؛ فقد جاء قبل الآية قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل:48]

فقد قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ وكلمة ﴿ شَىْءٍ ﴾ شيء تدل على العموم من عاقل وغيره، هذا من جهة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن جهة أخرى أنّه قال في الآية: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ فبيّن الساجدين بقوله: ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ وكلمة ﴿ دَآبَّةٍ ﴾ عامة واستعمالها في غير العاقل هو الغالب، فناسب إسناد الفعل إلى (ما) من جهتين: الأولى: العموم في ﴿ شَيْءٍ ﴾، والأخرى: العموم وغلبة غير العاقل في ﴿ دَآبَّةٍ ﴾ و(ما) كما هو معلوم أعمّ من (مَن) وما تدلّ عليه أكثر مما تدل عليه (مَن)؛ فإنّ (مَن) خاصّة بذوات العقلاء، وأمّا (ما) فهي تدلّ على ذوات ما لا يُعقل وعلى صفات العقلاء.

****

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠]

تعرض هذه الآية نعمة من نعم الله التي لا تُحصى وهي نعمة إنزال المطر على عباده، وقد حدد هذا الإنزال بقوله (لكم) ليكون الخطاب موجهاً إلى المشركين، وفي هذا تعريض شديد بأولئك الذين يأخذون النعم ويرونها عياناً ثم يُعرِضون عن شكر المنعِم الحقيقي.

وفي الآية التفاتٌ من الغيبة إلى المتكلم بين فعلي (أنزل وأنبتنا)، فقد أسند الله تعالى الإنزال إلى الغائب فقال ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم ﴾ ولكن عندما عطف الإنبات أسنده إلى ضمير الجمع فقال ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ ﴾ ولم يأتِ بالعطف بصيغة الغائب "فأنبت به حدائق"، وفي هذا الالتفات تخصيص إسناد الإنبات إليه سبحانه وتعالى دفعًا لتوهّم أنّ فعل الإنبات راجعٌ إلى الماء، بل الإنبات عائد إلى خالق الماء ومسبب الأسباب سبحانه وتعالى.

لو قلنا: إنّ الأسباب المبثوثة في الكون أسبابٌ حقيقيّة، أي ثبت لها التأثير بذاتها دون الاحتياج إلى من يُثبتُ فيها التّأثير، إلاّ أنّنا لا نقول ذلك، إذ من المستحيل بداهة أن تكون هذه الأسباب مُؤثّرة بذاتها مع ما نعلمُه فيها من صفة الحدوث بعدم العدم، فكيف يكون التأثير فيها نابعًا من جوهرها الذاتي، وهذا الجوهر نفسه قد كان مفقودًا قبل حين، ثمّ اكتسب الوجود بتأثير سببٍ آخر ؟ ويُقال الكلام نفسه في حقّ هذا السّبب الآخر وفي حقّ الأسباب الأخرى الكثيرة المختلفة.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وإذًا فما معنى كون هذه الأمور أسبابًا ؟ إنّ معنى ذلك محصورٌ في أنّ الله ﷻ ربط بينها وبين أُمور أخرى بمحض إرادته وقدرته فقط؛ فظهر استمرار هذا الارتباط أمامنا بمظهر السّببية والتّأثير ...وأنت تعلم بأنّ طول الاقتران بين أمرين في الوجود والعدم قد يُخيّلُ إلى الذّهن ارتباطاً سببيًّا بينهما، وإن لم تكن ثمّة أيّ رابطة حتميّة في واقع الأمر " [1]

****

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: 11]

ذكر في هذه السورة " ثم " ثم ذكر في النمل والعنكبوت والروم وغيرها: " فانظروا" بالفاء لأنّ " ثم"للتراخي، و"الفاء" للتعقيب، وفي هذه السورة تقدم ذكر القرون في قوله: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ [الأنعام: ٦] فأُمروا باستقراء الديار وتأمل الآثار، وفيها كثرة، فيقع ذلك بسير بعد سير، وزمان بعد زمان، فخصّت بـ "ثم" ولم يتقدم في سائر السورة مثلها، فخصّت بالفاء " [2].

قال الخطيب الإسكافي: الجواب عن ذلك أن يُقال: إنّ قوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ ﴾ [النمل: ٦٩]يدل على أنّ السير يؤدي إلى النظر فيقع بوقوعه وليس كذلك " ثم" ، ألا ترى أن " الفاء" وقتٌ في الجزاء، ولم تقع فيه " ثم" فقوله في سورة الأنعام ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ ﴾ لم يجعل النظر فيه واقعا عقيب السير، متعلقا وجوده بوجوده، لأنه بعث على سير بعد سير لما تقدم من الآية التي تدل على أنه تعالى حثهم على استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد، وإن يستكثروا من ذلك ليروا أثرًا بعد أثرٍ في ديار بعد ديار قد علم أهلها بدمار، لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦]

(1) ينظر: كبرى اليقينيات الكونيّة: وجود الخالق ووظيفة المخلوق، مُحَمّد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر: دمشق، 1997م، ص: 288.

(2) غرائب التفسير وعجائب التأويل، ج1ص: 353.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فدعا إلى العلم بذلك، بالسير في البلاد ومشاهدة هذه الآثار، وفي ذلك ذهاب أزمنة، ومدد طويلة، تمنع النظر من ملاصقة السير، كما قال في المواضع الأخرى التي دخلتها الفاء، لما قصد من معنى التعقيب، واتصال النظر بالسير، إذ ليس في شيء من الأماكن التي استعملت فيها " الفاء" ما في هذا المكان من البعث على استقراء الديار وتأمل الآثار، فجعل السير في الأرض في هذا الموضع مأمورا به على حدة، والنظر بعده مأمورا به على حدة، وسائر الأماكن التي دخلتها الفاء علق فيها وقوع النظر بوقوع السير، لأنه لم يتقدم الآية ما يحدو على السير الذي حدا عليه فيما قبل هذه الآية، فلذلك خصت بـ " ثم" التي تفيد تراخي المهلة بين الفعلين" (1)

* * * * *

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٧]

قال في هذه السورة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ بلفظ المستقبل وكذا في "الروم" لأنّ ما قبله ههنا ذكر الخوف والطمع وأنهما يناسبان المستقبل، وأما في "الروم" فليناسب ما قبله: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم: ٤٦] وقال في الفرقان: ﴿ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ [الفرقان: ٤٨] بلفظ الماضي ليناسب ما قبله: ﴿ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان: ٤٥] وما بعده، وكذا في فاطر مبني على أول السورة: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر: ١] وهما بمعنى الماضي، والله تعالى أعلم " (2)

(1) البرهان في توجيه متشابه القرآن: ص: 165-166.

(2) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج3 ص: 260

أمّا قوله: "نَشْرًا " بنون مفتوحة وشين ساكنة فإنه مصدر نَشر، وانتصابه على الحال بمعنى منتشرات... ومَن قرأ " نُشُرًا " بضمتين فلأنه جمع نشور كرسول ورسل... ومن قرأ " بُشْرًا " بضم الباء الموحدة وسكون الشين فلأنه مخفف بُشر جمع بشير " (1)

وتعددت – في القرآن– مواطن تشبيه حال الحياة والموت بحال النبات في أطواره المختلفة المتعاقبة، وربط بين صورة إحياء الناس بعد الموت –وهي صورة غائبةٌ– وبين إحياء الأرض بعد موتها، وهي صورةٌ حاضرةٌ مُعاينة... إنّ الصورة الكبرى التي يرسمها التشبيه القرآني هي الربط بين البعث بعد الموت يوم القيامة، وبين إحياء الأرض الجرداء الميتة، وذلك في ربط المعنوي والحسي، لإيضاح المعنوي وتبيينه، والقياس على الحسي، ولفت النّظر إلى إمكانيته، وإيقاعه موقع المتخيَّل...إنّ التشبيه هنا يُقدّم صورة قياسية منطقيّة، وهو يعرض برهانًا عقليًّا على إمكانيّة تحقّق المشبّه، ويوقع الحجة على مُنكري البعث، ويوضّح قدرة الله تعالى، وسهولة ذلك عليه، وتُثير الصورة البلاغيّة في أثناء العرض الكبير إيحاءات جانبيّة تُشيرُ إلى فضل الله تعالى في إرسال الغيث الذي هو حياة للأرض، كالروح في جسم الإنسان " (2)

وارتبطت مسألة المعاد والاستدلال عليها بضروب:

أحدها: قياس الإعادة على الابتداء، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]

ثانيها: قيّاس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأوْلى نحو: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١] ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]

ثالثها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنّبات، وهو في كلّ موضع ذكر فيه إنزال المطر غالبًا، نحو: ﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٩]

---

(1) المصدر السابق، ج3 ص: 260-261

(2) في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: وليد إبراهيم قصاب، دار الفكر: دمشق، ط2: 1432هـ-2011م، ص: 210.

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النّار من الشجر الأخضر ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ [يس: ٨٠]

وهذا في غاية البيان في ردّ الشيء إلى نظيره، والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما " [(1)].

* * * * *

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢]

الريح " ذكرت مجموعة ومفردة فحيث ذكرت في سياق الرحمة جمعت أو في سياق العذاب أُفردت... وقد خرج عن هذه القاعدة وصف الريح في هذه الآية بأنها ريحٌ طيبة وذلك لوجهين:

لفظي: وهو المقابلة في قوله: ﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ وربّ شيء يجوز في المقابلة ولا يجوز استقلالاً نحو: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤]

ومعنوي: وهو أن تمام الرحمة هناك إنّما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإنّ السفينة لا تسير إلاّ بريح واحدة من وجه واحد، فإن اختلفت عليها الرياح كان سبب الهلاك، والمطلوب هنا ريح واحدة، ولهذا أكّد هذا المعنى بوصفها بالطيب وعلى ذلك أيضا جرى قوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ ﴾ [الشورى: ٣٣] " [(2)]

قال الرازي" الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذه الآية دليل المقت والتّبعيد، كما أنّ عكس ذلك في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥] دليل الرضا والتقريب " [(3)]

---

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج2 ص: 26-27.

(2) الإتقان في علوم القرآن، ص: 460.

(3) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج3 ص: 572-573.

ومِن عُرف التعبير القرآني وُرود الريح في سياق العذاب والرياح في سياق الرحمة، والريح المسخّرة لسليمان خاصّة هي ليست كريح العذاب والاستئصال، كما أنّها تختلف عن الرياح المتعدّدة الاتجاهات التي ورد ذكرها في سياقات الرّحمة؛ لأنّ رياح الرّحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع، وإذا هاجت منها ريحٌ أنشأ لها ما يُقابلها فيكسر سورتها، ويصدم حدّتها فتنشأ من بينهما ريحٌ لطيفة تنفع الحيوان والنّبات " (1)

أمّا ريح العذاب فهي متصلة في عصفها وشدة تحطيمها، وذلك مصدر الرهبة والفزع منها، على خلاف رياح الرّحمة التي ينقطع تتابعها ويسكن هبوبها حينًا بعد حين، ففي تعبير القرآن عن الريحين تصويرٌ لإحساس النّاس بها " (2)

وقد وُصفت "الريح" في هذا الموضع بأنّها عاصفٌ وفي موضع آخر بأنّها عاصفة في قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١] فالوصف بالتأنيث مبني على المستقبل، أي تعصف إذا أمرها سليمان، والوصف بالمذكر على معنى الماضي: قد عصفت ثم انقطع ذلك " (3)

والغرض من الإتيان بالوصف المؤنّث في قصة سليمان إعطاء الريح صفة الحدوث والتّجدد مما يبرز فكرة التّسخير التي أنعم الله بها عليه " (4)

ووجه مجيء الريح مفردة في قصة سليمان أنها في موضع العذاب، لأنّ ذلك أبين للنّعمة، وأظهر للمنّة؛ فالشيء إذا توقّع منه الشّر والأذى ثم اقترن بعد ذلك بالنّفع والخير كان المنّ به أعظم، والإنعام فيه أظهر،

(1) ينظر بدائع الفوائد: ج1 ص: 118

(2) ينظر: المشاهد في القرآن الكريم- دراسة تحليلية وصفية- حامد صادق قنيبي ، مكتبة المنار – الزرقاء: الأردن، ط1: 1984م ص: 390-391

(3) المذكر والمؤنث: أبو بكر بن الأنباري، ت: طارق عبد عون الجنابي، مطبعة العاني-العراق، ط1: 1978م، ص: 155

(4) ينظر: البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، ص: 142

بخلاف ما لو كان مظنّة خيرٍ ورحمة، فإنّه وإن كان مُبهجًا، لا يصل إلى إبهاج الذي يتوقّع الشرّ منه حين يكون مصدر نعمة " (1)

****

وورد في سورة فاطر قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]

قدّم "مواخر" على الجار والمجرور في النحل، وقدّم الجار والمجرور" فيه" على " مواخر" في فاطر " وذلك أنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل، فذكر الأنعام وأنّها تحمل الأثقال، وذكر الخيل والبغال والحمير لنركبها وزينة، ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضا فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]

قدم المواخر لأنّها من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل، وليس السياق كذلك في سورة فاطر، وإنّما قال الله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١] ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]

(1) ينظر: الطبيعة في القرآن الكريم، ص: 478

فالكلام هنا على البحر وأنواعه، وما أودع الله فيه من نعم، فلمّا كان الكلام على البحر قدّم ضمير البحر على المخر فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ فانظر كيف أنّه لما كان الكلام على وسائط النقل والفلك قدّم حالة الفلك، ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلق به " (1)

وللسائل أن يسأل عن توحيد الآية أوّلاً و آخرًا، وعن جمعها في المتوسطة ؟ والإجابة عن ذلك أنّ: " جميع ما أخبر عنه أنه خلقه إنّما هو في جنس من صنعه ونوع من خلقه، وهو كل ما نجم من الأرض، مما فيه قوت الخلق، فكان ذكر الآية أحق، لأنّه فيما يطلع من الأرض بالماء، وكأنه جمع وجميعها شيء واحد، وجاء الإفراد أيضا في الآية الثالثة، لأنّ المعنى جميع جواهر الآراض كالذهب والفضة والحديد وغيرها، وهي كالشيء الواحد، فلذلك أفرد.

أمّا الآية الثانية فجاءت بالجمع، لأنّها خلاف ما سبق فذكر فيها الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، وفي كل واحد منها آيات كثيرة، فكان الجمع أولى" (2)

****

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]

تقترن في القرآن ألفاظٌ فتكون لها دلالة معينة ينكشف من ورائها سبب الاقتران والترابط، مثل اقتران السماء بالأرض، والشمس بالقمر والليل بالنّهار، وتقترن الرواسي بالأنهار –كما في هذه الآية– وهذا يلفتنا إلى أنّ قانون الزوجية هو أصلٌ هام تقوم عليه حياة الكائنات، ووصف الثمرات في الآية بالزوجية، والأصل في الزوج الصنف والنوع من كل شيء وكل شيئين مقترنين شكلين كانا أو نقيضين فهما زوجان، وكل واحد منهما زوج... وقوله تعالى:

(1) التعبير القرآني، ص: 68-69

(2) ينظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية: رسالة دكتوراه: صالح بن عبد الله بن مُحَّد الشتري، إشراف: مُحَّد أبو موسى، جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية، 1421هـ-2001م، ص: 165.

﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص: ٥٨] قال معناه ألوان وأنواع من العذاب ووصفه بالأزواج وأنه عني به الأنواع من العذاب والأصناف منه " (1)

و(مِن) هذه تُحمل على التبعيض لأن حقائق الأجناس لا تنحصر، والموجود منها ما هو إلا بعض جزيئات الماهية؛ لأن منها جزيئات انقضت ومنها جزيئات ستوجد؛ وإنما ذُكرت "الثمرات" لأنها موقع منّة مع العبرة، وفي تقديم الجار والمجرور " من كل" إشارة إلى أن كلّ الثمرات تتكون هي الأخرى من زوجين اثنين، وليس ذلك مُقتصرًا على الحيوان فحسب، بل إنّ هناك من الأزواج – مما هو مخلوق- ما لا يعلمه إلا الله وحده.

قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٥]

يأتي الإلقاء في القرآن بمعنيين مختلفين، **الأوّل**: يكون من أعلى إلى أسفل في مثل قوله تعالى في قصة موسى مع فرعون ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٢٠] وذكر ابن عاشور هذا المعنى فقال: "هذه المخلوقات لما كانت مجعُولةً كالتكملةِ للأرض، وموضوعةً على ظاهرِ سطحها، عُبرَّ عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي الشيء على الأرض" (2)

والثاني: من أسفل إلى أعلى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ ﴾ [الانشقاق: ٣ – ٤] والدليل في هذه الآية على أنّ الإلقاء من أسفل إلى أعلى وجود قرينة لغوية هي "ما فيها" ، فحرف الجر "في" أفاد الظرفية، ومعنى ذلك أنّ الأرض يوم القيامة ستُلقي ما في بطنها، من البشر ومن غيرهم، ونظير هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾ [الزلزلة: ١ – ٢.]

وأمّا الرواسي فهي جمع راسيّة، مأخوذة من الرسو وهو الثبات، يقال في اللغة: "رَسَا الجبل يَرْسُو: إذا ثبت أصله في الأرض " (3)

(1) ينظر: لسان العرب: زوج

(2) التحرير والتنوير، ج14 ص: 120-121

(3) المفردات في غريب القرآن: رسا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومثل ذلك قولهم: " رَسَا الشيءُ يَرْسُو رُسُوّاً وأرسى: ثَبَتَ... والرَّواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ[1]. ولما يتحدث القرآن عن تثبيت الأرض يُوظّف لفظ الرواسي دون الجبال، ومعنى الميد يُقال: " مادَ الشيء يميدُ ميداً: تحرّكَ وتمايل " [2].

والفرق بين الرسوخ والثبات، والرسو: أنّ الرسوخ: كمال الثبات، والشاهد أنّه يقال: للشيء المستقر على الأرض: ثابت، وإن لم يتعلّق بها تعلّقًا شديدًا، ولا يُقال: راسخٌ، ولا يُقال: حائطٌ راسخٌ؛ لأنّ الجبل أكمل ثباتًا من الحائط، وقال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ [آل عمران: ٧] أي: الثابتون فيه...وأمّا الرسو فلا يُستعمل إلاّ في الشيء الثقيل نحو: الجبل، وما شاكله من الأجسام الكبيرة، يقال: جبلٌ راسٍ، ولا يُقال: حائط راسٍ، ولا عود راسٍ، وفي القرآن: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ ﴾ [هود: ٤١] شبّهها بالجبل لعظمها، فالرسو: هو الثبات مع العظم، والثقل، والعلو؛ فإن استُعمل في غير ذلك فعلى التشبيه والمقاربة، نحو قولهم: أرسيتُ العود في الأرض " [3]

ومن أسرار اختيار لفظ " الرواسي" دون لفظ "الجبال" أنّ " المقصود بالرواسي الثوابت وليس في لفظ الجبال ما يدل على ذلك، ولذا لا يستعمل لفظ الرواسي حين يذكر زوالها وذهابها يوم القيامة، لأنّها من الرسو وهو الثبات بل يستعمل لفظ الجبال" [4]

وقد تُطلق تسمية (الرواسي) على الأجسام الصغيرة والكبيرة في الحجم والقصيرة والعالية في الارتفاع، إلا أنّها تتخصص بالجبال بوجود القرينة الدلالية اللفظية (شامِخَات) التي تدل عليها، فهو تعالى بقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴾ [المرسلات: ٢٧] قد وصف الرواسي بصفة الشموخ، وقصد بها الجبال الشامخة، وفي الجبل معنى العِظم والضخامة والارتفاع، فهو يُطلق على كلّ وتدٍ من أوتاد الأرض إذا عظُم وطال؛ ولذلك شُبّه به موج البحر في تصوير مشاهد قصة نوح ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾ [هود: ٤٢] وفيه دلالة على طول الجبل وشموخه.

(1) لسان العرب: رسا

(2) ينظر: مقاييس اللغة، ولسان العرب: ميد

(3) ينظر: الفروق اللغوية، ص: 299-300

(4) على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 299

وعلى هذا الأساس يتبين لنا أنَّ (الرواسي) و(الجبال) متحدان في الماهية؛ لاشتراكهما في مَعْنىً واحدٍ، فهما متماثلان ومتفقان دلالياً، وإنما يراد كلٌّ منهما في سياقٍ مُعيَّن، ليُعبِّر عن معنىً مُعيَّن، وهذا ظاهرٌ في أمرين: **أحدهما**: الثبات وعدم الاضطراب، **والآخر**: العلوّ، ويتعلق الأول بلفظة (الرواسي)، والثاني بلفظة (الجبال)، وتقدّم ذكر الجار والمجرور (في الأرض) على المفعول به (رواسي) للأهمية؛ لأن جوهر الامتنان في الآية هو صلاحية الأرض للحياة، ولن يتأتى ذلك إلا بثباتها واستقرارها، بخلاف لو قدّم الرواسي على الأرض.

وجاء النص (في الأرض) ولم يأت على الأرض كما يرى الناظر أن الجبال على الأرض وليست فيها؛ لأن (في) تدل على التمكين والثبات، وثانيا: فإن الجزء الظاهر من الجبل للناظر مقابله جزء عظيم مغروس في أعماق الأرض

وذُكرت الأنهار والسّبل بعد ذكر الجبال؛ لأن الجبال الرواسي تشكل حاجزا أمام الماء وأمام البشر، فناسب الامتنان هنا ببيان أنه رغم وجود الجبال التي تثبت الأرض إلا أن وجودها لم يقطع طريق الماء من الوصول إلى الإنسان لتقوم حياته، وأيضا فهذه الجبال رغم عظمتها لم تقطع طريق الإنسان؛ لأن الله سبحانه جعل – رغم تشابك هذه الجبال بعضها ببعض – طرقا يسلكها الإنسان لكي يقوم بشؤون حياته.

والقرآن الكريم يُحوّل كل ما يُدركه الوعي الإنساني بحسّه إلى علامات كلمات؛ فالجبال هي الرواسي التي تمنع الأرض أن تميد وتحفظ للإنسان توازنه عليها؛ فهي علامات دالة على القدرة الإلهيّة من جهة وعلى النّعم الإلهيّة التي منحها الله للإنسان من جهة أخرى، وعلينا أن نتمثّل مستويات حضور "الجبال" في النص القرآني مِن أفق وعي الإنسان العربي الذي يخاطبه الوحي مُمتنًّا عليه أحيانًا ومُهدّدًا له أحيانًا أخرى. إنّ الجبال هي الرواسي التي تُثبّت الأرض، وهي " الأكنان" التي تحمي الإنسان من هجير الصحراء فيتخذ منها البيوت، وهي أيضًا بيوت للنّحل اتخذها بإيحاء الله سبحانه وتعالى.

هكذا يستثمر النص هذا الحضور في وعي المتلقي لكي يُحوّل كل مستويات هذا الحضور إلى علامات دالّة على الخالق المنعم، وذلك كلّه في سياق ما يُسمّى بيان النّعم " [(1)]

* * * * *

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]

قال الزمخشري: قدّم الجبال على الطير، لأنّ تسخيرها له وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان " [(2)]

* * * * *

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج: 63]

عطف المضارع في قوله " فتصبح" على الماضي " أنزل" و**الجواب** هو: " أنّ النكتة في المضارع هي إفادة بقاء اثر المطر زمانا بعد زمان، كما تقول: أنعم عليَّ فُلان عام كذا وكذا، فأروح وأغدو شاكرا له، ولو قُلت: فغدوت ورحتُ لم يقع ذلك الموقع " [(3)] .

والتعبير بالمضارع يفيد استحضار الهيأة التي اتصفت بها الأرض بعد نزول المطر، والماضي لا يُفيد دوام استحضارها، لأنّه يُفيد انقطاع الشيء" [(4)] وفي رفع الفعل " تُصبحُ" دون نصبه فلأنّهُ ليس مُسبّبا عن الرؤية التي هي موضع الاستفهام، وإنّما هو مُسبّب الإنزال في قوله: " أنزل".

قال الزمخشري في الجواب عن هذا السؤال: " فإن قُلتَ فما لَه رفع ولم ينصَب جوابًا للاستفهام ؟ قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض، لأنّ معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنّصب إلى نفي

---

(1) النص والسلطة والحقيقة: إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط5: 2006م، ص: 260.

(2) الكشاف: ج2 ص580.

(3) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج5 ص: 809

(4) المصدر نفسه، ج5 ص 809

الاخضرار. مثاله: أن تقول لصاحبك: ألم تراني [1] أنعمتُ عليكَ فتشكر، إن تنصبه فأنت نافٍ لشكره شاكٍ تفريطه، وإن رفعته فأنت مُثبت للشكر، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتّسم بالعلم في علم الإعراب " [2] والآية تحتمل المعنيين من باب التوسع في المعنى.

وعدل في الآية عن لفظ الماضي ههنا إلى المضارع فقال:"فتصبح" ولم يقل فأصبحت عطفاً على "أنزل" وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم علي فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع " [3].

ويقرب من الالتفات نقل الكلام إلى غيره وإنما يفعل ذلك إذا ابتلي العاقل بخصم جاهل متعصب فيجب أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة لأنه كلما كان خوضه معه أكثر كان بعده عن القبول أشد، فالوجه حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، وأن يؤخذ في كلام آخر أجنبي ويطنب فيه بحيث ينسى الأول فإذا اشتغل خاطره به أدرج له أثناء الكلام الأجنبي مقدمة تناسب ذلك المطلب الأول ليتمكن من انقياده.

ولذلك قال ابن الأثير " اعلم أنّ الفعل المستقبل إذا أُتي به في حال الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأنّ الفعل المستقبل يوضّح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأنّ السامع يشاهدها " [4]

* * * * *

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢١ – ٢٢]

---

(1) تربي لأنه في موقع جزم.

(2) الكشاف: ج3 ص: 107

(3) المصدر نفسه: ج3 ص: 107

(4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2 ص: 145

يلحظ أن التعبير القرآني قد آثر الفعل (جعل) في الآيات التي تذكر فيها نعمة التسخير، والجعل هو الوضع والتمكين والتهيئة، فيحمل في كل مقام على ما يناسبه، وفائدة الامتنان تقريب نفوسهم من التوحيد [1] وهي الغاية من ذكر النعم وتعدادها.

وجاء اختلاف النظم متسقا مع المعاني التي قصد التعبير عنها، إذ أن المنفعة المشهورة للإنعام هي الركوب وبلوغ الحوائج عليها بوساطة الأسفار، ولذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض، أما الأكل وبقية المنافع فهي وان كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحمل، فلذلك جرد هذه المنافع بالإخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود .

وبعد أن خصص بعض ما في الأنعام من فوائد للركوب والأكل ذكر المنافع بعدها على سبيل التعميم بعد ذلك التخصيص، ولما كانت هذه المنافع ليست منحصرة في أجزاء الأنعام جيء في متعلقها بحرف (في) دون (من).

والجمع بين السفر بالإبل والسفر بالفلك جمع لطيف، فالإبل سفائن البر، وقد قال: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ ولم يقل (وفي الفلك) للمزاوجة والمشاكلة مع (عليها) وأُعيدَ حرف (على) في الفلك لأنها هي المقصودة بالذكر، وكان ذكر (عليها) كالتوطئة لها " [2].

أما الحاجات التي في الصدور والتي كانوا يبلغونها على الأنعام هي حاجات كبيرة في ذلك الزمان، وهكذا كانت غاية الخبر التذكير بالنعم، والتسخير هنا خص أهم ما في حياة المخاطبين وبإيجاز بديع، فإذا كان ظاهر النظم يدل على نعمة الركوب والتنقل على الأنعام وعلى الفلك، فإنّه ضمّ ما في الأنعام من نعم أخرى في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾

* * * * *

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]

(1) التحرير والتنوير، ج 24 ص: 214.

(2) المصدر السابق : ج 24 ص:217 .

تعالى بيان الله المعجِز. فالله تعالى في هذه الآية يعرض مِنّة من مِننه العظيمة التي لا تُعد ولا تُحصى وهي منّة إنزال المطر على عباده، وقد حدد هذا الإنزال بقوله (لكم) ليكون الخطاب موجهاً إلى المشركين، وفي هذا تعريض شديد بأولئك الذين يأخذون النعم ويرونها عياناً ثم يُعرِضون عن شكر المنعِم الحقيقي؛ وفي الآية التفاتٌ من الغيبة إلى المتكلم بين (أنزل وأنبتنا) فقد أسند الله تعالى الإنزال إلى الغائب فقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ ولكن عندما عطف الإنبات أسنده إلى ضمير الجمع فقال: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ ولم يأت بالعطف بصيغة الغائب "فأنبت به حدائق" وفي هذا الالتفات دلالة على تخصيص إسناد الإنبات إليه سبحانه وتعالى لئلا يوهم ضمير الغائب "فأنبت به" بأن الإنبات راجع إلى الماء "أنزل لكم من السماء ماء فأنبت به" بل الإنبات عائد إلى خالق الماء ومسبب الأسباب سبحانه وتعالى.

إنّ ما ينبغي توكيده أنّ موضوع التحدي ليس مصروفا إلى صنع الحقائق التي تضمّنها القرآن أو الإتيان بمثلها، وإنّما هو تحدّ من القرآن للناس أن يأتوا بكلام يتضمن "مثل هذه" الحقائق التي احتواها بما في ذلك طريقة عرض هذه الحقائق ونظمها، وهو ما يحدد مجال التّباري ومن ثم تحقيق الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

* * * * *

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨]

شُبّه مرور الجبال بمرّ السحاب فحذف الأداة لتأكيد التشبية، وجعل المشبّه هو عين المشبّه به، فالجبال سوف تكون يوم القيامة كالسحاب في ارتفاعه وتحليقه، وحذفت الأداة لبيان عظمة التغير الذي سيحصل يوم القيامة، فالجبال التي في عرف الناس كانت مثلا للثبات والرسو سيأتي عليها يوم، تتناثر فيه وتصير كالعهن المنفوش، وتسير في السماء كأنها سحاب سواء بسواء، فحذفُ الأداة مُشعر بمدى التساوي بين الصورتين: الجبال والسحاب، وإنما كان ذلك كذلك، لأنّ الجبال معروف عنها الثقل والثبات؛ فتشبيهها بالسحاب فيه تصوير لتغير الماهية، وحتى لا يُظن التفاوت بينهما حُذفت الأداة.

وباتباع قاعدة العرف القرآني ردّ الشنقيطي على مَن فهم مِن الآية أنّ الجبال في دار الدنيا يحسبها الرائي جامدة، وهي في الحقيقة تمر مرّ السحاب، فقال: " وإيضاح ذلك أنّ بعض

النّاس قد زعم أنّ قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ يدلّ على أنّ الجبال الآن في دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة، أي: واقفة ساكنة غير متحركة، وهي تمر مرّ السّحاب...والنوعان المذكوران من أنواع البيان، يبيّنان عدم صحة هذا القول.

أمّا **الأوّل** منهما: وهو وجود القرينة الدّالة على عدم صحته، فهو أن قوله تعالى:﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾ معطوف على قوله: ففزع، وذلك المعطوف عليه مرتّب الفاء على قوله تعالى:﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآية. أي: ويوم ينفخ في الصور فيفزع من في السماوات، وترى الجبال. فدلّت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أنّ مر الجبال مر السحاب كائنٌ يوم ينفخ في الصور لا الآن. وأمّا **الثاني**: وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن فواضح، لأنّ جميع الآيات التي فيها حركة الجبال كلها في يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ وقوله تعالى:﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ وقوله تعالى:﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ " (1)

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥] فالجبال في الدنيا هي رمز للقوة والثبات والعظمة، لالتصاقها بالأرض وكونها أعظم موجود عليها، فلمّا كان مفهوم النّاس المشككين في البعث عن هذه الأجسام المهولة يكون سؤالهم في هذا المقام انعكاسًا " لِشكّهم في البعث وقوفًا مع الوهم في أنّها تكون موجودة على قياس جمودهم لا محالة؛ لأنّها أشدّ الأشياء قُوةً، وأطولها لبثًا وأبعدها مكثًا " (2)

فقد أنبأ الله تعالى بمصير الجبال إبطالاً لما ذهب إليه المشككون فيما يتعلّق باليوم الآخر وتعليمًا للمؤمنين، فجاء الجواب مُتصدّرًا بفعل الأمر (قل) الذي يحمل كثافة دلالية في ثنائية (القائل والمقول له) الذات الإلهية والرسول ﷺ لتؤدي دلالة التوكيد لفحوى القول، وأنّ النّسف حقيقة لا مجازًا، ولتكتسب

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج6 ص: 490-489

(2) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج12 ص: 345

العبارة قوتها من قوله:﴿يَنسِفُهَا﴾ لِتُقابل عندهم مركز القوة والثبات بأنّها تُفرق وتذروها الرياح فتصير مستوية كأنّها لم تكن بدلالة قوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] " [1]

وجاء بعد هذه الآيات قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] فالآيات الكريمة مع وصفها لِما يُصيب الجبال من التبدّل المادّي؛ فإنّها وصفت الإحباط والفشل الذي يواجه الكافرين حين يُحشرون دون أن يفلت منهم أحدٌ، وعندها يُواجهون نتائج أعمالهم في الدنيا فتبدو لهم سرابًا خادعًا " [2]

وتقترن الرؤية في مواضع من القرآن بالفعل " تحسب" في مثل هذا الموضع، وفي مثل قوله تعالى في سياق وصف حال أهل الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨] فالرائي يحسبهم أيقاظًا وهم في حقيقتهم نائمون؛ فهيئتهم جمعت الضّدين، ودعا المشهد لولادة هذه الثنائية المتقابلة؛ لأنّها تحقق هدفًا من أهداف الحدث في القصّة، وهو إثارة التّعجيب الموصل إلى الرّعب والفرار، وذلك من تدبير الله كي لا يعبث بهم عابث، حتى يحين الوقت المعلوم " [3] وفي الآية دلالة على البعث والإحياء بمثل مادي محسوس.

****

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]

تأتي همزة الاستفهام قبل الواو، وتأتي في مواضع قبل الفاء؛ ومن وجوه الفرق بينهما أنّ الواو تأتي لمطلق الجمع، فتربط بين كلمتين أو جملتين، أو أكثر من ذلك، أمّا الفاء فهي تفيد السّبب سواء كانت عاطفة أم غير ذلك، وفي سياق الآيات التي يرد فيها التهديد تُذكر الفاء كلّما كان التهديد أكبر؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤] فلمّا ذكر

(1) ينظر: تأويل الجملة القرآنية ص: 66

(2) ينظر: المشاهد في القرآن الكريم: ص: 161

(3) في ظلال القرآن: ج5 ص: 376

الموت جاء بالفاء للتأكيد على أنّ القوم لا تُرجى لهم توبة، بخلاف قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٧] لم تقترن بالفاء لعدم ذكر الموت؛ فهي أقل توكيدًا من الآية السابقة لذلك لم تقترن بالواو. والله أعلم.

ثم إنّ الفاء تُذكر إذا كان ما قبلها مُتّصلٌ بما بعدها كأن يكون سببًا له، أو يُفضي إليه ولا يُؤتى بالواو، ومن نماذج ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]

فالآية الكريمة في سياق الإخبار عن كفار قريش ومن معهم الذين وقفوا ضد دعوة النبي مُحَمَّد والمعنى "الم يسر هؤلاء المكذبون بآيات الله والجاحدون قدرته، وهم بُصراء ينظرون بأعينهم ما يمرون عليه من الآيات المرئية من القرى الظالمة المهلكة وغيرها، ليروا مصارع الكفار ومن أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا أثارهم فيعتبرون " (1) والسياق القرآني في هذه الآية يلفت الانتباه إلى الأرض دون السماء، وذلك لأن عقاب الكافرين، وما أصابهم هو واقع ماكثٌ في الأرض، وشاخص أمامهم، والأرض أقرب للإنسان من السماء والاستدلال بها هو استدلال بما هو أقرب للحس.

وهؤلاء الكفار قد ساروا في الأرض ورأوا بقايا مصارع الكافرين من قبلهم ولكنهم لم يعتبروا، وقد عطفت هذه الآية بـ (الفاء) بدل (الواو) ؛ وذلك لأنّ ما قبلها كلام حول الأمم المكذبة في قوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥] فكأنه قال: "إذا كان ذلك فسيروا في الأرض واعتبروا" (2).

ولاشك في أن الإنكار بأسلوب الاستفهام أبلغ من النهي الصريح لما فيه من مزايا، وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني: " اعلم إنّا وإن كنّا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار؛ فإنّ الذي هو محض المعنى أنّه لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب، أما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه فإذا ثبت على دعواه قيل له: (فافعل) فيفضحه ذلك، وإمّا لأنه همّ بأن يفعل ما لا يستصوب

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن: ج17 ص:139

(2) ينظر: من أسرار التعبير القرآني: صفاء الكلمة، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ- الرياض، ط1: 1403هـ 1983م: 108.

فعله، فإذا روجع فيه تنبّه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوّز وجوّد أمرا لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه وُبخ على تعنته " (1)

****

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٥] وقال تعالى في حق النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٤] و إنما قال عن السفينة في قصة نوح عليه السلام: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾ ولم يذكر الجعل ههنا، لِأنّ الخلاص من مثل تلك النار آية في نفسه، وأمّا السفينة فقد جعلها الله آية، بأن أحدث الطوفان وصانها عن الغرق، ويمكن أن يقال: "إنّ الصون عن النار أعجب من الصون عن الماء" فلذلك وحد الآية هناك وجمعها ههنا. وإنما قال هناك ﴿ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وههنا ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لِأنّ تلك السفينة بقيت أعواماً حتى مرّ عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد. أو نقول: جنس السفينة حصلت بعد ذلك فيما بين الناس فكانت آية للعالمين، وأمّا تبريد النار فلم يبق من ذلك أثر فلم يظهر لمن بعده إلا بطريق الإيمان به)) (2).

وجمع "الآية" في سياق الحديث عن نجاة إبراهيم من النّار فقال: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وأفردها في سياق خلق السموات والأرض فقال: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٤٤] مع أنّ الآية في خلق السموات والأرض أدل على القدرة والعظمة، والجواب عن ذلك أن يُقال: إذا أخبر الله تعالى عن المؤمنين في كتابه فهو متناول من كان في عصر النبي ﷺ محدودون، وإذا قال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهو لأقوامٍ لم يتناهوا، فكل من يؤمن إلى يوم القيامة منهم، وداخل

---

(1) دلائل الاعجاز، ص: 145 .

(2) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ج5 ص: 381.

فيهم، ولكلٍّ دلالة وأمارة بيّنة، فجمعت لعدّتهم التي لم تتناه، ولما قال في خلق السموات والأرض ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم جماعة واحدة محصور عددهم، والآية الواحدة تجمعهم، باين الخبر عنهم عمّن وُجد وعمّن لم يوجد أكثرهم، فاختلفت بهم الدلالات وجمعت لهم الآيات لانتشار أعدادهم وتباين أمدادهم فاختلف الموضعان لذلك " [1]

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]

جاءت في سياق إقامة الحجة على المشركين من خلال تقرير حالة نزول الماء من السماء، وإحياء الأرض من بعد موتها، وقد أعطت المعاني في الآية الكريمة دلالات واضحة على حمق المشركين وجهلهم وسفاهة عقولهم عندما أقرّوا أن الله سبحانه هو الذي ينزل عليهم الماء، وأنّه هو الموجِد للممكنات بأسرها، أصولها وفروعها، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته التي لا تقدر على ذلك " [2] .

وجاء التعبير القرآني بالفعل المضعف (نزّل) لزيادة التوبيخ والتقريع لهؤلاء الجاحدين المتكبرين، فإنّ كل زيادة في المبنى تؤدي الى زيادة في المعنى "فاللفظ إن كان على وزن من الأوزان ثم نُقل إلى وزن أخر أعلى منه فلا بد أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً، لأن الألفاظ أدلّة على المعاني، فإذا زيد في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة " [3]

واقترنت جملة إحياء الأرض بالفاء للدلالة على سرعة وقوع حدث الإحياء، وإنّما ذكر في هذه الآية حرف الجر " مِن" قبل الظرف " بعد" ولم يذكر في البقرة لأنّ المقام كان مقتضيا للتأكيد بمجيء (مِن) إلجاءً لهم إلى الإقرار بأن فاعل ذلك هو الله سبحانه دون أصنامهم؛ ولهذا لم يكن مقتضيا لمجئ (مِن) في آية البقرة.

****

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧]

---

(1) درة التنزيل وغرة التأويل: ص: 196
(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ج4 ص.141
(3) ينظر البرهان في علوم القرآن:ج3 ص34.

قدّم الأنعام على النّاس، وقال في مكان آخر: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٣١ – ٣٢] فقدّم النّاس على الأنعام، وذلك أنّه لما تقدّم ذكر الزّرع في آية السجدة ناسب تقديم الأنعام، بخلاف آية عبس؛ فإنّها في طعام الإنسان قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ [عبس: ٢٤] إلى أن يقول: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٧ – ٣٢] ألا ترى كيف ذكر طعام الإنسان من الحَبّ والفواكه أوّلاً ثمّ ذكر طعام الأنعام بعده وهو الأب أي: التّبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام ههنا كما ناسبَ تقديم الأنعام على النّاس ثَمّ، فسبحان الله رب العالمين " (1).

******

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٧ – ٢٨]

جاء فعل الرؤية مقترنًا بضمير المخاطَب المفرد مُراعاةً لنسق السورة، وتعريضًا بالذين ينعمون بما سخّر الله لهم ثم يُعرضون عن شكر خالقها، وفي تنكير لفظ الماء دلالةٌ على النّوع، فالماء واحد والثّمر مُختلف الألوان، والأنواع والأشكال، ومعنى اختلاف ألوانها فيه توسّع في المعنى، فقد يُراد منه أنّ لكل ثمرة لونٌ يُميزها؛ فمنها الأخضر ومنها الأصفر ومنها الأحمر ومنها غير ذلك...ويمكن أن يُفهم من اختلاف ألوانها التعاقبُ الحاصلُ في مراحل نضجها، فالثمرة الواحدة قد تأخذ ألوانًا مختلفة قبل اكتمال نضجها، فيخلف كلّ لونٍ منها لونًا آخر، والاختلاف بهذا المعنى الدال على التعاقب الحاصل في الألوان ينطبق على المذكورات الأخرى في الآية، مِن الجبال ومِن النّاس والدوابّ والأنعام وهذا أمرٌ حاصلٌ بالمعاينة، والقرينة التي تؤكّد هذا المعنى هي مجيء لفظة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ للإشارة إلى أنّ اختلاف الألوان – مع الناس والدواب والأنعام– هو

(1) التعبير القرآني، ص: 63

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مثل ما أُشيرَ إليه من الاختلاف الحاصل في ألوان الثمرات والجبال. وهو من المعاني الواردة في اختلاف الليل والنّهار أيضًا- كما ورد في مواضع من هذا البحث.

ويرد لفظ (الاختلاف) في القرآن الكريم بصيغته الاسمية فيما يتعلّق بأمور الخلق وظواهر الكون للدلالة على أنّها سُنّة ربانيّة تم قضاؤها، ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣] وجاء بصيغة الفعل (اختلف) في سياق الحديث عمّا حصل بين النّاس بعد مبعث الرسل ونزول الوحي [1] وهو حدثٌ عارضٌ مُرتبطٌ بأحوال النّاس ونظرتهم إلى الدّين، وليس سُنّة من السُّنن الكونية التي لا تقبل التبدّل أو التحوّل، فقد يتفق الاثنان أو أكثر حول شيء ما، ثُمّ يحصل الاختلاف بعد ذلك، وقد يختلفان زمنًا ثم يحصل الاتفاق وهكذا هو الأمر في شؤون النّاس أفرادًا وجماعاتٍ.

* * * * *

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣ ﴾ [يس: ٧٢ - ٧٣]

يرد في القرآن الكريم التعبير بـ (أولم) بالواو بعد همزة الاستفهام ويرد بـ (ألم) دون واو، وذكر النحاة في الفرق بينهما أنّ " (أولم تر) بالواو إنّما تكون لِما هو مُشاهد و (ألم تر) إنّما تكون في الاستدلال بالنّظر العقلي، وقالوا أيضًا: أنّ (أولم تر) يُستعمل فيما كثر أمثاله في الحياة مما هو مشاهد، أمّا (ألم تر) من دون الواو فهو من باب ما لا يكثر مثله" [2]

وفي قولـه: ﴿ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم ﴾ أسـند الضـمير إلى نفسـه ولم يبنـهِ لِمـا لم يُسـمَّ فاعلـه مثلمـا جـاء في مواضـع أخـرى مثـل قولـه تعـالى ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ [النسـاء: ٢٨]وذلـك أنّ هـذا مـن باب التفضّـل والإنعـام، والقـرآن الكـريم يسـند النعمـة والتفضّـل والخـير إلى نفسـه سـبحانه، ثم إنّـه لـو

---

(1) ينظر مثلا قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣ ﴾ [البقرة: ٢١٣]

(2) على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 246

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بناه للمجهول لم يدل على أنّ الخالق هو الله سبحانه، ولا يتناسب ذلك مع السياق الذي وردت فيه الآية والذي أراد الله فيه أن يظهر آياته ونعمه على خلقه ليعبدوه ويوحدوه فتكون الجهة مجهولة "[1]

وفي سياق الآيات ما يناسب التعبير بإسناد الضمير إلى الخالق، دون بنائه للمجهول، حيث ورد بعدها قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وإذا كان الفاعل مجهولاً كانت الجهة التي يوجه إليها الشكر مجهولة فلا يعرفون الجهة التي ينبغي أن يقدموا لها الشكر "[2]

وأسند الخلق في هذه الآية إلى ضمير المتكلم، وأسنده في آية النحل إلى ضمير الغائب، فقال:

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]

والجواب عن ذلك أنّ سياق سورة ياسين مبني على الإسناد إلى ضمير المتكلم، وجاء سياق آية النحل بالإسناد إلى ضمير الغائب، ثم إنّ ما ورد في يس أكثر تكريمًا وتفضّلاً مما ورد في النّحل فأسنده إلى نفسه، وهذا هو الخط العام في إسناد النّعمة والخير والتفضّل ...فقد ورد ضمير المتكلم الذي يعود على الله سبحانه أربع مرات في يس وهي: إنّا، خلقنا، أيدينا، ذللنا.

ولم يرد ضمير الغيبة الذي يعود على الله سبحانه إلاّ مرة واحدة في النّحل وهو الضمير المستتر في (خلقها)، ثم لننظر إلى مواطن التكريم في الموضعين:

- قال في يس خلقنا لهم فجعل الخلق لهم، في حين قال في النّحل: والأنعام خلقها ولم يقل (لكم) وإنّما قال لكم فيها دفء
- قال في يس مما عملت أيدينا للدلالة على الاهتمام والتكريم كما تقول: هذا صنعته لك بيدي، ولم يقل مثل ذلك في النّحل.
- قال في يس فهم لها مالكون فملكها لهم، ولم يذكر في النّحل أنّه ملّكها لهم.
- قال في يس إنّه ذللها لهم فقال وذللناها لهم ولم يقل مثل ذلك في النّحل.

(1) المصدر السابق، ج2 ص 248

(2) المصدر نفسه، ج2 ص: 248

- ذكر في يس أنّ منها ركوبهم، وذكر في النّحل أنّها تحمل أثقالهم في الأسفار.
- ذكر في يس أن لهم فيها مشارب ولم يذكر مثل ذلك في النّحل.
- ذكر في يس والنحل أنهم منها يأكلون.
- ذكر في يس والنّحل أن لهم فيها منافع.
- ذكر في النحل أنّ لهم فيها دفئًا ولم يذكر ذلك في يس، وهو يدخل في المنافع التي ذكرها في يس
- ذكر في النّحل أنّ لهم فيها جمالاً حين يريحون وحين يسرحون " (1)

والحاصل أنّ إسناد الضمير إلى الله تعالى فيه مزيد إنعام وتفضل وإكرام، إذ لا يمكن القول بحال من الأحوال أنّ سبب مجيء الضمير ههنا بشكل وفي موضع آخر بشكل آخر هو من باب تنويع الخطاب والتفنّن في التعبير، فنسق القرآن نظام صارم لا يقبل التداخل أو الاستبدال دون مراعاة جانب المعنى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس: ٨٠]

جاءت الآية في سياق استبعاد أهل الكفر للإحياء بعد الإماتة، فلفت القرآن أنظارهم إلى أمرٍ أدعى الاستبعاد والعجب، وهو أن جعل لهم من الشّجر الأخضر نارًا يوقدون منه، وهو أمرٌ مستبعدٌ في المألوف، لأنّ الماء تُطفئ النّار فذكر قدرته على ما هو مستبعد في تفكيرهم مما يعرفونه ويألفونه، والمقصود بالشجر هنا عموم الشّجر إلاّ أنّه أظهر ما يكون ذلك في شجرتي المرخ والعفّار فيؤخذ قضيب كالسواك من كل شجرة من هاتين الشجرتين فيسحق المرخ على العفار وهو يقطر ماءً فتنقدح النّار وهو ما يعرفونه ويستعملونه في الوقود وهو أعجب شيء وأبعده في الذّهن " (2)

بدأ بالاستدلال بخلق الإنسان من نطفة، ثم استدلّ بما هو مستعجب مما حولهم وهو اتقاد النّار من الشّجر الأخضر ثم ترقّى إلى خلق السموات والأرض وهو أعظم وأعجب، ذلك أنّه ذكر للإنسان مبدأ خلقه منه وهو النّطفة، وذكر للنّار أصلاً تخرج منه وهو الشّجر الأخضر، ولم يذكر للسموات والأرض شيئًا خلقهما منه، وهذا أعظم وأعجب فإنّ الخلق من العدم المحض أعجب وأدل على القدرة، وعلى هذا فلا داعي

(1) المصدر السابق، ج2 ص: 250-251.

(2) المصدر نفسه، ج2 ص 275.

لاستبعاد البعث بعد الموت فإنّ أجزاءهم موجودة، وأنّ جمعها وإعادتها أيسر من خلق شيء ليس له مادة ولا وجود ابتداءً وهو خلق السموات والأرض " (1)

وجاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس: ٨١] ولم يقل: (على أن يُعيدهم) وذلك ليدلّ على أنّه قادرٌ على ما هو أعجب وهو أن يُنشئ خلقًا آخر أمثال هؤلاء من غير نُطفٍ ولا أجزاء متفرّقة كما خلق السموات والأرض ابتداءً من غير شيء، فذكر ما هو أبعد في الخلق وأعسر من الإعادة " (2)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يس: ٣٣ – ٣٥]

وقدّم – في الآية – شجرة النّخيل على العنب لأنّها أفضل منها؛ فإنّ فوائد النّخلة كثيرة ولا يخلو أيّ جزءٍ منها من فائدة، ولا تُقاس شجرة العنب بالنّخلة من حيث الفائدة، فشجرة العنب ضئيلة الفائدة بخلاف ثمرها، جاء في التفسير الكبير في المواضع التي ذكر الله الفواكه لم يذكر التّمر بل ذكره بلفظ شجرته وهي النّخلة، ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب ولم يذكر الكرم، وذلك لأنّ العنب شجرته بالنّسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة، والنّخل بالنّسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى، فإنّ كثيرًا من الظروف منها يُتّخذ وبلحائها يُنتفع، ولها شبه بالحيوان فاختار منها ما هو الأعجب منها " (3)

---

(1) المصدر السابق: ج2 ص: 276.

(2) المصدر نفسه: ج2 ص: 276.

(3) ينظر: التفسير الكبير، ج 26 ص: 67 وعلى طريق التفسير البياني، ج2 ص: 122.

وقدّم العنب على النّخيل في مواطن أخرى حسب ما يقتضيه سياق الآيات فجاء في عبس قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [عبس: ٢٤ – ٢٩] وجاء في الرعد قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ [الرعد: ٤] وسبب تقديم العنب على النّخيل في هذين الموضعين هو أنّ آيات عبس ذكر فيها الأطعمة مثل الحب والعنب والزّيتون، أمّا النّخل فإنّه ليس بطعام، وإنّما هو اسم للشجرة التي تحمل التّمر، في حين أنّ المذكور قبلها هو الثمر، فكلّ من العنب والزيتون ثمر، والحَبّ طعامٌ أمّا النّخل فهو شجرٌ، فلمّا قال: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ قدّم الأطعمة وأخّر الشجر، ولِذا جعل النّخل بجنب الحدائق فقال: ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [عبس: ٣٠] هذا من ناحيّة.

ومن ناحيّة أخرى أنّه رتّب المذكورات بحسب الكثرة؛ فالحَبّ أكثر المذكورات وجودًا وإنتاجًا في العالم، ثم العنب وهو أقل من الحَب وأكثر من الزيتون ...ثم ذكر الزيتون وهو أقل من العنب ثم النّخل وهو أقلّ، وإنتاجه في العالم أقل بكثير من الزّيتون، وهو لا يُثمر إلا في أجواء خاصّة وليس مُنتشرًا في الأرض انتشار الزيتون؛ فرتّب الأطعمة بحسب كثرتها في العالم "(1)

فالتقديم والتأخير في القرآن الكريم محكومٌ بقوانين الدلالة وأسرار المعاني وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن – كما في غيره– الذّروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقرّ في مكانها المناسب، ولم يكتفِ القرآن في وضع اللفظة بمراعاة السّياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملةً في القرآن الكريم كلّه؛ فنرى التّعبير مُتّسقًا مُتناسقًا مع غيره من التعبيرات كأنّه لوحة فنّية واحدة مكتملة.

(1) على طريق التفسير البياني، ج2 ص: 123

إنّ القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بجنب بعض دقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامّة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كلّ ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة " (1)

****

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص: ١٨ – ١٩]

جاء في الآية توظيف المضارع (يسبحن) مع (الجبال) وهو زمنٌ دالٌّ على التجدّد، وحدوث الأمر شيئًا بعد شيءٍ، لأنّ تسبيح الجبال أمرٌ مُتجدّد لداود عليه السلام واستعمل الاسم (محشورة) للطير، لأنّ الطير لا تُحشر شيئًا فشيئًا، بل تُحشرُ دفعة واحدة

وذلك أنّهُ لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن، على أنّ الحشر يوجد من حاشرها شيئًا بعد شيءٍ، والحاشر هو الله عزّ وجلّ لكان خلفًا؛ لأنّ حشرها جملة واحدة أدلّ على القدرة " (2)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [غافر: ٧٩ – ٨١]

جاء في هذه الآية (جعل) وفي يس (خلق) فقال: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ والجواب عن ذلك أنّ في سياق سورة يس ختمت الآية بقوله: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ وفي ختام آية غافر جاء قوله: ﴿ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ ففي آية يس جاء بما هو أدعى للشكر، فالقول: (خلقته لك) أدل على الاهتمام والعناية من (جعلته لك) ذلك أنّ الخالق له إنّما جعله

(1) ينظر: التعبير القرآني، ص: 53

(2) ينظر: الكشاف، ج3 ص: 365، و في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ص: 142

له ابتداءً قبل إيجاده، أمّا الجعل فلا يشترط فيه ذلك " وهذا وجه من وجوه المناسبة في التعبير بـ (خلق) في يس و(جعل) في غافر.

وفي نسق الآيتين ما يوضح ذلك أيضًا فقد ورد في يس قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يس: ٧١ – ٧٣]

ففي كل جملة في الآية ما يناسب ذكر الخلق، بخلاف ما جاء في غافر حيث ورد قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [غافر: ٧٩ – ٨١.]

* * * * *

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى: ٢٨ – ٢٩]

في الآية تذكير بجانب من فضل الله على العباد في كل زمان ومكان ، فإذا امسك الله عنهم الغيث أدركهم اليأس والقنوط، وهي صورة محسوسة على مدى الدهر، وفيها دليل آخر من دلائل القدرة الإلهية ولاسيما أنّ في السامعين مشركين يظنو

ن نزول الغيث من تصرف الكواكب، وفيهم المسلمون الغافلون، نزلوا منزلة من يظن نزول الغيث منوطا بالأسباب المعتادة لنزوله " [1]

وجاء التعبير بصيغة المضارع (ينزل) لإفادة الحدوث والتجدد، وفي لفظ (الغيث) مناسبة لمعنى الخير والرحمة، وهو مأخوذ من الغوث أي النصرة، " فالغوث يقال في النصرة، والغيث يقال في المطر، واستغثته

(1) التحرير والتنوير: ج 25 ص: 95.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طلبتُ الغوث أو الغيث فأغاثني من الغوث، وغاثني من الغيث " [1] وكأنّ في معنى الغيث استجابة لطلب العون والنّجدة وتلبية لنداء المضطر وقت الضيق والكربة.

ولم يُذكر (المطر) في التعبير القرآني إلاّ في مواطن العذاب، وفي ذلك يقول الجاحظ: " ألا ترى أنّ الله سبحانه وتعالى لم يذكُر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنّك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث" [2] واعتبر الخطابي اختيار اللفظ المناسب للموقع المناسب عمود البلاغة القرآنية" [3]

فالصورة القرآنية تعرض حال هؤلاء وقد أصابهم اليأس والقنوط وهم على إشراكهم فلا يغاثون من تلك الآلهة، فيقفون عاجزين أمام هذا البلاء، وإذا بالمنعم القادر ينزل عليهم ما يغيثهم ويمنحهم سر الحياة، ليستيقنوا أنّ الله هو الإله الحق وأنّ ألهتهم لا تضر ولا تنفع، وجاء في الآية توظيف الفعل (ينشر) للدلالة على التجدد والاستمرار، والنشر هنا مستعار للتوسيع والامتداد [4] وهو ملائم لهذا السياق إذ أنّ منافع الغيث كثيرة، فهي تنتشر على الخلائق من دون استثناء؛ والتعبير عن آثار الغيث بـ (ينشر رحمته) يوحي بظلال النداوة والخضرة والرجاء والفرح، فتبتهج النفس بتفتح النبات في الأرض وارتقاب الثمار، فمشهد الغيث بعد الجفاف له أثر نفسي كبير، فهو مشهد يريح الحس والأعصاب، ويندي القلب والمشاعر، وينفض هموم القلب وتعب النفس " [5] .

وخُتمت الآية بما يناسب موطن النعمة والرحمة، فيأتي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فالولي يُحسن إلى عباده بالرحمة والمغفرة، والحميد يعطي ما يحمد عليه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) المفردات في غريب القرآن، غوث
(2) البيان والتبيين، ص: 20
(3) بيان إعجاز القرآن، ص: 29
(4) التحرير والتنوير، ج 25 ص: 96 .
(5) في ظلال القرآن، ج5 ص: 317.

وجاء في الآية بعدها قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ فذكر الآيات بصيغة الجمع لأنّ خلق السموات والأرض آية، وما بثّ فيهما من دابة آية أخرى، وفي القدرة على جمعهم آية أيضًا، وفي عَود الضمير في قوله: فيهما على كل من السموات والأرض، دلالة على أنّ في السموات مخلوقات أخرى من غير الملائكة، لأنّ القرآن قد نصّ في موضع آخر على أنّ الدواب مخلوقة من الماء ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥] بخلاف الملائكة فهي مخلوقة من نور.

****

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٣]

جاء في هذه الآية تسخير السفن وتسخير البحر وتسخير الرياح، وهي آيات من آيات الله ودلائل قدرته، ومشهد وصف هذه النعم يتسم بالحركة، فيعدل التعبير القرآني عن (الفلك) إلى لفظ (الجواري)، وفي ذلك إيماء إلى محل العبرة، لأن العبرة في تسخير البحر لجريها، وتفكير الإنسان في صنعها [1] ويوحي استخدام حرف الظرفية (في) بعظمة هذا الفعل وقدرته تعالى في هذا التسخير ولاسيما أنه جاء مع وصفها بالجري في حين استخدم (على) في وصفها بالركود، فناسب كل حرف موضعه من النظم.

وتتجلى في هذه الصورة إحدى خصائص التشبيهات القرآنية وهي اتخاذ الطبيعة ميدانا يقتبس منها صور تشبيهاته، كما تتجلى فيه دقة اختيار الألفاظ الموحية، واتساقها مع الغرض الذي سيقت من أجله، وهو ذكر النعم الإلهية ودلائل القدرة حثا للمخاطبين على الشكر والطاعة، والتّشبيه في القرآن وسيلة لإيضاح طريق الهداية والإرشاد بإثارة المقارنة والحث على التأمل والنظر من أجل الاعتبار.

****

(1) التحرير والتنوير، ج 25 ص: 105.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قَالَ تعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية: ٣ – ٥] جاء في الآية ذكر المؤمنين أولاً ثم قال: ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ثم ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فما الحكمة من وراء من هذا الترتيب؟

قال فخر الدين الرازي: أراد إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل وإلاّ فإن كنتم طلاّب الحقّ واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهِدوا في معرفة هذه الدلائل " (1)

وذكر الزمخشري أنّ معناه إنّ المصنَّفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النّظر الصحيح علموا أنّها لا بد لها من صانعٍ فآمنوا به وأقروا، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حالٍ إلى حال، وفي خلق ما بثّ من الدواب على ظهر الأرض ازدادوا إيمانًا وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس، وإذا نظروا في سائر الحوادث كاختلاف الليل والنّهار ونزول الأمطار التي هي سبب الأرزاق وحياة الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح جنوبًا وشمالاً وقبولاً ودبورًا، عقلوا واستحكم عقلهم وخلص يقينهم " (2)

وذهب النيسابوري مذهبًا آخر فقال: " الدلائل المذكورة في هذه الآيات قسمان: نفسية وخارجية، فالنّفسية أولى بالإيقان لأنّه لا شيء أقرب إلى الإنسان من نفسه، والخارجية بعضها فلكية وبعضها آثار علوية، فالفلكية لبُعدها عن الإنسان اكتفى فيها بمجرد التّصديق، وأمّا الآثار العلوية فكانت أولى بالنّظر والاستدلال لقربها وللإحساس بها فلا جرم خُصّت بالتعقّل والتدبر" (3).

وجاء في الآية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ لما كان خلق السموات والأرض غيرَ مُشاهَد ولا متجدد في كل مرّة بل هو

---

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ج6 ص: 110.

(2) المصدر نفسه: ج6 ص: 110– 111

(3) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج6 ص: 111

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثابت مستقر ناسب ذلك ورود الكلمة بصيغة " الاسم"، أمّا خلق الإنسان وما يبث من دابة في الأرض، واختلاف الليل والنّهار ونزول الماء من السماء، وتصريف الرياح فهي آيات مُشاهدة باستمرار متجددة الحدوث فناسب الحديث عنها بصيغة " الفعل المضارع".

****

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾ [الرحمن: ١ - ١٠]

جمعت السورة بين معانٍ مُتعدّدة ضمن نسق مُناسِبٍ للغرض الذي سيقت له السورة؛ حيث " أنّه بدأ أوّلاً من النّعم بذكر القرآن الذي هو بيان الشرائع والتكاليف، ثم أتبعه ذكر كيفية خلق الإنسان وقواه النفسانية وما يتمّ به معاشه من السماويات والأرضيات، ثمّ ذكر أنّه خلق لأجلهم آلة الوزن بها يقيمون العدالة في معاملاتهم وأمور تمدّنهم ...وفي تكرير لفظ الميزان بل في ورود هذه الجمل المتقاربة الدلالة مُكررة إشارة إلى الاهتمام بأمر العدل وندب إليه وتحريض عليه " (1)

وهذه واحدة من الغايات الكبرى التي سيقت من أجلها الآيات الكونية في القرآن الكريم، فهي ترد في مواضع للاستدلال على الحشر والمعاد، وفي مواطن لبيان النّعمة والتفضل، وترد في سياقات للكشف عن عظمة الخالق وحكمته وتدبيره... إلى غير ذلك، وهذا واحد من المقاصد التي تكشف عن منهجية القرآن في عرض الآيات الكونية وغيرها من الموضوعات القرآن دون حاجة إلى أبواب مرتّبة حسب ما تقتضيه المنهجية التي صاغها البشر في شتى صنوف المعرفة.

****

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ ﴾ [الرحمن: ٣٣ – ٣٥]

(1) المصدر السابق، ج6 ص: 228

قال الرازي: كيف ثنى الضمير في قوله: ﴿عَلَيْكُمَا﴾مع أنه جمع قبله بقوله:﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ والخطاب مع الطائفتين وقال: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ وقال من قبل:﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ تقول فيه لطيفة وهي أنّ قوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ لبيان عجزهم وعظمة ملك الله فقال: إن استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا، ولا تستطيعون لعجزكم، فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم ببعض؛ فهو عند افتراقكم أظهر، فهو خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام إلى جميع من عداه من الأعوان والإخوان.

وأما قوله تعالى:﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ فهو لبيان الإرسال على النوعين لا على كل واحد منهما، لأن جميع الإنس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ولا يخرج أحد من الأقطار أصلاً، وهذا يتأيد بما ذكرنا أنه قال: لا فرار لكم قبل الوقوع ولا خلاص لكم عند الوقوع لكن عدم الفرار وعدم الخلاص ليس بعام.

والجواب الثاني: من حيث اللفظ، وهو أنّ الخطاب مع المعشر فقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ أيها المعشر وقوله: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ ليس خطاباً مع النداء بل هو خطاب مع الحاضرين، وهما نوعان وليس الكلام مذكوراً بحرف واو العطف حتى يكون النوعان مناديين في الأول، وعند عدم التصريح بالنداء؛ فالتثنية أولى كقوله تعالى:﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وهذا يتأيد بقوله: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ الرحمن: ٣١ وحيث صرح بالنداء جمع الضمير وقال بعد ذلك ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث لم يصرح بالنداء "[1].

****

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج: ٨ – ٩]

(1) التفسير الكبير، ج29، ص100-101.

هذا وصف لِحال الكون في مرحلة النهاية، ومعنى كون السّماء كالمهل: أي كدردي الزّيت، أو كالفضة المذابة، والعهن: هو الصوف المصبوغ ألواناً " [(1)] والتعبير بلفظ العهن – في هذا السياق مناسبٌ — لوصف الجبال بأنّ منها ﴿ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمۡرٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [فاطر: ٢٧]

وإنّما قال في هذه السّورة ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴾ وفي القارعة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥] فزاد في اللفظ، والجواب عن ذلك: أنّهُ لما ذكرَ القارعة في أوّل السّورة ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ من القرع وهو الضّرب بالعصا ناسبَ ذلك ذكر النّفش لأنّ من طرائق نفش الصّوف أن يُقرع بالمقرعة، كما ناسب ذلك من ناحيّة أخرى وهي أنّ الجبال تُهشم بالمقراع " وهو من القرع" وهو فأسٌ عظيمٌ تُحطّم به الحجارة، فناسب ذلك ذكر النّفش أيضًا، فلفظ ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ أنسبُ شيءٍ لهذا التعبير،كما ناسب ذِكر ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ ذكر ﴿ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾ في قوله: ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾ أيضًا لأنّك إذا قرعتَ طار الفراش وانتشر ولم يُحسن ذكر ﴿ كَٱلۡفَرَاشِ ﴾ وحده كما لم يُحسن ذكر ﴿ كَٱلۡعِهۡنِ ﴾ وحده. وأيضًا فإنّهُ ذكر في سورة المعارج أنّ العذاب ﴿ وَاقِعٖ ﴾ وأنّه ﴿ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴾ ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ ﴾ [المعارج: ١ – ٢] ووقوع الثقل على الصّوف من غير دفع له لا ينفشه بخلاف ما في القارعة؛ فإنّه ذكر القرع وكرّره، والقرع ينفشه وخاصّة إذا تكرّر فناسبَ ذلك النّفش فيها أيضًا، ناسبَ ذكر العهن المنفوش أيضًا قوله في آخر السّورة: ﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ لأنّ النّار الحاميّة هي التي تُذيب الجبال وتجعلها كالعهن المنفوش، وذلك من شدّة الحرارة؛ في حين ذكر صفة النّار في المعارج بقوله: ﴿ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ والشّوى هو جلد الإنسان، والحرارة التي تستدعي نزع جلد الإنسان أقل من التي تُذيب الجبال وتجعلها ﴿ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ فناسب زيادة ﴿ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ في القارعة من كلّ ناحيّة، كما أنّ ذكر النّار

(1) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج6 ص: 357.

الحامية مُناسبٌ للقارعة من ناحيّة أخرى، ذلك أنّ "القرّاعة" وهي من لفظ القارعة وهي القداحة التي تُقدح بها النّار، فناسب ذكر القارعة ذكر الصوف المنفوش وذكر النّار الحاميّة فناسب آخر السّورة أوّلها [1]

وأعاد ذكر الفعل ﴿ تَكُونُ ﴾ للفصل بين الآيتين، وبيان أنّ كل آية بذاتها تُصوّر عظمة المشهد، وهول المطلع في ذلك اليوم، ثم إنّ هذا الكون المحكم والمتماسك سيأتي عليه اليوم الذي ينتهي فيه إلى التشتت والسقوط، ولذلك جاء الحديث عن نهاية الكون في القرآن بأسلوب يُناسب مقام ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ﴾ [التكوير: ١ — ١٣] فأعاد لفظ ﴿ إِذَا ﴾ مع كلّ آية للدلالة على أنّ كلّ جزءٍ من أجزاء هذا الكون العظيم سيصيرٌ بمفرده مثارًا للرعب والفزع، فكيف الحال إذا شاهد الإنسان تحوّل كل هذه الأجزاء دفعة واحدة ؟

وجمع في هذه السّورة بين السّماء والجبال لِما فيهما من عظمة الخلق والإحكام، فالسّماء التي كانت رمزًا للثبات وإحكام البناء وعظمة الخلق سيصير حالها كحال ما يأتي عليه الذوبان من الأشياء، والجبال التي من معانيها الثبات والعظمة أيضًا ستكون كأخفِّ الأشياء وزنًا فيما يراه الإنسان.

ومما يدلّ على عظمة الآيات الكونيّة وقيمتها في حياة الإنسان وكونها مُسّخرة لخدمته، ودليلاً يربطه بخالقه هو أنّ نهايتها هي نهايةٌ للإنسان على مسرح هذا الوجود.

قرأ قارئ: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ [التكوير: 3] وفي الحاضرين أبو الوفاء ابن عقيل، فقال له قائل: يا سيّدي هبْ أنّه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوّج النفوس بقرنائها للثواب والعقاب، فلمَ هدم الأبنية وسيّر الجبال، ودكّ الأرض وفطر السماء، ونثر النّجوم وكوّر الشمس ؟

---

(1) فوائد قرآنية: دقائق تفسيرية منتقاة، ص: 395-396.

فقال: إنّما بنى لهم الدار للسكنى والتّمتّع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتّفكّر، والاستدلال عليه بحسن التّأمّل والتّذكّر، فلمّا انقضت مُدّة السكنى وأجلاهم من الدّار خرّبها لانتقال السّاكن منها... وفي إحالة الأحوال وإظهار تلك الأهوال وبيان القدرة بعد بيان العزّة، وتكذيبٌ لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعُبّاد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا أنّ منار آلهتهم قد انهدم، وأنّ معبوديهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالُّها قد تشقّقت، ظهرت فضائحهم، وتبيّن كذبهم، وظهر أنّ العالم مربُوبٌ مُحدَثٌ مُدبَّر، له رب يصرفه كيف يشاء تكذيبًا للملاحِدة الفلاسفة القائلين بالقِدم، فكم لله تعالى من حكمة في هدم هذه الدّار، ودلالة على عظم عزّته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية، وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره، وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله رب العالمين " (1)

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الواقعة: ٦٠ – ٧٣]

بدأ في هذه الدلائل بذكر خلق الإنسان لأنّ النعمة فيه سابقة على جميع النّعم، ثم أعقبه بذكر ما فيه قوام النّاس وقيام معايشهم وهو الحَب، ثم أتبعه الماء الذي به يتمّ العجين، ثم ختم بالنّار التي بها يحصل الخبز، وذكر عقيب كل واحد ما يأتي عليه ويفسده، فقال في الأولى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ وفي الثانية: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ وفي الثالثة: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ ولم يقل في الرابعة ما يفسدها بل قال: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ تتعظون بها ولا تنسون نار جهنم ...وفي نسق هذه الآيات بشارة للمؤمنين، وذلك أنّه سبحانه بدأ بالوعيد

(1) ينظر: بدائع الفوائد: ج 1ص: 113

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشديد وهو تغيير ذات الإنسان بالكلية في قوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ ثم ترك ذلك المقام إلى أسهل منه وهو تغيير قُوتِه ذاتًا فقال: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ ثم عقبه بأسهل وهو تغيير مشروبه نعتًا لا ذاتًا ولهذا حذف اللام في قوله:

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ ...ثم ختم بتذكير النّار وفيه وعد من وجه ووعيد من وجه: أمّا الأول: فلأنّه لم يُبيّن ما يُفسدها كما قلنا يدل على أنّ الختم وقع على الرّأفة والرحمة، وأمّا الثاني: فلأنّ عدم ذكر مُفسدها يدلّ على بقائها في الآخرة "[1] وهذا الكلام مناسب لنهاية الآية في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾

* * * * *

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: ١٩] ألم تر: تستعمل العرب هذا التعبير بمعنيين: **أحدهما:** هو السؤال عن الرؤية البصرية أو القلبية، كأن تقول: ألم ترَ خالدًا اليوم ؟ أو تقول: ألم تر الأمر كما رأيتُه ؟ **والآخر** بمعنى: (ألم تعلم) و (ألم ينتهِ علمك) وهي كلمة تقولها العرب عند التعجيب، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ [النحل: ٧٩] وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٧]

فهناك فرق بين القول: (ألم يروا الطير مسخرات) و ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ ﴾ فالرؤية الأولى رؤية بصرية، والثانية نظر عقلي وتفكّري، أي: ألم ترَ، فتمتد بك الرؤية إلى ما ذُكر لك من الأحوال، فتعجب من هذا الصّنع الخلاق ؟

ونحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء: ٧٧] أي: ألم تعجب من حالهم ؟ فهناك فرق بين قولك: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ ﴾ وهذا القول، فالأولى

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج6 ص: 244

رؤية بصرية، والثانية نظر تفكّري، ودعوة إلى العجب من أمرهم، ونحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان: ٤٥] وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: ٦] " (1)

وذكر في آية النّحل أنّ الطير مسخرات، وهو من باب القهر والتذليل، وليس من باب الاختيار، فأسند ذلك إلى الله، أمّا في آية الملك فقد قال: إنهن " صافات ويقبضن" بإسناد ذلك إلى الطير، فهو من باب التمكين للطير، وهو أنسب بالرحمة، وذكر في سورة الملك شيئًا من الراحة للطير، وهو قوله: "صافات" وهو سكون الحركة، فناسب ذلك ذكر الرحمة " (2)

وكلّ ذلك مما هو مُسخّر لحياة الإنسان؛ فنحن نرى أنّ كلاًّ من حركة الفلك ونظام الكون ووظائف المكونات المختلفة إنّما يجري وفقًا لحاجة الإنسان وخدمته، فالإنسان يُمثّل في هذا الوجود الذي من حوله قطب الدائرة، على حين ينجذب إليه مختلف الموجودات الأخرى في تطوافٍ دائبٍ وسعي مستمر لتنسج له مقومات الحياة الفضلى وتهيئ له متطلباته وحاجاته المختلفة " (3)

فإن قيل لِمَ قال: ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ولم يقل و "قابضات" ، قلنا: لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في كل منهما مد الأطراف وبسطها، والقبض طارئ على البسط لأجل الإعانة، فالمعنى أنّهن صافات ويكون منهن القبض في بعض الأوقات كما يكون من السابح " (4) فالاسم (صافات) يدل على الثبوت والاستقرار، والفعل (يقبضن) يدل على الحدوث وعدم الاستقرار.

إنّ الذي خلق الأسباب كلها هو الله سبحانه، والفاعل الحقيقي هو الله خالق الأسباب والمتصرف فيها، ومثل ذلك ما يصنعه الإنسان من طائرات إنّما هو بعلم من الله، وقدرته، فهي تطير وتحلّق بما أودعه الله في الكون من خصائص تتناسب مع وجه تسخيرها للإنسان، بخلاف ما يعتقده الماديون، وإنّما جاء في هذه الآية ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ وفي آية النّحل: ﴿ مَا

(1) معاني النحو، ج2 ص: 13.
(2) أسئلة بيانية، ج1 ص: 172_173.
(3) كبرى اليقينيات الكونية، ص: 248
(4) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج6 ص: 329

﴿ يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [النحل: ٧٩] لأنّه " ذكر في آية النّحل أنّ الطير مسخرات، وهو من باب القهر والتذليل، وليس من باب الاختيار، فأسند ذلك إلى الله، أمّا في آية الملك فقد قال: إنهن " صافات ويقبضن" بإسناد ذلك إلى الطير، فهو من باب التمكين للطير، وهو أنسب بالرحمة. ذكر في سورة الملك شيئًا من الراحة للطير، وهو قوله: صافات وهو سكون الحركة، فناسب ذلك ذكر الرحمة " (1)

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته — جّل وعلا- على وجوب توحيده في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقرّوا بربوبيته احتجّ بها عليهم على أنّه هو المستحق لأن يُعبد وحده، ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنّه هو الرّب وحده، لأنّ من اعترف بأنّه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنّه هو المستحق لأن يُعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾[يونس: ٣١] فلمّا أقرّوا بربوبيته وبّخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]

ومنها قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ فلمّا اعترفوا وبّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ — ٨٥] ثم قال:﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ فلمّا أقرّوا وبّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله:﴿ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ثم قال:﴿ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ فلمّا أقرّوا وبّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله:﴿ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾[المؤمنون: 84-89]

(1) أسئلة بيانية ج1 ص 172_173

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٠]

ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتّة غيره: هو أنّ القادر على خلق السموات والأرض وما ذكر معها، خيرٌ من جمادٍ لا يقدر على شيء، فلمّا تعيّن اعترافهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ ولا شك أنّ الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله، فلمّا تبيّن اعترافهم وبّخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١]

ثم قال – جل وعلا- ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢] ولا شك أنّ الجواب كما قبله، فلمّا تبيّن اعترافهم وبّخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾... والآيات بنحو هذا كثيرة جدًّا [(1)]

والحاصل أنّ كل الأسئلة المتعلّقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يُراد منها أنّهم إذا أقرّوا رتّب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار، لأنّ المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة... وإن زعم بعض العلماء أنّ هذا استفهام إنكار، لأنّ استقراء القرآن دلّ على أنّ الاستفهام المتعلّق بالربوبية استفهام تقرير، وليس استفهام إنكار، لأنّهم لا ينكرون الربوبية " [(2)]

والكون بما فيه هو في الواقع أثر من آثار القدرة الإلهية التي لا تخفَى حتى على البشر – من آمن منهم ومن كفر– وكل ما فيه من مخلوقات هو مُسخّر لخدمة الإنسان " فأنت ترى أنّ كلاًّ من حركة الفلك ونظام الكون ووظائف المكونات المختلفة إنّما يجري وفقًا لحاجة الإنسان وخدمته، فالإنسان يُمثّل في هذا

(1) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ج3 ص: 490- 492

(2) المصدر نفسه، ج3 ص: 493

الوجود الذي من حوله قطب الدائرة، على حين ينجذب إليه مختلف الموجودات الأخرى في تطواف دائب وسعي مستمر لتنسج له مقومات الحياة الفضلى وتهيئ له متطلباته وحاجاته المختلفة " (1)

* * * * *

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح: ١٩ – ٢٠]

هذا موضع من مواضع إظهار النّعمة فناسبه مجيء وصف الأرض بـ " البساط"، ففي أغلب المواضع التي تكون في سياق النّعمة يأتي التعبير بصيغة " الاسم" لدلالته على الاستقرار والثبوت.

والبساط في اللغة: هو النشر والتّوسيع، فتارة يُتصوّرُ منه الأمران، وتارةً يُتصوّر منه أحدهما، بسط الثوب: نشره، ومنه البساط: وهو اسم لكل مبسوط، والبَساط بالفتح: الأرض المنبسطة، والمستوية، والبسيطة: الأرض، واستعار قومٌ البسيط لكل شيء لا يُتصوّر فيه تركيب...وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾[الشورى: ٢٧] أي: وسّعهُ و ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] زاده بسطة الجسم أي سعة "(2)

وقدم الفجاج على السبل في الآية الأولى، وأخرها عنها في آية نوح "وذلك أنّ الفج في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلمّا تقدّم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدّم الفجاج لذلك، بخلاف آية نوح فإنه لم يرد فيها ذكر للجبال فأخّرها " (3)

والغالب في أساليب القرآن وعاداته في التقديم والتأخير أن يُقدّم ذكر السموات على الأرض والشمس على القمر والليل على النّهار، ولكلّ ذلك أغراض متباينة فقد يأتي أيضاً للتشريف أو للكثرة أو للتخصيص والتعظيم وقد تأتي على أساس الرتبة أو على أساس السبق وغيرها من الأغراض.

****

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ ﴾ [المرسلات: ٨ – ١١]

(1) كبرى اليقينيات الكونية: ص: 248

(2) بصائر ذوي التمييز: مادة بسط، ج2 ص: 218

(3) التعبير القرآني: ص: 63

قال ابن عاشور: كُرّرت كلمة " إذا" في أوائل الجمل المعطوفة على هذه الجملة بعد حروف العطف مع إغناء حرف العطف عن إعادة " إذا" في قوله:﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾ [القيامة: ٧ – ١٠] لإفادة الاهتمام بمضمون كلّ جملة من هذه الجمل، ليكون مضمونها مُستقلاّ في جعله علامة على وقوع ما يوعدون، وبناءُ هذه الأفعال الثلاثة بصيغة المبني للمجهول لأنّ المقصود الاعتبار بحصول الفعل لا بتعيين فاعله، على أنّه من المعلوم أنّ فاعلها هو الله تعالى، إذ لا يقدر عليه غيره " [1]

و كلّما تدبّر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمّله للصنيعة، وما أودع من لطائف البرّ والحكمة، علم بذلك أنّها خُلقت للحق وبالحق، وأنّها صحائف وآيات وكتب، دلالات على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبر به الرسل من اليوم الآخر، وأنّها مسخراتٌ ليس لها تدبير ولا استقصاء على مُدبّرها ومصرفها، فتعرف أنّ العالم العلوي والسفلي، كلّهم إليه مفتقرون وإليه صامدون، وأنّه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلاّ الله ولا ربَّ سواه " [2]

وإلى جانب التناسق البديع والتناغم الحاصل بين أجزاء الوجود ومكوناته نجد التناسق التام في الحروف والألفاظ والعبارات التي تُعبّر عنها؛ فالنظم القرآني –كما رأيت– على درجة مُعجزة من التميّز والبلاغة، إنّه نمط فريد من تأليف الكلام، يقع فيه كل لفظ في موقع مناسبٍ لا يمكن معه أي تغيير وإلاّ فقد الكلام دلالته التي يُساق من أجلها، لا يُمكن تقديم اللفظ إن كان مؤخّرًا، أو تأخيره إن كان مُقدّمًا، أو حذفه إن كان مذكورًا، أو ذكره إن كان محذوفًا، أو تعريفه إن كان نكرة، أو تنكيره إن كان معرفة، إلى غير ذلك من وجوه النّظم...والتي تُعدّ من أبرز جوانب الإعجاز البلاغي في كتاب الله ﷻ " [3]

ومن الضروري أن نؤكّد أنّ القرآن الكريم ليس بحاجة إلى الإثبات بمعطيات العلم ونتائجه، بل العلم الوضعي هو الذي تحتاج مفاهيمه ونتائجه إلى إثبات القرآن لها " ولا غرابة في اتّصال القرآن الكريم بالعلوم جميعها، فما العلوم إلاّ نتاج تطلب الإنسان أسرار الفطرة، والقرآن الكريم هو كلام الله فاطر الفطرة، فلا غرو أن يتطابق القرآن والفطرة وتتجاوب كلماتهما وإن كانت الفطرة وقائع وسُننًا وكلمات القرآن عبارات وآيات

(1) ينظر: فوائد قرآنية: دقائق تفسيرية منتقاة، ص: 413

(2) تيسير الحنان المنّان في تفسير كلام المنّان: عبد الرحمان بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، ط2: 1996م، ص: 87.

(3) في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ص: 152

تتضح منها إشارات وتنبههم وفق ما اقتضته وتقتضيه حكمة الله في مخاطبة خلقه، ليأخذ كل عصر منها على قدر ما أوتي من العلم والفهم " (1)

والإعجاز يتحقّق بعدم الإتيان أو انعدام القدرة على الإتيان بما يماثل أو يعادل الدرجة التي جاءت عليها نصوص الوحي من النظم والترتيب اللغوي الفائق، فالفرق إذن بين الإنشاءات اللغوية للبشر وبين نص من نصوص الوحي في المجال اللغوي والبياني يكمن في الدرجة الموجودة فاصلا بينهما وإن لم يكن من المستطاع تقدير عظم هذه الدرجة الموجودة من الفرق نظرا لما يتميز به نص الوحي من المرتبة العالية في النظم والبيان عن إنشاءات البشر اللغوية بجميع أنواعها ومراتبها.

ولا بد من الإشارة إلى ما هو أهم من اللغة وأدواتها ومصطلحاتها لتدبر القرآن والنظر فيه " هنا يخرج بنا النّص عن الكيان اللغوي للقرآن ويدخل في صميم الاستعداد الوجودي لبنية الإنسان؛ فقد يكون الإنسان خبيرا بالعربية وبمدلولات النص القرآني ومفاهيمه، بيد أنه معزول عن حقيقة القرآن بعدم الاستعداد، ثم إنّك أيها المغتر بفطانتك البتراء لو أنصفت قليلا... لعلمتَ أنّ المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٢] كانوا عارفين بدقائق الألفاظ وفنون تأدية الكلام على ما يوافق المرام، لأنهم من العرب العُرباء والفصحاء الدّهناء، بل إنّما انعزالهم عنه لعدم استعدادهم للاهتداء بأنوار القرآن والارتقاء إلى أعلام الحقيقة والعرفان والإطلاع على أسرار المبدأ والمعاد، والوصول إلى عالم الملكوت، والتّقرب إلى الحقّ الجواد" (2)

والقرآن لم يتحدّ بخلق ظواهر كونية كما هي في العالم المادي خارج النّص القرآني، فقد وقع الإقرار من أهل الكفر أنفسهم بانعدام المشاركة البشرية في صنع هذه الموجودات، ولكن مجال التّحدي في الإحاطة بأسرارها وحقيقتها وانتظامها داخل نصوص لغوية.

---

(1) هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي: محمّد إبراهيم شريف، دار السلام- القاهرة، 1986، ص: 37

(2) فهم القرآن: جواد علي كسار، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي- بيروت، ط2: 2010م، ص: 342-343.

خاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خاتمة

بعد ما تمّ تقديمه في ثنايا البحث يمكن قول ما يأتي:

- مهما أوتي المرء من دقة في الفهم، ومعرفة باللغة وأسرارها، فلن يستطيع سبر أغوار القرآن جميعًا، ولا كشف أبعاده كشفًا مُميّزًا نظرًا لرقي الكتاب نظمًا وتأليفًا، وأهمية العنصر اللغوي والبياني ليس المصدر الوحيد الذي يمكن لمن أحكمه أن يفهم كل مضامين الآيات الكونية.

- يجب التفريق بين الألفاظ كمفردات ترد في معاجم اللغة، وكجمل وآيات تنتظم في سياق النّص القرآني، فالنّص القرآني له معجمه الخاص، ولا يمكن أن يُتعامل معه على أنّ دلالاته تابعة لقواميس اللغة التي وضعها البشر، وأنّ قواعد صياغته تابعة لقواعد النّحو التي وضعها البشر، فالقرآن حجة على غيره وليس لغيره أن يكون حجة عليه.

- لا يمكن أن تُدرس لغة القرآن في ذاتها ومن أجل ذاتها، لأنّ مجرد التركيز على نواحي التميّز والجمال في البيان القرآني لا يمكن أن يُقدّم معرفة أو يفتح بابا من أبواب العلم في ظل حاجة الأمة إلى مخارج لأزمتها الفكرية والحضارية.

- إنّ فهم الظاهر الكونيّة في القرآن الكريم لا يتم إلاّ بالجمع بين القراءتين: الوحي والكون. فمجرد الاقتصار على قراءة دون أخرى يحول دون الوقوف عند الدلالات التي تصف حقائق الأشياء والموجودات.

- النظرية البيانيّة التي صاغتها جهود القدامى ومع ثراء مباحثها إلاّ أنّ الحاجة إلى صياغة نظرية بيانية قرآنيّة أشمل وأوسع ضرورةٌ تفرضها طبيعة النص القرآني نفسه، تحتكم إلى خصائصه الأسلوبية وأعرافه التعبيرية لفظا ومعنى ورسما وقراءة.

- تحتاج بعض دراسات المنشغلين بالتفسير العلمي والإعجاز العلمي إلى مراجعات على مستوى المنهج والمصطلح.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس العامة:

- فهرس الآيات القرآنية.
- ثبت المصادر والمراجع.
- ملخص البحث.
- فهرس المحتويات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرقم	السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
01	الفاتحة	﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ..... ﴾	05	172
02	البقرة	﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ..... ﴾	18	77
		﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ..... ﴾	21	73
		﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾	23	118-15
		﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ..... ﴾	22	72-71-68،69
		﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ... ﴾	29	77-75-73
		﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ..... ﴾	36	112-16
		﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..... ﴾	61	86
		﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ..... ﴾	71	23
		﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾	115	135
		﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾	117	84
		﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾	143	07
		﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾	164	138-42
		﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .... ﴾	178	24
		﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾	187	07
		﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ .... ﴾	229	24
		﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾	239-238	25
		﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾	247	208
		﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا .... ﴾	252	42
		﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ .. ﴾	258	74
		﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾	259	17
03	آل عمران	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ ..... ﴾	05	78

		﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ..... ﴾	07	176
		﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ ..... ﴾	29	77
		﴿ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾	41	150
		﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ..... ﴾	54	172
		﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ .... ﴾	55	16
		﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ ..... ﴾	83	167
		﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾	59	84
		﴿ كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ ﴾	117	165
		﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ ..... ﴾	133	94-93
		﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾	184	23
04	النساء	﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾	28	189
		﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ ... ﴾	77	204
		﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾	86	25
		﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ..... ﴾	87	95
		﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا ﴾	92	24
		﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ..... ﴾	137	184
05	المائدة	﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾	18-17	79
		﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ .... . ﴾	17	79
		﴿ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ..... . ﴾	44	125
		﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ .... ﴾	85-80	79
06	الأنعام	﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾	01	143-98-81
		﴿ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾	09-06	125-81
		﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم ..... ﴾	06	169-81
		﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ..... ﴾	11	169-82-81

		﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ..... ﴾	75	62
		﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ﴾	82	07
		﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ ..... ﴾	98-95	140-139
07	الأعراف	﴿ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ... ﴾	11	76
		﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ..... ﴾	25	110
		﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾	29	171
		﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ .. ﴾	54	141-82
		﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ .. ﴾	57	170
		﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ ﴾	73	150
		﴿ فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾	175	150
08	التوبة	﴿ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ..... ﴾	11	
		﴿ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ ... . ﴾	110	71
09	يونس	﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ..... ﴾	03	103
		﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾	06-05	124-33
		﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ ..... ﴾	22	172
		﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ..... ﴾	31	205
		﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ ..... ﴾	61	-103-102-85 104
		﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ ﴾	67	148
		﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾	90	39
10	هود	﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرِىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ .... ﴾	42-41	177-176
11	الرعد	﴿ وَٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكَ ..... ﴾	01	101
		﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ..... ﴾	04-02	-86-71-70 193-192-101
		﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ ..... ﴾	03	175-85
		﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ .... ﴾	15	87

		﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ ..... ﴾	41	88
12	إبراهيم	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ..... ﴾	19	95
13	الحجر	﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ..... ﴾	15-14	104-90-89
		﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ .. ﴾	20-19	113
		﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾	26	17
		﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ..... ﴾	85-80	79
14	النحل	﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ..... ﴾	17-03	142-127-113 190-175-
		﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ..... ﴾	12	127-126
		﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..... ﴾	26	71
		﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ..... ﴾	49-48	167-87
		﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ..... ﴾	65	91
		﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ. ﴾	79	204
		﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾	89	56
15	الإسراء	﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ .. ﴾	12	124
		﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾	71	16
		﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾	77	20
		﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾	88	65
16	الكهف	﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾	18	184
		﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾	47	26
17	مريم	﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾	28	161

18	طه	﴿ طه ..... ﴾	04-01	92
		﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ ..... ﴾	14	73
		﴿ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾	15	23
		﴿ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴾	20	176
		﴿ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ﴾	59	163
		﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ..... ﴾	105	183
		﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ... ﴾	108-107	183
19	الأنبياء	﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ ... ﴾	04	93
		﴿ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ ..... ﴾	30-26	97-94
		﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ..... ﴾	34-30	-97-96-95-94 143-98
		﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ..... ﴾	49-48	125
		﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا ..... ﴾	79	178
		﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ..... ﴾	81	173
		﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ ﴾	104	171
20	الحج	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ..... ﴾	18-17	167
		﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ ..... ﴾	18	167-95-87
		﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ..... ﴾	46-45	185-184
		﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ ..... ﴾	66-61	144
		﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ . ﴾	63	179-98
21	المؤمنون	﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ..... ﴾	21	180
		﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ..... ﴾	80	145
		﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ ..... ﴾	89-84	206
		﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ..... ﴾	117	86
22	النور	﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن ..... ﴾	36	145

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

		﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ..... ﴾	45	196
23	الفرقان	﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ..... ﴾	06	93
		﴿ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾	45	204
		﴿ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ..... ﴾	54-48	170
		﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ ..... ﴾	62-61	145
24	الشعراء	﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا ..... ﴾	07	204
		﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ..... ﴾	195-192	05
		﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾	212	205-65
25	النمل	﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ﴾	88	25
		﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ..... ﴾	62-59	206-181-168
		﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ ﴾	65	67
		﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ ﴾	69	169
		﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ ..... ﴾	88-86	181-146
26	القصص	﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ ..... ﴾	72-71	160-139
27	العنكبوت	﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ . ﴾	15	185
		﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ .... ﴾	24	186-185
		﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... ﴾	44	186
		﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ ... ﴾	63	187
28	الروم	﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ..... ﴾	19	171
		﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾	46	170

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

29	لقمان	﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ ..... ﴾	11-10	101-100
		﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾	13	07
		﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ ..... ﴾	20	129-128
		﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ ..... ﴾	28	129
		﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ..... ﴾	29	146
		﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا ..... ﴾	33	130
30	السجدة	﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا . ﴾	27-26	187
31	سبأ	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ..... ﴾	03	103-102
32	فاطر	﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ.. ﴾	01	170
		﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ .. ﴾	28-27	200-188
		﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ ..... ﴾	13-12	174-173-130
		﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً ..... ﴾	43	188
33	يس	﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾	39	19
		﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم .. ﴾	40-31	153-151-149 -155-154- 158-157-156
		﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ ..... ﴾	35-33	192-19
		﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ ..... ﴾	42-41	157
		﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً ..... ﴾	49	158
		﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم ..... ﴾	73-71	194-189
		﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ... ﴾	81-80	191-171
		﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾	82-81	192-171
34	الصافات	﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ..... ﴾	08-05	135

35	ص	﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ..... ﴾	17	106
		﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ... ﴾	29	38
		﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴾	58	157
36	الزمر	﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ..... ﴾	05	130
		﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ ..... ﴾	68	103
37	غافر	﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾	32	16
		﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ..... ﴾	57	171
		﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ..... ﴾	64	71-69
		﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ ﴾	81-79	195-194
38	فصلت	﴿ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ..... ﴾	05-04	77
		﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا .... ﴾	16	156
		﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ .. ﴾	12-09	-83-77-76-75 157-106-105
		﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ ..... ﴾	26	01
		﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ..... ﴾	39-37	152-151-131 159-
		﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ ﴾	42	33
		﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾	53	55-54
39	الشورى	﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾	27	208
		﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ .... ﴾	29-28	195
		﴿ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ ﴾	33-32	196-172
40	الزخرف	﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا .... ﴾	10	112
42	الجاثية	﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ..... ﴾	05-03	197
43	محمد	﴿ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾	04	24

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

		﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ ..... ﴾	34	184
44	الفتح	﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾	23	20
45	ق	﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ..... ﴾	06	49
		﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ ..... ﴾	15	171
		﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ..... ﴾	07	112
46	الذاريات	﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴾	08-07	118-114-113 119
		﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ..... ﴾	22	67
		﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾	25	25
		﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ ﴾	29	165
		﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾	48	-114-112-69 115
		﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ..... ﴾	49-47	114-106-96
47	الطور	﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ..... ﴾	10-09	26
48	الرحمان	﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ..... ﴾	10-01	198
		﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ..... ﴾	05	198
		﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ..... ﴾	18-17	133
		﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ..... ﴾	35-33	198-117-116 200-199-
49	الواقعة	﴿ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ .... ﴾	73-60	203-202-131
		﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ..... ﴾	80-57	132
50	الحديد	﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ .... ﴾	06-04	108
		﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ..... ﴾	21	94-93

51	المجادلة	﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾	04	24
52	الصف	﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾	01	67
53	الجمعة	﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾	01	67
54	الطلاق	﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ..... ﴾	12	109
55	الملك	﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ..... ﴾	04-03	114
		﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ..... ﴾	05	104
		﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾	16	67
		﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ ..... ﴾	19	205-203
56	الحاقة	﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴾	11	159-158
57	المعارج	﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ..... ﴾	02-01	201
		﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ..... ﴾	09-08	200
		﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ..... ﴾	16-15	201
		﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ ..... ﴾	41-40	135-134-133
58	نوح	﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ..... ﴾	20-15	207-136-112
59	المزمل	﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ..... ﴾	09	133
60	القيامة	﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ..... ﴾	08-07	208-137
		﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ..... ﴾	10-09	183
61	المرسلات	﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ..... ﴾	11-08	208

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

		﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ..... ﴾	24-20	109
		﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا..... ﴾	26-25	110-109
		﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ..... ﴾	27	177
62	النبأ	﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادٗا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجٗا ﴾	12-06	160–114-33
		﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا..... ﴾	20	27
63	النازعات	﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾	17	38
		﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ..... ﴾	33-27	-75-70-69 112-111
64	عبس	﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾	29-24	192-187
		﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا..... ﴾	32-27	193-188-187
		﴿ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبًّا..... ﴾	32-31	187
		﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٖ ﴾	37-34	17
65	التكوير	﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ..... ﴾	03-01	202-201-137
		﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ ﴾	16-15	23
		﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾	03	202-27
		﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ..... ﴾	18-17	146
66	الانفطار	﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ..... ﴾	03-01	137
67	الانشقاق	﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ..... ﴾	04-03	176
68	البروج	﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ..... ﴾	04-01	119-118
69	الطارق	﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ..... ﴾	03-01	120-118
		﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ..... ﴾	12-11	121-118
70	الغاشية	﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ..... ﴾	20-17	70
71	الفجر	﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ..... ﴾	06-04	204-161

72	الشمس	﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا..... ﴾	04-01	161-121-118
		﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ..... ﴾	06-05	121-118
73	الليل	﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ..... ﴾	04-01	161
74	الضحى	﴿ وَٱلضُّحَىٰ..... ﴾	03-01	162
75	العلق	﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴾	06	38
76	الزلزلة	﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ ..... ﴾	01	176-137
77	القارعة	﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴾	05	200
78	العصر	﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ..... ﴾	02-01	164
79	الفيل	﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ ... ﴾	01	95

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ✓ **المصحف الشريف برواية حفص.**
- ✓ الآية الكبرى: بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر القاهرة، ط7: 2012م.
- ✓ الإتقان في علوم القران: جلال الدين السيوطي، ت: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي: بيروت، ت ط: 1425هـ-2004م.
- ✓ أدبية النص القرآني: بحث في نظرية التفسير: عمر حسن القيام، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2011 م.
- ✓ إسلامية المعرفة: عبد الجبار الرفاعي، إشكاليات التعارض وآليات التوحيد: العلم والدين من الصراع إلى الأسلمة، مجموعة من المؤلفين، ط1، بيروت: 2008م.
- ✓ أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره: مُحَمَّد مصطفوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي: بيروت، ط1: 2009م.
- ✓ أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر أبو فهر، دار المدني- جدة، ط1: 1991م.
- ✓ الإسلام في عصر العلم: ت مُحَمَّد أحمد الغمراوي، مطبعة السعادة، مصر، ط1: 1973م.
- ✓ الإسلام والتعددية: مُحَمَّد عمارة، دار الرشاد- القاهرة، ط1: 1997م.
- ✓ أسئلة بيانية في القرآن الكريم: صالح فاضل السامرائي، مكتبة الصحابة: الشارقة-الإمارات،ط1: 1429هـ-2008م.
- ✓ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: عائشة عبد الرحمان -بنت الشاطئ- دار المعارف، مصر، 1391هـ-1971م.
- ✓ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت، ط8، 1420هـ-1999م.
- ✓ إعجاز القرآن: أبو بكر بن مُحَمَّد الطيب الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف – مصر.
- ✓ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي عبد الله بن عمر بن مُحَمَّد القاضي، دار صادر، تركيا.
- ✓ البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1413هـ- 1993م.
- ✓ البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1413هـ- 1993م

- ✓ بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزيّة، تحقيق: علي بن مُحَمَّد العمران، دار علم الفوائد.
- ✓ البرهان في توجيه متشابه القرآن لِما فيه من الحجة والبيان: محمود بن حمزة الكرماني، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.
- ✓ البرهان في علوم القرآن: مُحَمَّد بن عبد الله الزركشي، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1: 1408هـ/1988م.
- ✓ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز أبادي، تحقيق : مُحَمَّد علي النجار القاهرة ، 1384هـ/1964م.
- ✓ بلاغة الخطاب وعلم النّص: صلاح فضل، عالم المعرفة: الكويت، 1992م.
- ✓ البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري: رابح دوب، دار الفجر للنشر والتوزيع – القاهرة- ط2: 1999م.
- ✓ البنى والدلالات في لغة القصص القرآني: دراسة فنية: عماد عبد يحي، دار دجلة- عمان، ط1: 2009م
- ✓ بنية العقل العربي: مُحَمَّد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط9: 2009م،
- ✓ البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1423هـ-2003م.
- ✓ تأويل الجملة القرآنية الواحدة: نوار مُحَمَّد إسماعيل، ط1، 1431هـ- 2010م.
- ✓ تأويل القرآن النظرية والمعطيات: كمال الحيدري، دار فراقد- إيران، ط1: 1426هـ-2005م،
- ✓ تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، ت: أحمد صقر، د ط.
- ✓ التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي بقاء العكبري، ت: علي مُحَمَّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية
- ✓ التبيان في أقسام القرآن ابن قيم الجوزية ، ت: طه يوسف شاهين، ت ط، 1402هـ-1982م.
- ✓ التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبي، ت: مُحَمَّد سالم هاشم، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1: 1415هـ- 1995م.
- ✓ تطور البحث الدلالي: دراسة تطبيقية في القرآن الكريم: مُحَمَّد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي- بيروت، ط1: 1999م.

- ✓ التطور الدلالي في لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: خليل عودة، مكتبة المنار: الأردن، ط4: 1405هـ.
- ✓ التعبير القرآني: صالح فاضل السامرائي، دار عمار- عمان، ط1: 1427هـ-2006م،
- ✓ التعريفات: أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن علي الجرجاني، مطبعة أحمد كمال، اسطنبول، 1327هـ.
- ✓ تفسير التحرير والتنوير: مُحَمَّد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون، تونس، 1997
- ✓ تفسير القرآن العظيم: ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن مُحَمَّد السلامة، دار طيبة- المملكة العربية السعودية، ط2: 1420هـ- 1999م.
- ✓ التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار الفكر العربي: بيروت، ط1: 1981م
- ✓ التفسير اللغوي للقرآن الكريم: مساعد الطيار، دار ابن الجوزي.
- ✓ تفسير المنار: مُحَمَّد رشيد رضا، دار المنار: القاهرة، ط2: 1366هـ- 1947م
- ✓ تفسير غريب القرآن: أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، 1378هـ-1958م
- ✓ التفسير والمفسرون: مُحَمَّد حسين الذهبي، مكتبة وهبة- القاهرة
- ✓ تلخيص البيان في مجازات القرآن: الشريف الرضي، تحقيق: علي محمود مقلد، دار الحياة، بيروت، لبنان، 1986م.
- ✓ تيسير الحنان المنّان في تفسير كلام المنّان: عبد الرحمان بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، ط2: 1996م
- ✓ ثلاث رسائل في في إعجاز القرآن: الرماني والخطابي والجرجاني، ت: مُحَمَّد خلف الله أحمد و مُحَمَّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3.
- ✓ جامع البيان في تفسير القرآن: أبو جعفر بن جرير الطبري ، أعيد طبعه بالأوفست، 1392 ط2: هـ/1972م.
- ✓ الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد القرطبي، ت : أحمد بن أحمد البردوني، دار الشعب – القاهرة، ط2.
- ✓ الحق المطلق: عدنان الرفاعي، مركز الذكر للدراسات الإسلامية.

- ✓ حقائق علمية في القرآن: زغلول راغب النجار، دار المعرفة – بيروت، ط1: 1426هـ-2005م،
- ✓ خصائص التصور الإسلامي: سيد قطب، ط3: 1388هـ- 1968م،
- ✓ الخطاب القرآني ومناهج التأويل: عبد الرحمان بودرع، الرابطة المحمدية للعلماء: الرباط، ط1: 1435هـ-2014م.
- ✓ خواطر الشعراوي، دط.
- ✓ دراسات إسلامية معاصرة، أنور الجندي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1: 1403هـ- 1982م.
- ✓ دراسات لأسلوب القرآن الكريم: عبد الخالق عظيمة. دار الحديث- القاهرة.
- ✓ درة التنزيل وغرة التأويل: الخطيب الإسكافي، ت: مُحَمَّد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى: مكة المكرمة: 2001م.
- ✓ دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب: مُحَمَّد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط1417،1هـ، 1996م.
- ✓ دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: مُحَمَّد عبدة، تعليق: مُحَمَّد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1402هـ/1981م.
- ✓ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود الآلوسي، ت: على عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية . بيروت:1415 هـ
- ✓ السماء والسماوات في القرآن الكريم: عبد المجيد بن مُحَمَّد بن علي الغيلي، موقع رحى الحرف، 1436هـ-2015م،
- ✓ شرح العقائد النسفيّة: سعد الدين التفتازاني، تحقيق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهريّة- القاهرة،ط1: 1407هـ
- ✓ صحيح البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري، مكتبة الصفا – القاهرة، ط1: 2003م،
- ✓ الطبيعة في القرآن الكريم: كاصد ياسر الزيدي، دار الرشيد للنشر، العراق، المركز العربي للطباعة والنّشر، بيروت،1980م.
- ✓ الظاهرة القرآنيّة: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر- دمشق: سورية، ط4: 1987م.
- ✓ علل وأدوية: مُحَمَّد الغزالي، دار الشروق.

- ✓ على طريق التفسير البياني: صالح فاضل السامرائي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ- 2002م.
- ✓ العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، دار الهلال للنشر، بغداد 1981م.
- ✓ غرائب التفسير وعجائب التأويل: مُحَمَّد بن حمزة الكرماني، تحقيق: شمران سركال يونس العجلي، دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت.
- ✓ غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين النيسابوري، ت: زكرياء عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1996م.
- ✓ الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، تحقيق: مُحَمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة- القاهرة.
- ✓ فصول في أصول التفسير، مساعد الطيار، دار النشر الدولي الرياض، ط1 1413هـ -1993م.
- ✓ فهم القرآن: جواد علي كسار، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي- بيروت، ط2: 2010م.
- ✓ فوائد قرآنية: دقائق تفسيريّة منتقاة: هشام عبد الجواد الزهيري، الدار العالميّة للنّشر والتّوزيع.
- ✓ في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: وليد إبراهيم قصاب، دار الفكر: دمشق، ط2: 1432هـ- 2011م،
- ✓ في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط7: 1398هـ – 1978م،
- ✓ القاموس المحيط: مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الجليل، بيروت، مادة كون.
- ✓ القرآن الكريم وإعجازه العلمي، إبراهيم، مُحَمَّد إسماعيل دار الفكر العربي.
- ✓ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم- دراسة في الكتب المقدسة: موريس بوكاي، دار المعارف – مصر، 1979م.
- ✓ قصة الوجود: عدنان الرفاعي: مركز الذكر للدراسات الإسلامية.
- ✓ قضايا اللغة في كتب التفسير: الهادي الجطلاوي، دار مُحَمَّد علي الحاوي، صفاقس، ط1، 1998م
- ✓ كبرى اليقينيات الكونيّة: وجود الخالق ووظيفة المخلوق، مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر: بيروت، 1997م.
- ✓ كتاب الوجود: أبو الفيض المتوفى، مطبعة الحجازي – القاهرة 1947م.

- ✓ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، افتاب، طهران،
- ✓ الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي: أبو اسحاق أحمد،ت: أبو مُحَمَّد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، لبنان –بيروت– ط1: 1422هـ – 2002م.
- ✓ كليات رسائل النور: الكلمات: بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر–القاهرة، ط6: 2011م.
- ✓ كونية الإسلام: رؤية للوجود والمعرفة والآخر: صلاح سالم، مكتبة الشروق– القاهرة، ط1: 1429هـ–2008م،
- ✓ لسان العرب: ابن منظور الأنصاري، طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ✓ لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب: طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية: القاهرة، ط1: 2006م.
- ✓ الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إزوتسو، ترجمة: هلال مُحَمَّد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ط1: 2007م.
- ✓ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين نصر الله بن الأثير، ت: محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1939م.
- ✓ مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ت: أنور الباز وعامر عامر الجزار، دار الوفاء، ط3: 2005م.
- ✓ مختصر تفسير ابن كثير: مُحَمَّد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط5، 1400هـ
- ✓ مداخل إعجاز القرآن: محمود مُحَمَّد شاكر، دار المدني: جدة.
- ✓ المدرسة العقلية في التفسير: فهد الرومي، الرياض، ط2، 1983م.
- ✓ المذكر والمؤنث: أبو بكر بن الأنباري، ت: طارق عبد عون الجنابي، مطبعة العاني–العراق، ط1: 1978م.
- ✓ المشاهد في القرآن الكريم– دراسة تحليلية وصفية– حامد صادق قنيبي ، مكتبة المنار – الزرقاء: الأردن، ط1: 1984م
- ✓ معالم في المنهج القرآني: طه جابر العلواني، دار السلام– 2010م.
- ✓ **معاني النّحو**: صالح فاضل السامرائي الجزء الثاني: شركة العاتك: القاهرة، ط2: 1423هـ–2003م.

- ✓ معاني النّحو: صالح فاضل السامرائي، شركة العاتك – القاهرة.
- ✓ معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد.
- ✓ المعجزة الكبرى: عدنان الرفاعي، دار الخير، دمشق، ط1، 2006م.
- ✓ المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم: أحمد بسام ساعي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- فرجينيا: الولايات المتحدة الأمريكيه، ط1: 1436هـ 2015م.
- ✓ المعجم الوسيط: ابراهيم مصطفي وأحمد حسن الزيات، ، مصر، 1961م.
- ✓ معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر العربي، ت ط: 1399هـ- 1979م.
- ✓ المغني في أبواب التوحيد والعدل: للقاضي عبد الجبار المعتزلي، ت: أمين الخولي، الشركة العربية – مصر، 1380هـ.
- ✓ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الراغب الأصفهاني، إعداد ونشر مركز الدراسات والبحوث، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- ✓ مقدمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: مُحَمَّد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية القاهرة 1415هـ .
- ✓ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: ابن الزبير الغرناطي، ت: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي-بيروت- ط2: 2007م.
- ✓ من أسرار التعبير القرآني: صفاء الكلمة، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ- الرياض.
- ✓ من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حسن أبو العينين، مكتبة العبيكان- الرياض، ط2: 1425هـ- 2005م.
- ✓ مِن آيات الإعجاز العلمي، السماء في القرآن الكريم: زغلول راغب النجار، ط1، دار المعرفة- بيروت، لبنان1425هـ- 2004م.
- ✓ مناهل العرفان في علوم القرآن: مُحَمَّد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط1: 1995م.
- ✓ منطق الخطاب القرآني، دراسات في لغة القرآن: مُحَمَّد باقر سعيدي روشن، ترجمة: رضا شمس الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي- بيروت، ط1: 2016م.

- ✓ الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ضبط: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفّان- المملكة العربية السعودية، ط1: 1417هـ- 1997م.
- ✓ الموسوعة العربية العالمية، إعداد مجموعة من الباحثين، مؤسسة أعمال المؤسسة للنشر والتوزيع، ط2.
- ✓ النص والسلطة والحقيقة: إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط5: 2006م.
- ✓ نظام الإسلام: العقيدة والعبادة: مُحَمَّد المبارك، دار الفكر – بيروت، ط1: 1388هـ- 1968م.
- ✓ نظرات في التفسير العلمي للقرآن: يوسف القرضاوي، د ط.
- ✓ نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون زغلول راغب النجار، جمعية المحافظة على القرآن الكرم، عمّان، 2009م.
- ✓ نظرية السياق القرآني: المثنّى عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر – عمان –الأردن: ط1: 2008م.
- ✓ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، ت: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية – بيروت- 1995م.
- ✓ النكت والعيون: الماوردي، راجعه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية.
- ✓ هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي: مُحَمَّد إبراهيم شريف، دار السلام- القاهرة، 1986م.
- ✓ الوحدة البنائية: طه جابر العلواني، ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد 24، 1431هـ- 2010م.

الملتقيات والندوات:

- ✓ الإعجاز العلمي للقرآن بين الظن والتحقيق: عبد الجليل عبد الرحيم، بحوث المؤتمر الأول للإعجاز، بغداد1990م.
- ✓ بذور الدراسة الدلالية لألفاظ القرآن: سعد الكردي، مجلة التراث العربي، العدد: 66، 1977م.
- ✓ التأويل في القرآن المجيد – رؤية معرفية- ناجي بن الحاج الطاهر، أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء : الرباط:17-18 شعبان 1434هـ- الموافق:

26-27 يونيو 2013م، تحت عنوان: التأويل: سؤال المرجعية ومقتضيات السياق، دار ابن حزم – بيروت، ط2: 1436هـ-2015م،

- ✓ الروابط الموضوعية بين الأهلّة والمواقيت: عبد الله مُحَمَّد عبد الله، ندوة الأهلة والمواقيت والتقنيات الفلكيّة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1989م.
- ✓ من أصول التفسير اللغوية إلى البناء النصي: عبد الرحمان بودرع، المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه- المغرب.
- ✓ النص الشرعي وبناء مفهوم التأويل عبد الرحمان العضراوي، أعمال الندوة العلميّة الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 17-18 شعبان 1434هـ- الموافق: 26-27 يونيو 2013م، تحت عنوان: التأويل سؤال المرجعية ومقتضيات السياق، دار ابن حزم – بيروت، ط2: 1436هـ- 2015م،

المجلات والدوريات:

- ✓ التفسير اللغوي: سامي الكناني، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد السادس، جوان: 1999م.
- ✓ حول النظام المعرفي في القرآن الكريم، محمود عايد الرشدان، مجلة إسلامية المعرفة عدد 10 السنة 1997م.
- ✓ عادات القرآن الأسلوبية: راشد بن حمود الثنيان، رسالة دكتوراه، ط1: 1432هـ-2011م.
- ✓ الكناية في القرآن الكريم: أحمد فتحي رمضان، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، إشراف: الدكتورة مناهل فليح، 1415هـ/1995م.
- ✓ الليل والنهار في القرآن الكريم: ديالا عبد الجبار سعيد عبد الله، رسالة ماجستير، إشراف: أيمن مصطفى الدباغ، جامعة النجاح الوطنيّة، فلسطين، 2010م.
- ✓ المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية: رسالة دكتوراه: صالح بن عبد الله بن مُحَمَّد الشتري، إشراف: مُحَمَّد أبو موسى، جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية، 1421هـ-2001م.
- ✓ النص والسياق الحضاري: عبد الحميد بوكعباش، مجلة الإحياء، العدد الثاني.
- ✓ مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد الثالث، السنة الثالثة، 1403- 1404 هـ، مُحَمَّد الأنور السنهوتي.

✓ نشأة الكون وفناؤه في القرآن: دراسة في المنهج المعرفي على ضوء العلم الحديث، رسالة دكتوراه: مُحَمَّد حدبون، إشراف: رمضان يخلف، جامعة الحاج لخضر – باتنة، 1434هـ-2013م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ✓ **المصحف الشريف برواية حفص.**
- ✓ الآية الكبرى: بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر القاهرة، ط7: 2012م.
- ✓ الإتقان في علوم القران: جلال الدين السيوطي، ت: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي: بيروت، ت ط: 1425هـ-2004م.
- ✓ أدبية النص القرآني: بحث في نظرية التفسير: عمر حسن القيام، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2011 م.
- ✓ إسلامية المعرفة: عبد الجبار الرفاعي، إشكاليات التعارض وآليات التوحيد: العلم والدين من الصراع إلى الأسلمة، مجموعة من المؤلفين، ط1، بيروت: 2008م.
- ✓ أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره: مُحَمَّد مصطفوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي: بيروت، ط1: 2009م.
- ✓ أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر أبو فهر، دار المدني- جدة، ط1: 1991م.
- ✓ الإسلام في عصر العلم: ت مُحَمَّد أحمد الغمراوي، مطبعة السعادة، مصر، ط1: 1973م.
- ✓ الإسلام والتعددية: مُحَمَّد عمارة، دار الرشاد- القاهرة، ط1: 1997م.
- ✓ أسئلة بيانية في القرآن الكريم: صالح فاضل السامرائي، مكتبة الصحابة: الشارقة-الإمارات،ط1: 1429هـ-2008م.
- ✓ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: عائشة عبد الرحمان -بنت الشاطئ- دار المعارف، مصر، 1391هـ-1971م.
- ✓ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت، ط8، 1420هـ-1999م.
- ✓ إعجاز القرآن: أبو بكر بن مُحَمَّد الطيب الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف — مصر.
- ✓ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي عبد الله بن عمر بن مُحَمَّد القاضي، دار صادر، تركيا.
- ✓ البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1413هـ- 1993م.
- ✓ البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1413هـ- 1993م

- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزيّة، تحقيق: علي بن مُحَمَّد العمران، دار علم الفوائد.
- البرهان في توجيه متشابه القرآن لِما فيه من الحجة والبيان: محمود بن حمزة الكرماني، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.
- البرهان في علوم القرآن: مُحَمَّد بن عبد الله الزركشي، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1: 1408هـ/1988م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز أبادي، تحقيق : مُحَمَّد علي النجار القاهرة ، 1384هـ/1964م.
- بلاغة الخطاب وعلم النّص: صلاح فضل، عالم المعرفة: الكويت، 1992م.
- البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري: رابح دوب، دار الفجر للنشر والتوزيع – القاهرة- ط2: 1999م.
- البنى والدلالات في لغة القصص القرآني: دراسة فنية: عماد عبد يحي، دار دجلة- عمان، ط1: 2009م
- بنية العقل العربي: مُحَمَّد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط9: 2009م،
- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1423هـ-2003م.
- تأويل الجملة القرآنية الواحدة: نوار مُحَمَّد إسماعيل، ط1، 1431هـ- 2010م.
- تأويل القرآن النظرية والمعطيات: كمال الحيدري، دار فراقد- إيران، ط1: 1426هـ-2005م،
- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، ت: أحمد صقر، د ط.
- التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي بقاء العكبري، ت: علي مُحَمَّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية
- التبيان في أقسام القرآن ابن قيم الجوزية ، ت: طه يوسف شاهين، ت ط، 1402هـ-1982م.
- التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبي، ت: مُحَمَّد سالم هاشم، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1: 1415هـ- 1995م.
- تطور البحث الدلالي: دراسة تطبيقية في القرآن الكريم: مُحَمَّد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي- بيروت، ط1: 1999م.

- ✓ التطور الدلالي في لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: خليل عودة، مكتبة المنار: الأردن، ط4: 1405هـ.
- ✓ التعبير القرآني: صالح فاضل السامرائي، دار عمار- عمان، ط1: 1427هـ-2006م،
- ✓ التعريفات: أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن علي الجرجاني، مطبعة أحمد كمال، اسطنبول، 1327هـ.
- ✓ تفسير التحرير والتنوير: مُحَمَّد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون، تونس، 1997
- ✓ تفسير القرآن العظيم: ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن مُحَمَّد السلامة، دار طيبة- المملكة العربية السعودية، ط2: 1420هـ- 1999م.
- ✓ التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار الفكر العربي: بيروت، ط1: 1981م
- ✓ التفسير اللغوي للقرآن الكريم: مساعد الطيار، دار ابن الجوزي.
- ✓ تفسير المنار: مُحَمَّد رشيد رضا، دار المنار: القاهرة، ط2: 1366هـ- 1947م
- ✓ تفسير غريب القرآن: أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، 1378هـ-1958م
- ✓ التفسير والمفسرون: مُحَمَّد حسين الذهبي، مكتبة وهبة- القاهرة
- ✓ تلخيص البيان في مجازات القرآن: الشريف الرضي، تحقيق: علي محمود مقلد، دار الحياة، بيروت، لبنان، 1986م.
- ✓ تيسير الحنان المنّان في تفسير كلام المنّان: عبد الرحمان بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، ط2: 1996م
- ✓ ثلاث رسائل في في إعجاز القرآن: الرماني والخطابي والجرجاني، ت: مُحَمَّد خلف الله أحمد و مُحَمَّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3.
- ✓ جامع البيان في تفسير القرآن: أبو جعفر بن جرير الطبري ، أعيد طبعه بالأوفست، 1392 ط2: هـ/1972م.
- ✓ الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد القرطبي، ت : أحمد بن أحمد البردوني، دار الشعب – القاهرة، ط2.
- ✓ الحق المطلق: عدنان الرفاعي، مركز الذكر للدراسات الإسلامية.

- ✓ حقائق علمية في القرآن: زغلول راغب النجار، دار المعرفة – بيروت، ط1: 1426هـ-2005م،
- ✓ خصائص التصور الإسلامي: سيد قطب، ط3: 1388هـ- 1968م،
- ✓ الخطاب القرآني ومناهج التأويل: عبد الرحمان بودرع، الرابطة المحمدية للعلماء: الرباط، ط1: 1435هـ-2014م.
- ✓ خواطر الشعراوي، دط.
- ✓ دراسات إسلامية معاصرة، أنور الجندي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1: 1403هـ- 1982م.
- ✓ دراسات لأسلوب القرآن الكريم: عبد الخالق عظيمة. دار الحديث- القاهرة.
- ✓ درة التنزيل وغرة التأويل: الخطيب الإسكافي، ت: مُحَمَّد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى: مكة المكرمة: 2001م.
- ✓ دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب: مُحَمَّد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط1417،1هـ، 1996م.
- ✓ دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: مُحَمَّد عبدة، تعليق: مُحَمَّد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1402هـ/1981م.
- ✓ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود الآلوسي، ت: على عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية . بيروت:1415 هـ
- ✓ السماء والسماوات في القرآن الكريم: عبد المجيد بن مُحَمَّد بن علي الغيلي، موقع رحى الحرف، 1436هـ-2015م،
- ✓ شرح العقائد النسفيّة: سعد الدين التفتازاني، تحقيق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهريّة- القاهرة،ط1: 1407هـ
- ✓ صحيح البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري، مكتبة الصفا – القاهرة، ط1: 2003م،
- ✓ الطبيعة في القرآن الكريم: كاصد ياسر الزيدي، دار الرشيد للنشر، العراق، المركز العربي للطباعة والنّشر، بيروت،1980م.
- ✓ الظاهرة القرآنيّة: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر- دمشق: سورية، ط4: 1987م.
- ✓ علل وأدوية: مُحَمَّد الغزالي، دار الشروق.

- ✓ على طريق التفسير البياني: صالح فاضل السامرائي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ- 2002م.
- ✓ العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، دار الهلال للنشر، بغداد 1981م.
- ✓ غرائب التفسير وعجائب التأويل: مُحَمَّد بن حمزة الكرماني، تحقيق: شمران سركال يونس العجلي، دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت.
- ✓ غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين النيسابوري، ت: زكرياء عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1996م.
- ✓ الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، تحقيق: مُحَمَّد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة- القاهرة.
- ✓ فصول في أصول التفسير، مساعد الطيار، دار النشر الدولي الرياض، ط1 1413هـ -1993م.
- ✓ فهم القرآن: جواد علي كسار، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي- بيروت، ط2: 2010م.
- ✓ فوائد قرآنية: دقائق تفسيريّة منتقاة: هشام عبد الجواد الزهيري، الدار العالميّة للنّشر والتّوزيع.
- ✓ في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: وليد إبراهيم قصاب، دار الفكر: دمشق، ط2: 1432هـ- 2011م،
- ✓ في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط7: 1398هـ – 1978م،
- ✓ القاموس المحيط: مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الجليل، بيروت، مادة كون.
- ✓ القرآن الكريم وإعجازه العلمي، إبراهيم، مُحَمَّد إسماعيل دار الفكر العربي.
- ✓ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم- دراسة في الكتب المقدسة: موريس بوكاي، دار المعارف – مصر، 1979م.
- ✓ قصة الوجود: عدنان الرفاعي: مركز الذكر للدراسات الإسلامية.
- ✓ قضايا اللغة في كتب التفسير: الهادي الجطلاوي، دار مُحَمَّد علي الحاوي، صفاقس، ط1، 1998م
- ✓ كبرى اليقينيات الكونيّة: وجود الخالق ووظيفة المخلوق، مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر: بيروت، 1997م.
- ✓ كتاب الوجود: أبو الفيض المتوفى، مطبعة الحجازي – القاهرة 1947م.

- ✓ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، افتاب، طهران،
- ✓ الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي: أبو اسحاق أحمد،ت: أبو مُحَمَّد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، لبنان –بيروت– ط1: 1422هـ – 2002م.
- ✓ كليات رسائل النور: الكلمات: بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر–القاهرة، ط6: 2011م.
- ✓ كونية الإسلام: رؤية للوجود والمعرفة والآخر: صلاح سالم، مكتبة الشروق– القاهرة، ط1: 1429هـ–2008م،
- ✓ لسان العرب: ابن منظور الأنصاري، طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ✓ لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب: طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية: القاهرة، ط1: 2006م.
- ✓ الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إزوتسو، ترجمة: هلال مُحَمَّد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ط1: 2007م.
- ✓ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين نصر الله بن الأثير، ت: محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1939م.
- ✓ مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ت: أنور الباز وعامر عامر الجزار، دار الوفاء، ط3: 2005م.
- ✓ مختصر تفسير ابن كثير: مُحَمَّد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط5، 1400هـ
- ✓ مداخل إعجاز القرآن: محمود مُحَمَّد شاكر، دار المدني: جدة.
- ✓ المدرسة العقلية في التفسير: فهد الرومي، الرياض، ط2، 1983م.
- ✓ المذكر والمؤنث: أبو بكر بن الأنباري، ت: طارق عبد عون الجنابي، مطبعة العاني–العراق، ط1: 1978م.
- ✓ المشاهد في القرآن الكريم– دراسة تحليلية وصفية– حامد صادق قنيبي ، مكتبة المنار – الزرقاء: الأردن، ط1: 1984م
- ✓ معالم في المنهج القرآني: طه جابر العلواني، دار السلام– 2010م.
- ✓ **معاني النّحو**: صالح فاضل السامرائي الجزء الثاني: شركة العاتك: القاهرة، ط2: 1423هـ–2003م.

- ✓معاني النّحو: صالح فاضل السامرائي، شركة العاتك – القاهرة.
- ✓ معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد.
- ✓ المعجزة الكبرى: عدنان الرفاعي، دار الخير، دمشق، ط1، 2006م.
- ✓ المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم: أحمد بسام ساعي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- فرجينيا: الولايات المتحدة الأمريكيه، ط1: 1436هـ 2015م.
- ✓ المعجم الوسيط: ابراهيم مصطفي وأحمد حسن الزيات، ، مصر، 1961م.
- ✓ معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر العربي، ت ط: 1399هـ- 1979م.
- ✓ المغني في أبواب التوحيد والعدل: للقاضي عبد الجبار المعتزلي، ت: أمين الخولي، الشركة العربية – مصر، 1380هـ.
- ✓ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الراغب الأصفهاني، إعداد ونشر مركز الدراسات والبحوث، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- ✓ مقدمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: مُحَمَّد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية القاهرة 1415هـ .
- ✓ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: ابن الزبير الغرناطي، ت: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي-بيروت- ط2: 2007م.
- ✓ من أسرار التعبير القرآني: صفاء الكلمة، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ- الرياض.
- ✓ من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حسن أبو العينين، مكتبة العبيكان- الرياض، ط2: 1425هـ- 2005م.
- ✓م ِن آيات الإعجاز العلمي، السماء في القرآن الكريم: زغلول راغب النجار، ط1، دار المعرفة- بيروت، لبنان1425هـ- 2004م.
- ✓ مناهل العرفان في علوم القرآن: مُحَمَّد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط1: 1995م.
- ✓ منطق الخطاب القرآني، دراسات في لغة القرآن: مُحَمَّد باقر سعيدي روشن، ترجمة: رضا شمس الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي- بيروت، ط1: 2016م.

- ✓ الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ضبط: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفّان- المملكة العربية السعودية، ط1: 1417هـ- 1997م.
- ✓ الموسوعة العربية العالمية، إعداد مجموعة من الباحثين، مؤسسة أعمال المؤسسة للنشر والتوزيع، ط2.
- ✓ النص والسلطة والحقيقة: إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط5: 2006م.
- ✓ نظام الإسلام: العقيدة والعبادة: مُحَمَّد المبارك، دار الفكر – بيروت، ط1: 1388هـ- 1968م.
- ✓ نظرات في التفسير العلمي للقرآن: يوسف القرضاوي، د ط.
- ✓ نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون زغلول راغب النجار، جمعية المحافظة على القرآن الكرم، عمّان، 2009م.
- ✓ نظرية السياق القرآني: لمثنّ عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر – عمان –الأردن: ط1: 2008م.
- ✓ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، ت: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية – بيروت- 1995م.
- ✓ النكت والعيون: الماوردي، راجعه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية.
- ✓ هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي: مُحَمَّد إبراهيم شريف، دار السلام- القاهرة، 1986م.
- ✓ الوحدة البنائية: طه جابر العلواني، ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد 24، 1431هـ- 2010م.

الملتقيات والندوات:

- ✓ الإعجاز العلمي للقرآن بين الظن والتحقيق: عبد الجليل عبد الرحيم، بحوث المؤتمر الأول للإعجاز، بغداد1990م.
- ✓ بذور الدراسة الدلالية لألفاظ القرآن: سعد الكردي، مجلة التراث العربي، العدد: 66، 1977م.
- ✓ التأويل في القرآن المجيد – رؤية معرفية- ناجي بن الحاج الطاهر، أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء : الرباط:17-18 شعبان 1434هـ- الموافق:

26-27 يونيو 2013م، تحت عنوان: التأويل: سؤال المرجعية ومقتضيات السياق، دار ابن حزم – بيروت، ط2: 1436هـ-2015م،

- ✓ الروابط الموضوعية بين الأهلّة والمواقيت: عبد الله مُحَمَّد عبد الله، ندوة الأهلة والمواقيت والتقنيات الفلكيّة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1989م.
- ✓ من أصول التفسير اللغوية إلى البناء النصي: عبد الرحمان بودرع، المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه- المغرب.
- ✓ النص الشرعي وبناء مفهوم التأويل عبد الرحمان العضراوي، أعمال الندوة العلميّة الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 17-18 شعبان 1434هـ- الموافق: 26-27 يونيو 2013م، تحت عنوان: التأويل سؤال المرجعية ومقتضيات السياق، دار ابن حزم – بيروت، ط2: 1436هـ- 2015م،

المجلات والدوريات:

- ✓ التفسير اللغوي: سامي الكناني، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد السادس، جوان: 1999م.
- ✓ حول النظام المعرفي في القرآن الكريم، محمود عايد الرشدان، مجلة إسلامية المعرفة عدد 10 السنة 1997م.
- ✓ عادات القرآن الأسلوبية: راشد بن حمود الثنيان، رسالة دكتوراه، ط1: 1432هـ-2011م.
- ✓ الكناية في القرآن الكريم: أحمد فتحي رمضان، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، إشراف: الدكتورة مناهل فليح، 1415هـ/1995م.
- ✓ الليل والنهار في القرآن الكريم: ديالا عبد الجبار سعيد عبد الله، رسالة ماجستير، إشراف: أيمن مصطفى الدباغ، جامعةالنجاح الوطنيّة، فلسطين، 2010م.
- ✓ المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية: رسالة دكتوراه: صالح بن عبد الله بن مُحَمَّد الشتري، إشراف: مُحَمَّد أبو موسى، جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية، 1421هـ-2001م.
- ✓ النص والسياق الحضاري: عبد الحميد بوكعباش، مجلة الإحياء، العدد الثاني.
- ✓ مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد الثالث، السنة الثالثة، 1403- 1404 هـ، مُحَمَّد الأنور السنهوتي.

✓ نشأة الكون وفناؤه في القرآن: دراسة في المنهج المعرفي على ضوء العلم الحديث، رسالة دكتوراه: مُحَمَّد حدبون، إشراف: رمضان يخلف، جامعة الحاج لخضر – باتنة، 1434هـ-2013م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المحتويات

مقدمة: .....أ

تمهيد: مصطلح البيان في الدرس اللغوي و البلاغي.....**01**

الفصل الأول: من أصول البيان القرآني..... .....**07**

المبحث الأوّل: اللفظ القرآني.....**07**

المبحث الثاني: العرف القرآني وأثره في صياغة النظرية البيانية.....**19**

المبحث الثالث: النّسق القرآني: المفهوم والمصطلح.....**28**

الفصل الثاني: الآيات الكونيّة ومسألة التفسير العلمي.....**42**

المبحث الأول: الآيات الكونية من منظور التفسير العلمي.....**42**

المبحث الثاني: الجمع بين القراءتين: القرآن والكون.....**56**

الفصل الثالث: آيات السموات والأرض.....**67**

الفصل الرابع: آيات الشمس والقمر والليل والنهار.....**124**

المبحث الأول: آيات الشمس والقمر.....**124**

المبحث الثاني: آيات الليل والنّهار.....**138**

الفصل الخامس: آيات كونيّة أخرى.....**167**

الخاتمة:.....**211**

الفهارس العامّة: **212**

فهرس الآيات القرآنيّة **213**

ثبت المصادر والمراجع.....225

ملخص البحث.....235

فهرس المحتويات 238

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص الأطروحة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يهدفُ البحث إلى إظهار بعض أسرار البلاغة القرآنية ومَدى قدرة أدوات اللغة وأساليبها على فهم حقيقة الآيات الكونية ومقاصدها، واستدعى البحث في هذا الموضوع التطرّق إلى قسمين **أولهما**: نظري جاء فيه حديث عن أصول البيان القرآني وما يتعلّق به من مباحث مثل خصوصيات اللفظ القرآني، ونظرية العُرف، إلى جانب خصائص النّظم القرآني وما يندرجُ في إطاره من مصطلحات ومفاهيم، ثم جاء الفصل الذي بعده ليتكفّل بتعريف الآيات الكونيّة، وأهميّة الجمع بين القراءتين – القرآن والكون– مع التطرّق لمسألة التفسير العلمي للقرآن وما ميّزها على مستوى المنهج والمصطلح.

وجاء **الجزء الثاني** تطبيقيًّا تضمّن ثلاثة فصول، أولها: في الحديث عن آيات السموات والأرض وما فيها من أساليب بلاغية ودلالات ومقاصد، وثانيها: في الوقوف عند آيات الشمس والقمر والليل والنّهار وما بين هذه الظواهر من ترابطٍ وتداخُل، وتكفّلَ الفصل الذي بعدهما ببيان بعض النواحي البيانيّة في آيات كونيّة أخرى متعدّدة.

وخلُصَ البحث إلى أنّ للقرآن الكريم معجمه الخاص وعاداته في التّعبير؛ والعملُ على إدراك هذه النّاحية يُسهم في صياغة النظرية البيانية للقرآن وما لها من قيمة في استكشاف مكامن النّص وأسراره ومقاصده العليا.

إنّ فهم الآيات الكونيّة لا يُمكن أن يكون بعزلها عن نسقها الفكري واللغوي الذي صيغت في إطاره؛ لأنّ الظواهر الكونيّة في القرآن لم تُذكر لِذاتها ومِن أجل ذاتها بل هي محكومة بأغراض ومقاصد عليا.

النّظر الكلّي للقرآن والبحث عن وجوه وعِلل تجاور الموضوعات على هذا النّحو لا يزال بحاجة إلى اهتمام أكبر ونظرٍ أعمق؛ لأنّ التحدي في القرآن لم يقع بآية واحدة أو مجموعة من الآيات بل وقع بسورة أو أكثر.

Résumé :

L'objectif de la recherche est de montrer quelques-uns des mystères de la rhétorique coranique et la capacité des outils et méthodes langagiers ; à comprendre la réalité des versets cosmiques et de leurs finalités. Ainsi que les caractéristiques des systèmes coraniques et leur terminologie et les concepts, puis le chapitre suivant pour assurer la définition des versets universels et l'importance de combiner les deux lectures - le Coran et l'univers - tout en abordant la question de l'interprétation scientifique du Coran et de la distinction entre le curriculum et le terme

La deuxième partie s'applique en trois chapitres: la première consiste à parler des versets des cieux et de la terre et des moyens de la rhétorique, des signes et des objectifs, l'autre aux signes du soleil, de la lune, de la nuit et du jour, et entre ces phénomènes d'interdépendance et de chevauchement. Dans beaucoup d'autres versets cosmiques.

L'étude a conclu que le Coran avait son propre dictionnaire et ses coutumes en matière d'expression, ce qui contribue à la formulation de la théorie coranique et à son intérêt pour l'exploration des sources, des secrets et des finalités du texte.

La compréhension des versets universels ne peut pas être isolés du modèle intellectuel et linguistique qui y était défini, car les phénomènes cosmiques dans le Coran ne sont pas mentionnés pour eux-mêmes et mais sont régis par des buts et finalités suprêmes.

La prise en compte totale du Coran et la recherche de visages et les prétextes de la juxtaposition de sujets de cette manière nécessitent encore une plus grande attention et une considération plus profonde, car le défi dans le Coran ne tombait pas dans un verset ou un groupe de versets, mais plutôt dans un ou plusieurs versets.

Research Summary:

This research aims to shed light on the mysteries of Quranic rhetoric and the ability of the language tools and methods to understand the reality of the cosmic verses and their purposes. The research called on this topic to deal with two parts. The first one is a theoretical discussion about the origins of the Quranic statement and its related aspects in addition to the characteristics of the Quranic systems and its terminology and concepts. After that came the chapter that followed to define the universal verses and the importance of combining the two readings- the Quran and the universe- while addressing the question of the scientific interpretation of the Quran and its distinction at the level of the curriculum and the term. The second part is applied in three chapters. The first is applied in three chapters. The first is to talk about the verses of the heavens and the earth and the means of rhetoric, signs and purposes. Second, to stand at the signs of the Sun, the Moon, night and day; these phenomena overlap in many other cosmic verses. The study concluded that the Holy Quran has its own dictionary and customs in expression; working to realize this aspect contributes to the formulation of the Quranic theory and its value in exploring the text's sources, secrets and ultimate purposes. The understanding of the universal verses cannot be isolated from the intellectual and linguistic pattern that was formed within it because cosmic phenomena in the Quran are not mentioned for themselves but are governed by supreme purposes.

The total consideration of the Quran and the search for faces and the pretexts of the juxtaposition of subjects in this manner still require greater attention and deeper consideration because the challenge in the Quran did not fall into one verse or a group of verses, but rather one or more